سلسلة كنوز الحضارة

تاريخ
العالم الإسلامي

إعـــداد

د. عصام محمد فكري علي.. د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

901.9

ع . ع عصام محمد فكري .على

سـلسـلة كنوز الحضـارة / عصـام محمد فكري علي .{واخ}.-ط1.-

دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.

396 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 6 - 659 – 308 – 977 – 978

1. الحضارة – تاريخ .

أ - عصام محمد فكري علي ، (معد مشارك) .

رقم الإيداع : 2883 .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

النـــاشـــر : دار الجـــديد للنشـــر والتـــوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

الفهـــــرس

مقدمة

عندما ظهر كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط في المعارض الدولية كان إقبال الناس عليه متميزاً عن بقية السلسلة التاريخية التي كتبتها عن التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي إن تصور الحياة والكون والإنسان وحركة التاريخ من خلال منهج الخلاق العليم المتمثل في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم ع يعتبر اعجاز في حد ذاته، وعلى الأخوة المثقفين المتأثرين بالمناهج الغربية في كتابة تاريخنا أن يتحرروا من تلك الأغلال والقيود الفكرية التي فرضها المستعمر والذي حاول ولايزال جاهداً أن يبعد المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم هذه بعض الردود على ما وصلتني من اعتراضات عن المنهجية ولم تكن مع الناقدين حجة ألا أنهم لم يتعودوا قراءة التاريخ بهذه المنهجية السنية البهية، وقد جاءتني بعض الانتقادات العلمية من بعض الباحثين، وقد استفدت منها فلهم مني الشكر والدعاء في ظهر الغيب بالتوفيق والسداد وأن يوفقنا جميعاً لخدمة ديننا وعقيدتنا وتاريخ أمتنا المجيد .

الفصل الأول تاريخ الدولة الإسلامية من العصر الأموي إلى دولة الخلافة العثمانية.

دولة الخلافة الأموية:

بعد مقتل على -رضى الله عنه- سنة 40هـ تهيأت الظروف للأمويين لكى يبسطوا سلطانهم على الدولة الإسلامية.

حقًّا إنهم ذَوُو حسب ونسب، فهم سلالة "أمية بن عبد شمس" أحد سادات قريش وزعمائها قبل الإسلام.

وقد كان سفيان بن حرب والد معاوية أحد أبناء هذا البيت الأموى ومن أكبر سادات قريش، وإليه كانت قيادة قوافل التجارة، وإدارة شئون الحرب، ولم يسلم إلا عند فتح مكة، وروى عن معاوية أنه أسلم يوم عمرة القضاء وكتم إسلامه حتى فَتْح مكة، وقد لقى أبوسفيان من الرسول (معاملة كريمة حيث أعلن عند فتح مكة أن "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن". واستخدم الرسول (معاوية كاتبًا له، واستعان الخلفاء الراشدون بأبناء البيت الأموى، فكان يزيد بن أبى سفيان أحد قادة الجيوش الأربعة التى بعث بها أبو بكر -رضى الله عنه- لفتح الشام سنة 11هـ/633م.

وقد حارب يزيد وتحت إمرته أخوه معاوية فى عهد الخليفة عمر فلما توفى يزيد سنة 18هـ/ 639م، استعمل الخليفة "عمر" معاوية بن أبى سفيان على دمشق وعلى خراجها، ثم جمع له الشام كلها.

عام الجماعة:

ولقد مهدت الأقدار لمعاوية بن أبى سفيان فى أن يخطو خطوات ثابتة لكى يتولى منصب الخلافة، وبايعه الحسن بن على -رضى الله عنه- الذى كان قد خلف أباه وصار معه ما يقرب من اثنين وأربعين ألفًا من الجند، لكنه لم يطمئن إلى ولاء العاملين معه.

كان ذلك عام 41هـ/662م، وهو عام الجماعة الأول، لأن معاوية نال فيه البيعة بالخلافة من جميع الأمصار الإسلامية، ويعتبر هذا العام الميلاد الرسمى لقيام الدولة الأموية.

ولقد روى عن الحسن البصرى أنه قال: استقبل- والله- الحسنُ بن على معاويةَ بن أبى سفيان بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إنى لأرى كتائب لا تتولى حتى يقتل أقرانها. فقال معاوية وكان والله خير الرجلين إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لى بأمور المسلمين، من لى بضعيفهم؟ من لى بنسائهم؟ وبعث معاوية إلى الحسن يطلب المصالحة وحقن دماء المسلمين، وكان الحسن مهيأ لهذا الأمر النبيل، فما أعز دماء المسلمين عنده.

وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية على أن تعود الخلافة بعده شورى بين المسلمين.

ولما قدم الحسن الكوفة قابله سيل من التعنيف واللوم لتنازله عن الخلافة، لكنه كان بارًا راشدًا لا يجد فى صدره من هذا الأمر حرجًا أو ندمًا، قال له رجل اسمه عامر: السلام عليك يا مذل المؤمنين.

قال: لا تقل هذا يا عامر، لست بمذل المؤمنين، ولكنى كرهت أن أقتلهم على المُلْك.

وتحققت نبوءة النبى (فى الحسن يوم قال: "إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين". [أحمد والبخارى وأبو داود، والترمذى والنسائى).

خلافة معاوية بن أبى سفيان (60 - 41هـ/ 661- 679م):

عندما أصبح معاوية خليفة للمسلمين، كانت الدولة الإسلامية تقوم على شبه الجزيرة العربية، والشام، والعراق، ومصر، وبلاد الجزيرة، وخراسان.
أما الجهات التى وصلت إليها الجيوش الإسلامية فيما وراء تلك البلاد فإنها كانت تفتقر إلى الاستقرار.

وكان للفتنة التى حدثت فى عهد عثمان، وما أعقبها من صراع بين على ومعاوية أثرهما فى توقف حركة الفتوحات الكبرى، ومتابعة الجهاد فى سبيل حماية الإسلام، وأداء رسالته، واستكمال بناء الدولة الإسلامية.

فلابد أن تعود المياه إلى مجاريها، ولابد أن تعود الفتوحات الإسلامية كما كانت، بل وأكثر مما كانت.

لقد أصبحت "دمشق" عاصمة الخلافة، ومنها تنطلق الجيوش باسم الله. وعمل معاوية منذ توليه الخلافة على تجهيز الجيوش بشن حرب شاملة ضد "الإمبراطورية البيزنطية"، وهى "إمبراطورية الروم".

لقد كانت مركز القوة الرئيسية المعادية للدولة الإسلامية، وطالما حاولت فى لحظات الخلاف والفتنة أن تسترد الشام ومصر، أغلى أقاليم "الإمبراطورية الرومانية" قبل فتح العرب لهما.

إن أراضى آسيا الصغرى التابعة لتلك الإمبراطورية تتاخم الجهات الشمالية من بلاد الشام والعراق، وتنطلق منها الجيوش الرومية لتخريب هذين الإقليمين العربيين ! فلماذا لا يحاول معاوية القضاء على ذلك العدو اللدود؟ لماذا لا يستولى على القسطنطينية نفسها عاصمة تلك الإمبراطورية ؟

أعد معاوية الحملة الأولى، وزودها بالعَدد والعُدد، وجعل على رأسها ابنه وولى عهده يزيد، ولم يتخلف صحابة رسول الله (عن الجهاد فى سبيل الله، فانضموا
إلى هذه الحملة متمثلين أمام أعينهم، قول الرسول ("لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش" [أحمد والحاكم]، آملين أن يتحقق فيهم قول الرسول). فقد ثبت عن رسول الله (: "أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" البخارى).

ولقد اشترك فى هذه الحملة أبو أيوب الأنصارى الذى نزل النبى (فى بيته عند الهجرة. ولم يستطع المسلمون فتح المدينة هذه المرة، ولكن حسبهم أنهم أول جيش يغزو القسطنطينية.
ولقد سعد معاوية باشتراك الصحابة فى هذه الغزوة، فهم خير وبركة، فبهم تعلو راية المجاهدين.
واتجهت هذه الجيوش إلى القسطنطينية حتى فتحوا بلادًا عديدة فى آسيا الصغرى وضَربوا الحصار على العاصمة الحصينة. وعزز معاوية هذه الغزوة بأسطول سار تحت قيادة فضالة بن عبيد الأنصارى، وسار هذا الأسطول إلى مياه العاصمة البيزنطية.
وأثناء الحصار، مرض "أبو أيوب الأنصارى" ولم يلبث أن توفى، ودفن جثمانه قرب أسوار القسطنطينية، وأظهر الجنود المسلمون ضروبًا من الشجاعة أذهلت الروم، ثم انسحبت الجيوش الإسلامية بعد ذلك تأهبًا لكرّة أخرى من الجهاد.

حرب السنوات السبع:

بعث معاوية حملة ثانية ضد القسطنطينية؛ إنه يدرك خطر البيزنطيين، ويعمل جاهدًا على تدمير قوتهم.
لقد دام الحصار للقسطنطينية سبع سنوات (54 - 60 هـ / 674 - 680م)، وكان التعاون قائمًا بين القوات البحرية والأسطول الإسلامى، فقد اتخذ الأسطول مقرّا له فى جزيرة "أرواد" قرب مياه القسطنطينية، وبمطلع الربيع، تم إحكام الحصار، فانتقلت القوات البرية لإلقاء الحصار على أسوار العاصمة، على حين تولت سفن الأسطول حصار الأسوار البحرية.
وباقتراب فصل الشتاء نقل الأسطول قوات المسلمين إلى جزيرة "أرواد" حماية لها من برد تلك الجهات القارص، ثم عاد فنقلها لمتابعة الحصار بمطلع الربيع.
ولم تستطع هذه "الحملة الثانية" اقتحام القسطنطينية بسبب مناعة أسوارها، وما كان يطلقه البيزنطيون على سفن الأسطول الإسلامى من نيران، فانتهى الأمر بعقد صلح بين المسلمين والبيزنطيين مدته ثلاثون عامًا، عام 56هـ / 676م.

وبرغم عجز هاتين الحملتين عن الاستيلاء على القسطنطينية فإنهما حققتا أهدافًا واسعة، فلقد تخلى أباطرة الروم عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة فى استعادة مصر والشام، وغيرهما من الأراضى التى كانت تابعة لهم من قبل، وعلموا أن جيوش الإسلام باتت قوية، وراحت تدق أبواب عاصمتهم بعنف.

لقد زلزلت القوات الإسلامية إمبراطوريتهم نفسها، وشلت نشاط القوات البيزنطية، وقلمت أظفارها، مما أتاح للأمويين بسط رقعة الدولة شرقًا وغربًا.

الجهاد فى الميدان الشرقى:

فإذا انتقلنا من الشام إلى الميدان الشرقى نجد أن الفتوحات التى توقفت أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قد استأنفها الأمويون، فعندما تولى معاوية الحكم بعث الجيوش لنشر الإسلام فى مواطن جديدة سكنها الأتراك فى بلاد ما وراء النهر، وإلى بلاد الهند التى كانت موطن حضارة من أقدم الحضارات فى جنوب شرق آسيا.

وفى بلاد الشرق، حيث كان زياد بن أبيه واليًا على تلك البلاد من قِبَل معاوية بن أبى سفيان، غزا المسلمون أفغانستان فسقطت "كابول" فى أيديهم سنة 664م، وعبروا نهر جيحون، واستولوا على بخارى سنة 674م، ثم على سمرقند سنة 676م، ثم واصلوا زحفهم حتى نهر سيحون، وذلك على يد قادة من شباب الإسلام مثل محمد بن القاسم الثقفى وقتيبة بن مسلم الباهلى وغيرهما.

الجهاد فى الميدان الغربى:

وانطلقت الفتوحات الأموية منذ ولى معاوية بن أبى سفيان نحو الميدان الغربى فى البلاد التى تلاصق مصر من جهة الغرب، وتمتد من "برقة" إلى المحيط الأطلسى، وكانت معروفة عند العرب باسم بلاد المغرب، وكان يسكنها أناس عرفوا باسم البربر، وهم ينتمون فى أصلهم إلى العنصر الليبى القديم الذى يرتبط مع الأصول التى ينتمى إليها المصريون القدماء.

وكان هؤلاء البربر ينقسمون بحسب مسكنهم إلى قسمين: حضر يزرعون الأرض ويعيشون مستقرين قرب الساحل، وعلى سفوح الجبال الخصبة، واشتهروا باسم "البرانس". وبدو يرعون قطعانهم من الماشية فى الصحاري، وعرفوا باسم "البتر".

عقبة فى بلاد المغرب:

وأسند الخليفة معاوية بن أبى سفيان فتح تلك البلاد وإفريقية سنة 50هـ إلى "عقبة بن نافع الفهرى"، الذى كان مقيمًا ببرقة منذ أن فتحها عمرو بن العاص أثناء ولايته الأولى على مصر، فكان عقبة من أكثر الناس خبرة ودراية بأحوال هذه البلاد، وعهد إليه معاوية بقيادة بعض السرايا الحربية التى توغلت فى شمال إفريقية، ورأى عقبة أن أفضل الطرق لفتح بلاد المغرب يقتضى إنشاء قاعدة للجيوش العربية فى المنطقة التى عرفها العرب باسم إفريقية، وهى جمهورية تونس الحالية.

واستطاع عقبة تنفيذ مشروعه حين انطلق بجيوشه إلى إفريقية واستولى عليها، لقد اختار موقعًا يلتقى عنده "البرانس" و "البتر" وأقام عليه قاعدته التى سماها "القيروان"، وشرح عقبة أهدافه من تأسيس القيروان قائلا لجنوده: وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها (أى بأفريقية) مدينة نجعل فيها عسكرًا، وتكون عز الإسلام إلى أبد الدهر.

وكان عقبة بن نافع صادق الإيمان، فيروى أنه لما بدأ فى بناء القيروان، وكان مكانها مكان ملتف بالشجر تأوى إليها السباع والوحوش والحيات العظام، فدعا الله تعالى فلم يبق فيها شىء من ذلك، حتى إن السباع صارت تخرج منها تحمل أولادها، والحيات يخرجن هاربة من أحجارهن، ولما رأى البربر ذلك أسلم منهم عدد كبير.

الأحوال الداخلية للدولة:

دمشق العاصمة الجديدة:

كان على -رضى الله عنه- قد اتخذ من "الكوفة" مركزًا للخلافة، فاتخذ معاوية بن أبى سفيان مدينة "دمشق" لتكون مقرّا لخلافته ولآل بيته من بعده. وكانت هذه الخطوة تعنى أن مقر الخلافة أصبح محصنًا بقوة مادية وبشرية كبيرة، وشجعه على ذلك أن أهل الشام برهنوا له عن ولائهم للبيت الأموى، ووقفوا إلى جانب معاوية خلال تلك الفترة التى قامت فيها الفتنة.

وكان معاوية قد راح يدعم علاقته بالقبائل الكبيرة منذ ولايته على الشام، فصاهر أقواها وأعزها، وأكثرها نفرًا، وهى قبائل كلب اليمانية، فكانت زوجته ميسون من بنى بحدل من قبيلة كلب، وأنجب منها ابنه يزيد الذى صار ولى عهد الدولة الأموية.

أما عن موقع مدينة دمشق عاصمة الخلافة الجديدة، فقد كان موقعًا فريدًا، فهى تقع على حافة بادية البلقاء، فى واحة الغوطة الخصيبة، ويغذيها نهر بردى، وتحيط بها جبال شاهقة من جميع نواحيها وهى إلى جانب هذا كله متجرًا للقوافل التجارية المعروفة باسم "رحلات الصيف."
وها هى ذى قد أصبحت بعد الفتح الإسلامى معسكرًا للجيوش الإسلامية، وقاعدة تباشر منها مهامها الحربية، وتستطيع مراقبة العدو الأول للدولة الإسلامية، وهو إمبراطورية الروم.

الوراثة فى الحكم:

وكانت السمة الثانية التى ميزت الدولة الأموية: تطبيق مبدأ الوراثة فى الحكم، لقد تخلى معاوية عن القواعد التى جرى عليها انتخاب الخلفاء الراشدين من قبله، معتقدًا أن المجتمع الإسلامى بعد هذه السنين قد تطور، وأن قوى جديدة فيه قد ظهرت تريد أن تبحث لها عن دور، وأن القبائل الكبرى التى قامت بالدور البارز فى حركة الفتوح وقيادة الجيوش لم تعد تقبل بسهولة أن تنقاد لمن لا ترى مصالحها عنده، وتضمن نفوذها لديه، وأن الأمصار والولايات الجديدة قد أصبحت حريصة على جعل جهاز الحكم فيها، أو قريبًا منها، مما يهدد الدولة الإسلامية بالتنازع والحروب الداخلية فرأى أن يستخلف ولده يزيد إذ تؤيده قوة أهل الشام وتحميه قوة قبيلة كلب التى منها أمه وأخواله. .وبالرغم من العقبات التى اعترضت معاوية فإنه استطاع الحصول على البيعة لابنه يزيد سنة 56هـ / 676م، وبهذا تم تحويل الخلافة إلى سلطة مبدأ التوريث.
وصار معاوية بذلك مؤسس الدولة الأموية، وأول من طبق الوراثة فى الخلافة الإسلامية.

منجزات معاوية:

أما عن عهد معاوية فقد كان حافلا بالإنجازات، فقد أعاد حبات العقد التى انفرطت فنظمها من جديد، وبعث الجيوش شرقًا وغربًا، وقضى على الفتنة، وأتاح للراية الإسلامية أن تواصل تقدمها فى كل اتجاه، ولقن أعداء الأمة دروسًا لا تنسى!
ولقد تحقق له ما أراد، فأقام دولة لبنى أمية وَوَرَّثَ ابنه يزيد الخلافة من بعده، ثم أجاب داعى الله بعد حياة حافلة، وقد قال فيه رسول الله (: "اللهم اجعله هاديًا مهديّا واهدِ به" [أحمد والترمذى)

وقد لقى معاوية ربه، فى رجب سنة 60هـ / 680م.

خلافة يزيد بن معاوية (64 - 60هـ/ 679- 683م):

بويع له فى حياة أبيه ليكون وليّا للعهد من بعده، ثم أكد البيعة لنفسه بعد موت والده فى النصف الثانى من رجب سنة ستين، واستمر فى منصبه إلى أن توفى سنة أربع وستين!

وقد واجهته المشاكل والعقبات عقب تسلمه الحكم، فقد قامت ضده ثلاث ثورات، ترجع دوافعها إلى تقرير "مبدأ الوراثة" فى بنى أمية.

الفتنة:

ماكاد يزيد يتسلم زمام الحكم حتى واجه نفرًا من المسلمين يمتنعون عن مبايعته، ثم ما لبثت معارضتهم لبيعته أن تحولت إلى ثورة مسلحة.

وكان يزيد قد طلب من أمير المدينة المنورة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان الحصول على البيعة من الحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، لكن الحسن وابن الزبير رفضا، وخرجا من المدينة إلى مكة، وتوقف ابن عمر فقال: إن بايع الناس بايعت. فلما بايع الناس بايعه ابن عمر، وتعقَّد الموقف فى الحجاز.

وعلم أهل العراق برفض الحسين مبايعة يزيد وتوجهه إلى مكة، فوجدوا الفرصة سانحة للتخلص من الأمويين وإعادة الدولة كما كانت فى عهد على؛ ليتولى أمرهم الحسين بن على، فهو أحب إليهم من يزيد بن معاوية! وبقاء الحكم فى العراق أحب إليهم من بقائه فى الشام.

فأرسلوا رسلهم إلى الحسين، ليحرضوه على المطالبة بالخلافة، ويطلبوا منه المسير إلى الكوفة، فبعث الحسينُ ابنَ عمِّه "مسلم بن عقيل بن أبى طالب" إلى الكوفة ليتبين الموقف؛ وليمهد له الأمر، حتى إذا رأى إجماع الناس على بيعته أسرع بإحاطته علمًا بذلك. وعندما أقبل "مسلم بن عقيل" على الكوفة رأى من أهلها إقبالا ورغبة فى مبايعة الحسين، فبعث إليه على الفور يستعجل قدومه. لكن الأمويين كانوا قد أحيطوا علمًا بما يدور فى الكوفة فأرسلوا على الفور عبيد الله بن زياد واليًا عليها ليحفظ الأمن والنظام، وليضبط الأمر على النهج الذى اتبعه والده زياد من قبل أيام الخليفة معاوية بن أبى سفيان.

استطاع عبيد الله أن يُحكم سيطرته على البلاد، ويقتل قادة الدعوة إلى الحسين، ومن بينهم "مسلم بن عقيل" ويخرس الألسنة التى تنادى بالحسين خليفة.
وتحرك ركب الحسين إلى الكوفة فى هذا الجو المتأزم الملبد بالغيوم، فنصحه كبار الصحابة وكبار شيعته مثل أخوه: محمد بن الحنفية، وعبد الرحمن بن الحارث المخزومى، وعبد الله بن عباس، ليصرف النظر عن الذهاب إلى العراق، وعدم الاطمئنان لما نقل إليه من موافقة أهلها على مبايعته، غير أن الحسين -رضى الله عنه- لم يستمع لنصح الناصحين.

حادث كربلاء:

خرج -رضى الله عنه- فى جماعة من شيعته لا يزيدون عن ثمانين رجلا، ومعه نساؤه وأطفاله قاصدًا الكوفة دون أن يعلم بما حدث! فلما بلغه ما حدث لم يتراجع، بل واصل المسير وكانت القوات الأموية فى انتظاره، ولم يكن اللقاء متكافئًا. وفى "كربلاء" التحم الفريقان، فسالت الدماء وسقط الحسين شهيدًا بالقرب من الكوفة يوم عاشوراء فى العاشر من المحرم سنة 61هـ / 681م، وتخلص يزيد من أحد منافسيه الأقوياء، وبقى عبد الله بن الزبير.

مواجهة عبدالله بن الزبير:

ذهب عبدالله إلى مكة محتميًا بها، وسمى نفسه العائذ بالبيت. فلما بلغه استشهاد الحسين أخد البيعة لنفسه من أصحابه فى وجود والى مكة الأموي "عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق" الذى كان فى استطاعته أن يتغلب على ابن الزبير، لكنه كان يرفق به.
فماذا يفعل يزيد، وقد لجأ ابن الزبير إلى الحمى ؟!
ولى على الحجاز الوليد بن عتبة بن أبى سفيان الذى اشتد على "ابن الزبير" فلم يجد ابن الزبير بدّا من اللجوء إلى حيلة معقولة؛ لكى يتخلص من الوليد. وهداه تفكيره إلى أن يطلب إلى يزيد تغيير هذا الوالى حتى يتسنى له أن يفكر فى مصالحته.
وسرعان ما استجاب يزيد، فعزل الوليد وعين مكانه "عثمان ابن محمد بن أبى سفيان."
وقد نجحت حيلة ابن الزبير، فعثمان كان شابّا صغيرًا لم تصقله التجارب، ولا خبرة له بسياسة الناس وقيادتهم، فأساء من حيث أراد الإصلاح.

لقد أرسل وفدًا من أشراف أهل المدينة إلى دمشق ؛ لكى يرى الخليفة بنفسه مدى طاعتهم وولائهم، وأحسن يزيد وفادتهم، وأغدق عليهم، ومنحهم العطايا ليستميل قلوبهم، وليكونوا خير دعاة له إذا رجعوا إلى أهليهم وذويهم، فمن رأى ليس كمن سمع، ولكنهم بعد أن رأوا فى عاصمة الخلافة الجديدة مظاهر البذخ والإسراف، وسمعوا مالا يتفق مع تقاليد الخلفاء الراشدين من مظاهر الترف، عادوا وهم يعلنون بين أهليهم وذويهم أنهم قد خلعوا طاعة يزيد، ثم بايعوا عبد الله بن حنظلة بن أبى عامر "ابن غسيل الملائكة" وتوجهوا بعد ذلك إلى والى يزيد على المدينة فأخرجوه منها، وحاصروا دار مروان بن الحكم بالمدينة تعبيرًا عن سخطهم ورفضهم لبنى أمية.

واستغاث مروان بن الحكم بيزيد، وتأزم الموقف من جديد، فقد أعد يزيد جيشًا ضخمًا من جند الشام، وأسند قيادته إلى مسلم ابن عقبة، ليحمى بنى أمية بالمدينة، وليخضع الثائرين عليه.

وعلم أهل المدينة بمقدم الجيش فلم يجدوا بدّا من إخراج بنى أمية إلى الشام بعد أن يأخذوا عليهم العهود والمواثيق ألا يساعدوا عليهم أحدًاوخرج بنو أمية مطرودين من المدينة، لكنهم تقابلوا مع جيش مسلم بن عقبة، فطلب منهم أن يشيروا عليه بما ينبغى أن يفعله، فأرشده عبد الملك بن مروان إلى كيفية الزحف على المدينة، والدخول إليها، وزحف مسلم كما أشار عليه عبد الملك،

ونفذ الخطة فوصل إلى الحرة شمالى شرق المدينة، وهى أرض صخرية بركانية، فخرج إليه أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة، والتحموا مع جند الخليفة فى معركة شديدة انتهت بهزيمة أهل المدينة، وقتل عدد كبير من بنى هاشم وقريش والأنصار.

وفى جو الهزيمة هذا دعا مسلم الناس للبيعة؛ محذرًا من عاقبة المخالفة بعد أن رأوا بأعينهم ما حل بغيرهم.

فبعد أن انتهى مسلم من إجبار الناس على البيعة، سار بمن معه من الجند إلى البيت الحرام بمكة؛ حيث يعتصم ابن الزبير، لكن القدر لم يمهله، فتوفاه الله قبل أن يصل إلى مكة.

ويتولى على الفور قيادة الجيش الأموى الزاحف على مكة للقاء عبد الله بن الزبير: "الحصين بن نمير السكوني" ، ويواصل مسيرته إلى مكة المكرمة، ويشتد على الثائرين، ولا يمنعه شىء مما يحتمون به، ويستمر الحصار شهرين، وابن الزبير متحصن بالبيت الحرام، وتأتى الأنباء بوفاة الخليفة يزيد، فيتوقف القتال، ويرفع الحصار، ويعود الجيش الأموى إلى الشام، ويخرج ابن الزبير على الناس فتذعن جزيرة العرب كلها له، ويبايعه كثير من أنصار الدولة الأموية وسط العواصف خليفة للمسلمين.

الفتوحات الإسلامية فى عهد يزيد:

وبالرغم من الصراعات الشديدة التى حدثت فى عهد يزيد، فإن الفتوحات الإسلامية لم تتوقف، واستمرت فى العديد من الجهات، فهناك فى الشرق واصلت الجيوش الإسلامية فتوحاتها فى خراسان وسجستان تحت قيادة مسلم بن زياد، فغزا سمرقند وخُجَنْدة، أما هناك فى الغرب فقد أعاد يزيد بن معاوية، عقبة بن نافع واليًا على إفريقية، وكان معاوية قد عزله عنها، فواصل عقبة بن نافع فتوحاته بحماس منقطع النظير وقال: إنى قد بعت نفسى لله-عز وجل-، فلا أزال أجاهد من كفر بالله. ففتح مدينة "باغاية" فى أقصى إفريقية، وهى مدينة بالمغرب، وهزم الروم والبربر مرات عديدة، ثم واصل المسير إلى بلاد الزاب، فافتتح مدينة "أَرَبَة" وافتتح "تَاهَرْت" و"طَنْجة" و"السُّوس الأدنى"، ثم صار إلى بلاد السوس الأقصى، واستمر فى فتوحاته حتى بلغ "مليان"، حتى رأى البحر المحيط (المحيط الأطلنطى) فوقف عليه وقال مقالته التى حفظها له التاريخ: يا رب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك. ثم عاد راجعًا إلى القيروان.

خلافة مروان بن الحكم (65 - 64هـ/ 683- 684م):

نحن الآن فى عام 64هـ / 684م، وما زال الطريق طويلا أمام الدولة الأموية التى دبت فيها الروح ثانية؛ لتواصل المسيرة حتى سنة 132هـ /750م، فكيف واجهت الأعاصير والأنواء؟! وكيف أعادت بسط سلطان الدولة الأموية من جديد على الأقاليم التى أعلنت البيعة لابن الزبير.

والعجيب أن عرب الشام انقسموا إلى فريقين بعد أن اجتمعت بنو أمية على مروان بن الحكم! فالعرب اليمانية راحوا وحدهم يؤيدون مروان، أما العرب القيسية، وعلى رأسهم الضحاك بن قيس، فقد راحوا يؤيدون عبدالله بن الزبير. وهنا يتجلى دور مروان بن الحكم؛ لقد جمع أنصاره، وسار أولا إلى الضحاك، واقتتل الفريقان بـ "مرج راهط" بغوطة دمشق وكان ذلك فى المحرم سنة 65هـ، وانتصر مروان بن الحكم، ودخل دمشق بعد أن قضى على الفتنة، ونزل بدار معاوية بن أبى سفيان، وبايعه الناس بالخلافة.

مصر فى حوزة الأمويين:

وبعد أن استقرت الأمور فى دمشق توجه مروان إلى مصر على رأس جيش قوى، ودخلها سنة 65هـ/685م وكان عليها عبد الرحمن بن جحدم القرشى عاملا لابن الزبير، وولى ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر، وأمده بموسى بن نصير؛ ليكون وزيرًا له ومشيرًا. وعادت مصر للأمويين مرة أخرى بعد انفصال دام تسعة أشهر تحت قيادة أنصار ابن الزبير. وبقى الحجاز والعراق فى يد ابن الزبير بعد أن دانت الشام ومصر للأمويين.

لقد كانت مصر على اتصال بالحجاز فى عهد عبدالله بن الزبير، تمده بما يحتاج إليه من الغلال، فلما خضعت ثانية للأمويين حرم الحجاز مما كانت مصر تمده به، وتأثر موقف ابن الزبير فى الحجاز بهذا الوضع الاقتصادى، وفى هذا الوقت كان مروان بن الحكم يعمل على تنفيذ خطوات محسوبة بدقة وإحكام، لقد أعد جيشين: أحدهما إلى الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير، أما الجيش الآخر فقد سيره إلى العراق للقضاء على مصعب بن الزبير شقيق عبد الله وواليه هناك. ويشاء الله أن تحل الهزيمة بجيش الحجاز، وألا يقوم جيش العراق بشىء يذكر فى حياة مروان الذى عاجلته المنية سنة 65هـ بعد أن عهد بالخلافة لابنيْه عبد الملك، ثم عبد العزيز.

خلافة عبد الملك بن مروان:

كان الأمويون عندما عقدوا "مؤتمر الجابية" لمبايعة مرْوان بن الحكم قد اتفقوا على أن يخلفه: "خالد بن يزيد بن معاوية" ثم "سعيد بن العاص" من بعده .

غير أن "مروان بن الحكم" نقض ذلك العهد وعهد بالخلافة لابنه "عبد الملك" ومن بعده ابنه " عبد العزيز" وراح يصرف الأنظار عن "خالد بن يزيد" الذى كان شابّا محدود الخبرات فى الإدارة.. بما أوتى من وسائل، ورغم ما فى ذلك من إيثار لابنه ونقض لعهده فإنه كان خيرًا لاستقرار الدولة وكان خيرًا للإسلام والمسلمين.

وباتت الدولة الإسلامية الموحدة تتقاسمها خلافتان:

الأولى: عليها عبد الله بن الزبير وتضم الحجاز والعراق.

أما الثانية: فيتولاها عبد الملك بن مروان الذى تولى عقب وفاة أبيه، ولم تعد تضم إلا الشام ومصر.

وقد نجح عبد الملك بن مروان فى ضبط الأمور، والقضاء على الفتن، فانتشل الدولة من الفوضى التى وصلت إليها، وأعاد الأمن والاستقرار إلى ربوعها.

لقد ظهر بالكوفة المختار بن عبيد الله الثقفي، وجمع من حوله شيعة على -رضى الله عنه-، وراح يتتبع قتلة الحسين هنا وهناك وقتل منهم الكثير وعلى رأسهم أمير الجيش الذى حارب الحسين " عمر بن سعد بن أبى وقاص"، وقتل "عبيد الله بن زياد" أمير العراق الأموى، وشتت جيشًا قوامه (40) ألفًا، كما قتل "الحصين ابن نمير" واستولى على الموصل، وراح يدعو لمحمد بن الحنفية ابن الإمام على كرم الله وجهه، ويناديه بالإمام المهدى يريد المهدى المنتظر. لقد انتشر نفوذ الشيعة فى شرق الدولة وكان هذا العامل هو المعول الذى مهد لزوال الدولة الأموية على مر الزمن!

وقد عمد الشيعة فى ذلك الوقت وعلى رأسهم المختار إلى الانتساب لمحمد بن الحنفية، ليستفيدوا من هذه النسبة فى اكتساب مزيد من المؤيدين الناقمين على بنى أمية والثائرين من أجل المطالبة بدم الحسين وآله.

والمعروف أن محمد بن الحنفية كان عالمًا زاهدًا، قد رفض أن يبايع لأحد من الخليفتين ابن الزبير أو ابن مروان، وقال لا؛ حتى يبايع الناس أجمعون فإن بايعوا بايعت. وهكذا فعل عبد الله بن عباس، ولم يكن له مطمع فى الخلافة، أو هدم البيت الأموى أوالقضاء على ابن الزبير.

ولقد أغضب الدعوة باسم محمد بن الحنفية "عبد الله بن الزبير" فأرسل أخاه "مصعب بن الزبير"؛ ليكون أميرًا على العراق، وأمره بالقضاء على "المختار الثقفى".

وقد نجح مصعب فى حصار المختار بالكوفة وقتله، وأصبح الحجاز والعراق لابن الزبير ومصر والشام لعبد الملك بن مروان.

وفى سنة 70هـ /690م خرج عبد الملك بن مروان إلى العراق لأخذها من الزبيريين، وتدور بينه وبين مصعب عدة معارك، وأخيرًا يتمكن "عبد الملك بن مروان" من القضاء على "مصعب ابن الزبير" فى معركة "دير الجاثليق" وكان ذلك سنة 71هـ/691م وقيل: سنة 72هـ/692م. المهم أن عبد الملك بعد مقتل "مصعب ابن الزبير" دخل "الكوفة" معقل الزبيريين، وأخذ البيعة من أهلها لنفسه، وولَّى ولاة من قِبله على العراق.

الحجاج وابن الزبـير:

ولم يبق إلا الحجاز يسيطر عليه عبد الله بن الزبير من مكة، وقد حانت الساعة الفاصلة، ساعة الحزم والحسم، فأمر عبدالملك ابن مروان "الحجاج بن يوسف الثقفى" -الذى يمكن أن يتخذ من الطائف مسقط رأسه قاعدة لعملياته الحربية- أن يتصدى لعبد الله ابن الزبير المتحصن بمكة المكرمة.

وتحرك جيش الحجاج من الطائف إلى مكة فحاصرها كما فعل الحصين بن نمير من قبل، وقذف ابن الزبير بالمنجنيق، وظل يضيق على ابن الزبير وأنصاره الخناق حتى تفرق عنه معظم أنصاره، لكن ابن الزبير ظل يقاوم رافضًا أن يستسلم حتى قتل سنة 73هـ/ 693م، وكانت خلافته تسع سنين. وبمقتل ابن الزبير دخلت الحجاز من جديد تحت حكم بنى أمية، وكوفئ الحجاج بأن ظل واليًا على الحجاز من قبل عبد الملك ابن مروان حتى سنة 75هـ/ 695م.

ثورات ابن الأشعث:

ولا يكاد عبد الملك بن مروان يلتقط أنفاسه ليتفرغ للبناء والتعمير، ومواصلة الفتوح حتى يرى أن جماعات الشيعة فى مدن العراق مثل الكوفة تشكل خطرًا على الدولة؛ بسبب قربها من بلاد فارس، التى رأى أهلها فى الشيعة خير سبيل لتحقيق أطماعهم القومية فى ضرب الأمويين باعتبارهم ممثلين للعنصر العربى وسلطانه فى الدولة الإسلامية، وركز الفرس نشاطهم فى سبيل وصول أبناء الحسين بن على بن أبى طالب إلى منصب الخلافة، مدعين بأنهم من سلالة الحسين؛ وذلك لأنه تزوج من شهر بانوه بنت يزدجرد الثالث آخر أكاسرة الفرس، وزعموا أن تلك السلالة من أبناء الحسين تجمع بين دم عربى، وأشرف دم فارسى.

وتصدى الحجاج بن يوسف لهذه الفتنة مرة أخرى، ويحقق الأمن والاستقرار فى ربوع البلاد.

ويصدر الأمر من الخليفة الأموى بأن يتولى الحجاج أمر العراق والمشرق الإسلامى، ويسير إليها فى جيش من أهل الشام.

وكان الحجاج شديدًا عنيفًا، فراح يواجه عدة ثورات كانت إحداها بقيادة "عبد الرحمن بن الأشعث." وتدور معارك شرسة مثل "دير الجماجم" بين الجيش الأموى وبين جيش ابن الأشعث، يتبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة، وتستمر سجالا بينهما فى أكثر من ثمانين موقعة، تدور الدائرة بعدها على ابن الأشعث، فيهرب إلى بلاد الهند. ولكن الحجاج يرسل من يلاحقه ويتابعه حتى يأتى إليه برأسه فى الكوفة.وهكذا استطاع الحجاج إخضاع بلاد العراق وما والاها من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان، وبهذا توطدت دعائم الدولة فى عهده، وانتشر الأمن فى البلاد، ويتفرغ عبد الملك لجانب من الإصلاح الداخلى، فيصدر أمره بصك الدنانير الإسلامية، عليها شهادة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله بسم الله، فكان أول من ضرب الدنانير والدراهم الإسلامية، لتحمل محل العملة البيزنطية فيتحقق للدولة استقلالها المالى والاقتصادى.

وأصدر أمره بجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية التى تكتب بها الدواوين فى أرجاء الدولة، وينفذ ابنه عبد الله بن عبدالملك بن مروان والى مصر هذه التعليمات؛ حيث كانت مصر ما تزال تكتب باللغة القبطية، بما أدى إلى انتشار اللغة العربية لغة القرآن والحديث، فهى بلا شك إحدى المقومات الأساسية للدولة الإسلامية.

وسوف تظل هذا الخطوة الرائدة صفحة مضيئة يسجلها التاريخ لعبد الملك بن مروان على مر الزمان.

الفتوحات الإسلامية فى عهد عبدالملك:

وبعد أن استقرت الدولة فى الداخل، وتم القضاء على الفتن والثورات، راح عبد الملك يواصل ما بدأه السابقون من الفتوحات، ويعمل على تأمين الحدود التى تعرضت للإغارة والمهاجمة والاستيلاء على بعضها من جانب الروم، منذ أن أصدر معاوية أمره إلى الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية بالعودة إلى البلاد، وتمكن عبد الملك من استرداد الثغور الإسلامية، وإخضاع أرمينية، وسواحل سورية، وكثير من الثغور الإسلامية، وفَتْح عدد من حصون الروم منها: "مرعش" و"عمورية" و"أنطاكية"، وأظهر للروم أن الدولة الإسلامية باقية، وأنها لم تضعف ولم تهن!

وما كاد عام 62هـ/682م يأتى حتى صدر الأمر بأن يتولى "عقبة بن نافع" إفريقية للمرة الثانية؛ ليواصل حروبه وفتوحاته، ويتمكن من فتح الجزائر، ويتوغل نحو بلاد "السوس" فى المغرب الأقصى.

وكان عقبة فى عهد معاوية قد انطلق بجيوشه إلى إفريقية واستولى عليها واختار "القيروان" قاعدة له، ولكن بعد الانتهاء من بناء القيروان صدر قرار بتعديل القيادة العليا بالميدان الإفريقى سنة 55هـ/ 675م.

فقد استعمل معاوية بن أبى سفيان مسلمة بن مخلد على مصر وإفريقية، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولى له يقال له "أبو المهاجر" فلما وصلها عزل عقبة.

وكان معاوية يهدف من ذلك إلى مواجهة الإمبراطورية البيزنطية صاحبة السيادة إذ ذاك على شمال إفريقية، ومحاولاتها إيقاف الزحف الإسلامى المنتظر من القيروان.

واستطاع "أبو المهاجر دينار" أن يفسد خطط البيزنطيين باكتساب البربر إليه، ونشر الإسلام بينهم. وتجلّى نجاح هذا القائد حين اكتسب إلى صفوفه زعيم قبيلة البربر وهو "كسيلة" فدعاه إلى الإسلام، فأسلم وترتب على ذلك انتشار الإسلام بين كثير من البربر، فراحوا يتفهمون حقيقة الإسلام، ويقبلون عليه، وراح الفتح الإسلامى فى شمال إفريقية يمتد وينتشر.

ولكن الفتوحات الإسلامية تتعرض لأول نكسة خطيرة لها لعدم معرفة نتيجة السلطة المركزية فى "دمشق" بالتطورات التى طرأت على السياسة البيزنطية فى تلك البلاد، فعندما أعادت السلطات "عقبة بن نافع" سنة 62هـ/682م إلى القيادة العليا للميدان الإفريقى، ووصل إلى "القيروان" قاعدته الحربية التى أنشأها من قبل، انطلق منها لممارسة المهمة التى عين ثانية. من أجلها، بل إن عقبة لما عاد إلى ولاية إفريقية جازى المهاجر عما فعله به عندما عزله سنة 55هـ، فقبض عليه وأوثقه فى الحديد، وخرج به مكبلا فى زحف خاطف، وصل به إلى ساحل المحيط الأطلسى، وعند ذلك النهر الذى تقوم عليه مدينة مراكش اليوم أدخل عقبة ابن نافع فرسه فى المحيط وراح يرفع رأسه فى عزة المؤمن، وتواضع المعترف بفضل الله عليه قائلاً: "اللهم فاشهد أنى لو كنتُ أعلم وراء هذا البحر أرضًا لخضته غازيًا فى سبيلك"".

لكن عقبة فاته أن يستمع إلى أبى المهاجر ونصائحه حول البيزنطيين وسياستهم، ولجوئهم إلى أسلوب الغدر والخديعة والمكر والخيانة، فقد انتظروا حتى عاد قاصدًا القيروان، وكان يسير فى مؤخرة جيشه، وأعدوا له كمينًا وهو

فى طريق العودة بالتعاون مع كسيلة -الزعيم البربرى- الذى تحالف مع الروم، وادعى أن عقبة قد عزم على تأديب البربر؛ لأنه أساء الظن فى حقيقة إسلامهم.والتقى الجميع فى معركة "تهوذة" عام 63هـ/ 683م، وأحاطت قوات البزنطيين بعقبة بن نافع وراح "أبو المهاجر" يدافع عنه دفاع الأبطال ولكنهم تمكنوا من قتله، واستشهد عقبة ولحق بالرفيق الأعلى.

وبعثت الخلافة الأموية بجيوش جرارة على رأسها قائد من خيرة قادتها هو "حسان بن النعمان" الذى عمل على تحرير شمال إفريقية تمامًا من البيزنطيين، والقضاء على أساليبهم الغادرة.

دخل حسان القيروان سنة 74هـ / 694م، وبادر بالزحف على "قرطاجنة"، وهى أكبر قاعدة للبيزنطيين فى إفريقية "تونس الحالية" ودمرها تمامًا، ثم طارد فلول الروم والبربر، وهزمهم فى "صطفورة" و"بنزرت" ولم يترك حسان موضعًا من بلادهم إلا دخله بجنوده، ثم عاد "حسان"إلى القيروان، فأقام بها حتى استراح الجيش وضمدت جراح المصابين.

واضطر حسان إلى اتخاذ مراكزه فى "برقة" حتى جاءته الإمدادات من مصر سنة 81هـ/ 700م، فخرج بالجيوش لملاقاة جيوش البربر بقيادة امرأة منهم تدعى الكاهنة، واستطاع الانتصار على البربر، وأعاد القيروان إلى حضن الإمبراطورية الإسلامية.

وأخذ حسان يعمل بعد ذلك على تدعيم الفتوحات الإسلامية بشمال إفريقية، فأسس قاعدة بحرية إسلامية باسم "تونس".

واستعان بعمال مصر وخبرتهم فى بناء تلك القاعدة، ثم أقبل حسان على إفساد خطط البيزنطيين، وراح يعمل للقضاء على مكرهم وألاعيبهم. فحبب الإسلام وزينه فى قلوب أبناء الكاهنة، ثم قربهم إليه، وجعلهم فى الرئاسة العليا على أبناء قبيلتهم، مبينًا لهم أن العزة لله ولرسوله وللمسلمين، وأن الإسلام يستهدف عزة أبناء إفريقية وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهكذا عادت إفريقية إلى الإسلام والمسلمين.

وعلى الجانب الآخر، فى خراسان، تابع "المهلب بن أبى صُفرة" أمر الفتوح فى تلك البلاد بعد أن أسند إليه الحجاج ولايتها!

لقد فتح خُجَنْدة وغزا "كَشّ" سنة 80هـ/699م، واتخذها مركز القيادة، وأرسل منها أولاده لغزو كثير من البلاد، لكنه مات فى شهر ذى الحجة على مقربة من "مرو" وتولى ابنه يزيد بعد أبيه، فاستهل عهده بغزو "خوارزم." ويأتى عام 85هـ فيتولى "المفضل بن أبى صفرة" أمر خراسان ويفتح "باذغيش" و"أخرون" "وشومان"، لكن الحجاج سعى بآل المهلب لدى عبد

الملك حتى لا يولى منهم أحدًا، واتهمهم بأنهم كانوا من أتباع عبد الله بن الزبير، وأشار على "عبد الملك" بأن يولى قتيبة بن مسلم الباهلى على خراسان، وهو من باهلة التى تنتمى إلى قيس، وبذلك يستطيع أن يجذب إليه القيسيين فى خراسان.

ووصل قتيبة بن مسلم إلى "مرو" فى نهاية سنة 85هـ/704م. ولكنه لم يكد يستقر فى خراسان حتى وصلت الأنباء فى سنة 86هـ/705م بوفاة الخليفة عبد الملك بن مروان رحمه الله رحمة واسعة.

خلافة الوليد بن عبدالملك (96 – 86هـ/705- 714م) :

توفى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان سنة 86هـ/ 705م وخلفه ابنه الوليد، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة، وبويع له بها يوم وفاة أبيه. وكان عهده، عهد فتح ويسر وخير للمسلمين، لقد اتسعت فى أيامه رقعة الدولة الأموية شرقًا وغربًا، فعندما تولى الوليد الحكم استعمل عمه عبد الله بن مروان على إفريقية، فعزل حسانًا واستعمل بدلاً منه موسى بن نصير عام 89هـ، فكان شديدًا وصارمًا على البربر الذين طمعوا فى إفريقية بعد مسير حسان عنها فوجه إليهم ابنه عبد الله، فقَتل وسبى منهم خلقًا كثيرًا، وتوجه إلى جزيرة "مايوركا"، فاقتحمها وسبى أهلها، وتوجه إلى طائفة أخرى من البربر، فأكثر فيهم القتل والسبى، حتى بلغ الخمس "ستين ألفًا من السبى"، فلم يكن سبى أعظم منه، ثم خرج غازيًا طنجة يريد من بها من البربر، فانهزموا خوفًا منه، فتبعهم وقتلهم، واستأمن من بقى منهم، ودخلوا فى طاعته، وترك عليهم وعلى طنجة مولاه "طارق بن زياد" وأبقى معه جيشًا أكثره من البربر، وترك معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، حينئذ لم يبق له فى إفريقية من ينازعه.

ورأى الوليد أن أهم ما يجب عمله تقوية الأسطول الإسلامى وضرب قواعد البيزنطيين فى صقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط المقابلة لإفريقية، لكى يدعم هذا الوضع المستقر للمسلمين فى الشمال الإفريقى الذى أصبح جزءًا من الدولة الإسلامية.

لقد دخلت الفتوح الأموية فى شمال إفريقية مرحلتها الختامية سنة 89 هـ/ 708م بتولى إمارة القيروان موسى بن نصير خلفًا لحسان بن النعمان. فلقد أجاد التنسيق بين الأساطيل الإسلامية فى غرب البحر المتوسط، وبين قواته البرية، وفتح الأجزاء النائية، كما رأينا، وهى التى تعرف باسم المغرب الأقصى، وطرد البيزنطيين من قواعدهم البحرية القريبة من سواحل إفريقية "تونس"، وعندئذ أصبح شمال إفريقية الجناح الأيسر للدولة الإسلامية فى عهد الأمويين، وأصبح أهلها دعاة للإسلام يسهمون فى نشره فيما جاورهم من بلاد.

وقد عهد موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بالقيادة العليا للقوات الإسلامية، وهو من أبناء البربر المسلمين فى مدينة "طنجة."

وجاءت هذه الخطوة من جانب موسى بن نصير، دليلا على سمو وعلو مبدأ المساواة فى الإسلام، فقد رأى البربر أن أحد أبناء إحدى القبائل البربرية صار القائد العام لجبهة المغرب الأقصى.

وكان من نتيجة هذا العمل أن أتاح للدين الإسلامى الحنيف دماء جديدة هيأت له الانطلاق إلى فتح الأندلس، ونشر نوره على أرجاء هامة من غرب أوربا.

فتح الأندلس:

نحن الآن فى سنة 91هـ / 710م؛ حيث استشار موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك، فى فتح الأندلس "أسبانيا"، وعلى أثر الموافقة أرسل موسى سرية استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وكان من البربر، فشن غارة على جنوب أسبانيا، ومعه أربعمائة مقاتل ومائة فرس.

واستطاع أن يتوغل بهم فى الجزيرة الخضراء، ويعود إلى ساحل إفريقية حاملا الكثير من الغنائم، وكان ذلك فى رمضان سنة 91هـ/710م، وقد تأكد له قصور وسائل الدفاع فى أسبانيا بل انعدامها. ولقد شجع نجاح طريف فى تلك الغزوة القائد الأعلى موسى ابن نصير على التقدم لفتح الأندلس (أسبانيا)، ووقع اختياره على والى طنجة وقائد جيشه طارق بن زياد ليتولى مهمة هذا الفتح العظيم. وفى شهر رجب من سنة 92هـ/711م قام طارق بن زياد ومعه جيش مكون من سبعة آلاف مقاتل بعبور المضيق الذى عرف باسمه، ونجحت عملية العبور، واحتل المسلمون الجبل بكامله.

لقد جمع طارق قواته بعد العبور عند هذه الصخرة من جنوب البلاد وهى التى نسبت إليه وعرفت باسم "جبل طارق"، وها هو ذا يندفع بقواته كالسهم، لا يقف فى طريقه شيء، ولقد حاول ملك أسبانيا "لذريق" أن يوقف هذا الزحف بجيش جرار قوامه مائة ألف، ولكن طارق بن زياد كان قد طلب المدد من قائده موسى بن نصير فأمده بخمسة آلاف حتى أصبح عدد جنده اثنى عشر ألفًا.

واندفع طارق بكل إيمان زاحفًا على القوط -حكام شبه جزيرة أسبانيا-، وأنزل بهم هزيمة فادحة فى موقعة رمضانية على نهر لكة "وادى لكة" بمقاطعة "شَذُونة"، وراح يواصل فتوحاته بعد أن قتل "لذريق"، فأوقع بالقوط الهزيمة الثانية عند مدينة "إِسْتِجَة"، فألقى الله الرعب فى قلوب أعدائه، ففزعوا منه فزعًا شديدًا، وظنوا أنه سيفعل بهم فعل سلفه "طريف بن مالك"، وكان طريف قد أوهمهم أنه سيأكلهم، هو ومن معه، فهربوا منه إلى طليطلة.

يا إلهى إن النصر من عندك، هذه الراية الظافرة تتقدم، وتتوغل، ومدن أسبانيا تتهاوى واحدة بعد الأخرى فى يد المسلمين.

وها هم أولاء جنود الإسلام ينتشرون؛ حيث قرر طارق وهو فى مدينة إستجة أن يفرق جيشه ويوجهه إلى جهات شتى، فهذه شعبة تتوجه إلى "قرطبة"، فتدخلها وتستولى عليها، وتلك شعبة من الجيش وصلت إلى مدينة "غرناطة"، فدخلتها وملكتها، وشعبة من الجيش تقتحم مدينة "تُدْمِير" فيضطر أهلها إلى مصالحتها، وسار طارق ومعه معظم الجيش إلى مدينة "جيان" يريد "طليطلة" فهرب أهلها وتركوا له المدينة خالية.

ويواصل المنتصرون متابعة الفلول المنهزمة، وملاحقتهم حتى "جِلِّيقية" فى أقصى الشمال الغربى من الأندلس، ثم عاد من هناك، وعادت جيوشه إلى "طليطلة" فى سنة 93هـ/712م، وهنا خشى "موسى بن نصير" أن تقطع على الجيش الإسلامى خطوط المواصلات، ويحال بينه وبين قواعده التى انطلق منها، ويقوم العدو بالانقضاض عليه ومحاصرته، والقضاء عليه، فيسرع بإصدار أوامره إلى طارق أن ينتظره فى "طليطلة" حتى يسعى إليه بنفسه هو، ويؤمن خطوطه الخلفية ويلحق به.

وعَبرَ موسى بقواته إلى الأندلس، مستهدفًا تطهير الجيوب التى خلفها طارق وراءه، من هنا كان على موسى أن يقوم بتأمين مؤخرة الجيش الفاتح، فافتتح مدنًا وحصونًا كان بقاؤها بين الأسبان خطرًا على الوجود الإسلامى الجديد بشبه الجزيرة حتى وصل إلى "طليطة"، وهناك التقى بجيش طارق بن زياد، وقد استغرق ذلك من موسى جهدًا ووقتًا حتى وصل إليه، وهناك فى "طليطلة" التقى القائدان طارق وموسى، وراحا ينسقان الفتوح الباقية ببلاد الأندلس فيما بينهما.

وسارا معًا حتى بلغا "سرقسطة" على نهر "الإبرو"، ومن هناك سار طارق إلى الشمال حتى بلغ جبال "ألبرت" أى الأبواب، وهى التى تسمى اليوم جبال البرانس ووقف على أبواب فرنسا. وكان ذلك فتحًا عظيمًا، أن ترفرف راية الإسلام، وتقف على أبواب فرنسا فى أقل من مائة عام من هجرة الرسول!)

وبينما كان طارق بن زياد يقف على أبواب "فرنسا"، كان موسى يتجه غربًا حتى دخل ذلك الإقليم الذى يطل على خليج "بسكاية" ويسمى "أشتوريس" وانتهى بفتوحاته أخيرًا على ساحل "بسكاية" واستدعى الخليفة الوليد كلا من موسى وطارق إلى دمشق سنة 95هـ/714م، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن موسى بن نصير قد أرسل الأسطول الإسلامى لفتح جزيرة "سردينيا" فافتتحوها عنوة، وعادوا بالسبايا والغنائم سنة 92هـ.

وتابع ولاة الأندلس من بعد موسى الفتوح، فقام ابنه عبد العزيز باستكمال فتح شرق الأندلس وغربه، وجعل عاصمته فى مدينة "إشبيلية."

فتح بلاد ما وراء النهر:

وننتقل من جبهة إلى جبهة لنتابع تقدم الراية الظافرة فى أرجاء الأرض، وإذا كنا قد تركناها، وهى ترفرف على أبواب "فرنسا" فها نحن نعود لمتابعتها وهى ترفرف على أبواب "الصين"، كل ذلك كان فى عهد الوليد بن عبد الملك الذى كان عهده خيرًا وبركة على الإسلام والمسلمين.

فعندما تولى "قتيبة بن مسلم" خراسان سنة 86هـ/ 705م، اتخذ من "مرو" قاعدة له، تم فتح بلاد النهر -المعروف بنهر جيحون- ودخل المسلمون بلادًا عديدة، سرعان مادخلت فى دين الإسلام ودافعت عنه مثل "الصَّغَد" و"طخارستان" و"الشاش" و"فَرْغَانة" فى نحو عشر سنين.

وأخيرًا، أنهى أعماله الحربية بفتح "كاشغر" فى "التركستان" الصينية سنة 96هـ/ 715م، وصارت الدولة الإسلامية بذلك تجاور حدود الصين.

فتح الهند:

لقد فتح المسلمون بلاد "فارس" و "خراسان" و"سجستان"، وكانت غايتهم نشر الإسلام، وحماية الحدود الجنوبية للدولة الإسلامية؛ ولم يبق إلا الهند. وفى عهد الوليد بن عبد الملك كلف الحجاج بن يوسف الثقفى الشاب المسلم: "محمد بن القاسم" مهمة غزو بلاد الهند، وسار محمد بن القاسم إلى الهند سنة 89هـ/ 708م وفتح ثغر الديبل (إحدى مدن الساحل الغربى للهند)، ثم سار عنه وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر النهر، فصالحه أهل "سربيدس" وفتح "سهبان"، ثم سار إلى لقاء "داهر" ملك السند والهند، وكان لقاء فريدًا. إن "دَاهِر" وجنوده يقاتلون على ظهور الفيلة، والفيلة عندما تستثار تكتسح كل ما أمامها وتدوسه.

ودارت معركة حامية كتب الله فيها النصر لراية الإسلام، وهزم "محمد بن القاسم" الملك "داهر" وقتله، وراح محمد بن القاسم يتقدم، ويمد فتوحاته فى كافة أرجاء بلاد السند، حتى وصل إلى "الملتان" ودخلها وغنم منها مغانم كثيرة.

ولقى الوليد بن عبد الملك ربه سنة 96هـ/ 715م بعد أن رفعت راية الإسلام فى عهده على حدود فرنسا والصين وفى خراسان وسجستان والسند، وبلاد الهند.

خلافة سليمان بن عبدالملك (99 - 96هـ/ 714- 717م):

لم تطل خلافة سليمان بن عبد الملك كثيرًا، فأوصى بالخلافة من بعده "العمر بن عبد العزيز"، ابن عمه بدلاً من ابنه أيوب لما عرف فيه من ورع وعدل.

خلافة عمر بن عبد العزيز (101- 99 هـ/ 717- 719م) :

ورأى الخليفة الجديد سحب "الحملة الثالثة" من على أبواب القسطنطينية بعد أن استمرت اثنى عشر شهراً تحقق فيها إذلال "إمبراطورية الروم" التى كانت مصدر خطر على الدولة الإسلامية، وشل نشاطها الحربى المعادى للدولة الإسلامية، وعادت الحملة الأموية الثالثة والأخيرة فى نهاية سنة 99هـ/ 718م. وتفرغ عمر لإقامة الحق والعدل وإشاعة الخير والسلام فى ربوع البلاد الإسلامية، راح يرفع المظالم عن الناس، ويعمل على إنصاف كل من ظلم فى عهود سابقيه من بنى أمية، وتعويض كل من حرم، ويعيد عهد جده "عمر بن الخطاب" الخليفة العادل الذى ملأ الدنيا عدلا، وراح يتشبه به فى زهده، وتقشفه، وإيمانه بالله، وتمسكه بكتابه، وسنة رسوله.)

لقد راح يحض الناس على مكارم الأخلاق، ويفرض العقاب الصارم على أى عدوان مهما صغر وحقر؛ ليقطع دابر الفساد، ويعيد الأمن والأمان إلى ربوع البلاد.

وامتد عدله إلى الأطراف البعيدة، وشمل أهل البلاد المفتوحة من غير المسلمين، الذين لهم عقد ذمة، وعهد مصالحة ؛ فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

لقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين، وأصدر أمره بأن يوقف تحصيل خراج الأرض من المصريين لمدة عام تعويضًا لهم عما زيد عليهم فى أعوام سبقت.

ورأى أن المؤلفة قلوبهم قد استغنى الإسلام عنهم، وراح يرفع الأعباء عن أهل العراق وخراسان والسند التى كان الحجاج وأتباعه قد فرضوها على بعض من اعتنقوا الإسلام.

وراح يشجع أهل البلاد المفتوحة على قبول الإسلام والانضواء تحت لوائه، وتحبيبه إليهم بكل الوسائل، لقد هدأت أعصاب الناس، وراحوا جميعًا يفكرون فى الخير حتى الخوارج فى العراق والمشرق وإفريقية أقلعوا عن حركاتهم الثورية، وأرسلوا لـ "عمر" من يناظره فأفسحوا المجال للحجة والدليل بدل السيف والحرب.

لقد كانت فترة خلافته هى فترة التقاط الأنفاس، ولم الشمل، وجمع الكلمة، والدفع بالتى هى أحسن، إنه لم يكن يود توسيع رقعة الدولة أكثر مما وصلت إليه، وحسبه أن يعمل على تدعيمها وتوطيدها، وقد فعل وتحقق له ما أراد.وتوفى -رحمه الله- فى رجب من سنة 101هـ/ 720م، وكانت هذه الفترة القصيرة من خلافته نقطة مضيئة فى دولة بنى أمية، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر.

خلافة يزيد بن عبد الملك (105 - 101 هـ/ 719- 723م):

تولى "يزيد بن عبد الملك بن مروان" الخلافة عقب وفاة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وظل فى الحكم خمس سنوات من سنة 101هـ/ 720م إلى سنة 105هـ/ 724م.

وإذا كانت قوة الخليفة ضرورية للدولة، فإن الدولة الإسلامية قد انتابها الضعف بعد أن تولى أمرها خلفاء ضعاف، هان على الأعداء أمرهم.

لقد انتشرت الفتن والاضطرابات فى الداخل، أما فى الخارج فقد كانت قبائل التركمان تضغط فى الشمال، بينما كان دعاة بنى العباس يسعون بنشاط فى تدبيرهم السرى لتقويض دعائم الحكم الأموى فى الشرق.

لقد أعلن "شوذب الخارجى" الثورة على الأمويين، وهزمهم فى عدة معارك، حتى استطاع "مسلمة بن عبد الملك" والى الكوفة القضاء عليه وعلى الخارجين على الدولة معه، وتشتيت شملهم.

ويخرج "يزيد بن المهلب بن أبى صفرة" على الخليفة مع الخارجين عليه، ويسير إلى "البصرة"، ثم يواصل السير إلى الكوفة، ولكن الخليفة "يزيد بن عبد الملك بن مروان" يرسل إليه أخاه "مسلمة" بجيش قوى يقضى على الفتنة، ويظفر به.

خلافة هشام بن عبدالملك

(125 - 105 هـ/ 723- 742م)

ولا يطول الأجل بالخليفة "يزيد بن عبد الملك بن مروان" فيلقى ربه ويخلفه من بعده هشام بن عبد الملك (105 - 125هـ) (724 - 743م.(جاء هشام ليواجه "ثوارًا" و"خوارج" خلال حكمه الذى استمر قرابة عشرين سنة. ثار "الحارث بن سريج" بخراسان بتشجيع وتأييد من التركمان (الأتراك) على الخليفة هشام بسبب "الضرائب" التى فرضها على الموالى من الفرس، وبعض الولاة. وسرعان ما انضم إليه فى ثورته هذه خلق كثير من العرب وغيرهم.

وراح يستولى على المدن الواقعة على ضفاف "نهر سيحون". ويصدر الخليفة الأمر إلى "أسد بن عبد الله القسرى" بتولى أمر هذه البلاد، ومواجهة الخارجين. وأخذ الحارث يتراجع أمام "أسد بن عبد الله" الذى أُمِرَ أن يطارده، ويسترد منه البلاد التى استولى عليها، فانسحب الحارث إلى "طخارستان" ومنها إلى بلاد "ما وراء النهر"؛ حيث انضم إلى الأتراك ضد الدولة الأموية، وكان من أمر الخارجين أيضا على الدولة فى عهد "هشام" بمواجهة "زيد بن على ابن الحسين" وأنصاره، ويقتل يوسف الثقفى والى العراق السابق الثائر.

وكان عهد هشام يعتبر حدّا فاصلا بين عهد ازدهار الدولة الأموية وعلو شأنها وبين عهد اضمحلالها، وانتشار العوامل الفتاكة فى جسمها، إن الخليفة "هشامًا" يمثل رابع الخلفاء الأمويين الأقوياء الكبار بعد "معاوية بن أبى سفيان" و" عبد الملك بن مروان" و"الوليد بن عبدالملك"، لقد استطاع أن يسير على نهجهم فى القبض على شئون الدولة بحزم وعزم وقوة، وأن يكبت جميع عوامل الفتن التى سبق أن أظهرت عداءها، وأطلت برأسها.

تُرى من يخلفه بعد أن قاد السفينة فى مجرى الأيام والأعوام لتصل إلى عام 125هـ/743.

سقوط الدولة الأموية:

لقد خلف "هشام" أربعة من الخلفاء الأمويين عجزوا عن ممارسة السلطان، وأفلت منهم زمام الحزم، وأتاحوا الفرصة لعوامل الهدم والاضمحلال، فراحت الدولة الأموية تتهاوى وتسقط سنة 132هـ/750م.

وقد كان ظهور العباسيين فى هذه الفترة على مسرح الأحداث يمثل ضربة قاصمة أطاحت بالبيت الأموى عن عرش الخلافة الإسلامية.

فبعد وفاة الخليفة "هشام بن عبد الملك" بويع "الوليد بن يزيد" بالخلافة فى 6من ربيع الآخر سنة 125هـ/ 723م، وهو اليوم الذى توفى فيه هشام.

وقد كان "الوليد بن يزيد" النموذج الذى يمثل مساوئ نظام وراثة الخلافة، لم يكن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ابنًا لهشام بن عبد الملك بل ابن أخيه. إن نظام الشورى يتيح للجميع وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب حتى يستريح ويريح.

ولكن "نظام الوراثة" يأتى لدولة الإسلام "بالوليد" الذى أشاع عنه خصومه أنه كان منهمكًا فى الملذات، مستخفّا بأمر الأمة، مشغولا باللهو، مجاهرًا بالمعاصى، وكان الإمام الزهرى يبغضه ويحث هشامًا على خلعه.

لقد اجتمع بعض أهل "دمشق" على خلعه وقتله لمجاهرته بالإثم، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة 126هـ/ 744م، بعد أن قضـى فى الخلافة سنة واحدة، وشهرين، وأيامًا، وكان الذى يقود الثورة عليه ابن عمه يزيد بن الوليد الذى وصفه أنصاره بأنه كان ورعًا تقيّا محافظًا على الدين راعيًا للإسلام والمسلمين، لكنه لم يَبْقَ فى الحكم إلا خمسة أشهر وعدة أيام حيث مات بالطاعون.

وبايع المسلمون بعده أخاه "إبراهيم بن الوليد" خلفًا له، لكنه لم يكد يتولى الأمر حتى سار إليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ثائرًا للوليد بن يزيد.لقد خلع "مروان" "إبراهيم" وهرب إبراهيم من دمشق، وظل أتباع مروان

يلاحقونه حتى عثروا عليه وقتلوه، ولم يلبث فى الخلافة غير سبعين يومًا وقيل ثلاثة أشهر.

وتولى "مروان" الخلافة فى صفر سنة 127هـ/ 745م، ليشهد عهدًا من الفتن والاضطرابات.

وفى عهده اضطربت الأمور فى البلاد، وخرج البعض على الطاعة، وانتهز العباسيون هذا التفكك، والتصدع فراحوا يعملون على إسقاط دولة بنى أمية لتقوم مكانها دولة العباسيين.

لقد حمل لواء الدعوة للعباسيين أبو مسلم الخراسانى، واستطاع الاستيلاء على "خراسان" ووطد سلطانه فيها.

وفى الثالث من شهر ربيع الأول سنة 132هـ/ 750م، استولى أبو مسلم على "نيسابور" وراح يعلن الدعوة لأبى العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس، فماذا فعل مروان؟ وكيف واجه هذا التيار الزاحف ؟ لقد أعد جيشًا للقضاء على العباسيين، وكان اللقاء على "نهر الزاب" ولكن دارت الدائرة على مروان وجيشه، ففر هاربًا إلى مصر.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل دارت معركة أخيرة حاسمة، لقد لاحقه العباسيون وطاردوه، ودارت معركة أخيرة بينه وبينهم على ضفة النيل الغربى عند بلدة "بوصير"، وقُتِلَ مروان، وبمقتله انتهت دولة الأمويين التى استمرت قرابة إحدى وتسعين سنة ليشهد العالم مولد دولة جديدة تحمل راية الإسلام هى دولة بنى العباس.

دولة الخلافة العباسية:

سميت الدولة العباسية بهذا الاسم، نسبة إلى العباس عم الرسول ؛ فمؤسس الدولة العباسية وخليفتها الأول هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب عم رسول الله وقد اشتهر أبو العباس بأبى العباس السفاح.

كيف آلت الخلافة إلى العباسيين؟

عندما ضعفت الدولة الأموية، تطلع الناس إلى رجل يعود بالأمة إلى الجادة والطريق الصحيح، يرفع عنهم الظلم، ويقيم فيهم العدل، ويرهب بهم الأعداء، فحسبوا أن أصلح الناس لهذا الأمر، رجل يكون من بنى هاشم، فكتبوا فى هذا الشأن إلى "أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب" أحد العلماء الثقات، وكان مقيمًا بالشام قريبًا من مركز الخلافة الأموية.. وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموى "سليمان بن عبد الملك"، فخشى أبو هاشم على نفسه -وكانت قد تقدمت به السِّنّ- بطش الخليفة، فانتقل إلى

"الحميمة" من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه "عليّ السَّجَّاد بن عبد الله بن عباس"، وهناك حضرته منيته، فأوصى إلى "محمد بن على بن عبد الله بن عباس" بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه الكتب التى كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو فى ولدك. ثم مات، وكان ذلك فى خلافة سليمان بن عبد الملك سنة 99هـ/ 718م.

وأخذ محمد العباسى فى تنفيذ ما أوصاه به أبو هاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون فى ربوع الدولة الأموية، يشهرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلى ضرورة أن يتولى أمر الخلافة رجل من آل البيت قادر على أن يملأ الأرض عدلا، ووجدت تلك الدعوة صدى عند الناس ورواجًا.

ويموت محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة 124هـ/742م، بعدما أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام بمواصلة المسيرة.

سوتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التى كانت عليها قبل ذلك، فهى لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام، وقادة معلومون، من أمثال أبى سلمة الخلال على الكوفة، وأبى مسلم الخراسانى على خراسان.

وما تكاد سنة 129هـ/ 747م، تقبل حتى يصدر أمر الإمام العباسى "إبراهيم بن محمد" أن يكون "أبو مسلم الخراسانى" رئيسًا للدعاة جميعًا فى خراسان وما حولها، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموى.

انتقال الخلافة إلى العباسيين:

بعد هذا العرض يصبح فى مقدورنا أن نعرف كيف تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين.
لقد صدر الأمر إلى أبى مسلم بالجهر بالدعوة للعباسيين فى عهد آخر خلفاء بنى أمية "مروان بن محمد"، ولم يلبث أبو مسلم أن دخل "مرو " عاصمة خراسان، وكاد أن يستولى عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، وهنا أسرع الوالى على خراسان من قبل بنى أمية، وهو "نصر بن سيار" يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نـــارٍ		ويُوشكُ أن يَكُونَ لَهَا ضِـرَامُ
فإن النارَ بالعودين تُذْكـــــى		وإن الحربَ مبدؤها كـــلامُ
فقلت من التعجب ليتَ شِعرى		أأيقاظ أمية أم نيـــــــام؟

ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشغالهم بصراعات أنصارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، ولم يمدُّوا واليهم على خراسان بشىء، فأدرك أبو مسلم الخراسانى أن الوالى الأموى لن يصبر طويلاً، وأن "مرو" ستفتح يومًا ما قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقضَّ بهم على "مرو" ففتحت له، وهرب واليها "نصر بن سيار" وكان ذلك سنة 130هـ/ 748م.
وواصل أبو مسلم فتوحاته، فدانت له "بلخ" و"سمرقند" و"طخارستان" و"الطبسين" وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعًا، وراح يتطلع إلى غيرها، وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله على كتاب الله-عز وجل-وسنة نبيه "وللرضا من آل محمد"، أى يبايعون إمامًا مرضيًا عنه من آل البيت من غير أن يعِّيَنهُ لهم

والواقع أن بنى أمية كانوا نيامًا فى آخر عهدهم، لا يعلمون من أمر القيادة الرئيسية لهذه الدعوة العباسية شيئًا، ولما وقع فى يد الخليفة (مروان بن محمد) كتاب من "الإمام إبراهيم العباسى" يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان منشغلا بتوطيد سلطانه المتزعزع وقمع الثائرين ضده، واكتفى الخليفة "مروان بن محمد" بأن أرسل إلى القائم بالأمر فى دمشق للقبض على الإمام "إبراهيم بن محمد" "بالحميمة" وإيداعه فى السجن، وتم القبض عليه وأودع السجن، فظل به حبيسًا إلى أن مات فى خلافة مروان بن محمد سنة 132هـ/750م. ولما علم "إبراهيم" بالمصير الذى ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت فى قبضتهم أوصى لأخيه "أبى العباس" بالإمامة طالبًا منه أن يرحل إلى الكوفة ومعه أهل بيته؛ لينزل على داعى العباسيين بها وهو "أبو سلمة الخلال" فهناك يكون فى مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم.

مبايعة أبى العباس:

وهناك فى الكوفة -بعد قليل من وصول آل العباس إليها- تمت مبايعة أبى العباس خليفة للمسلمين، وتوجه "أبو العباس" إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة 132هـ/ 750م، وألقى على الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمى عن قيام الدولة العباسية، ومما جاء.فى تلك الخطبة:

"الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظَّمه، واختاره لنا، زعم الشامية أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، شاهت وجوههم، بِمَ ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم،

وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، ودحض الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وتمم النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم، وإخوانًا على سرر متقابلين فى آخرتهم، فتح الله ذلك -مِنَّةً وبهجة -لمحمد (، فلما قبضه الله إليه، وقام بالأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، حَوَوْا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا منها،

ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزُّوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، وقد أملى الله لهم حينًا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وتدارك بنا أمتنا، وَوَلِىَ نصرنا والقيام بأمرنا، لَيمُنَّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض، فختم بنا كما افتتح بنا، وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السَّفَّاح المبيح والثائر المنيح (يقصد أنه كريم جواد)".

ومن هذه المقولة التصقت به صفة السفاح، فقيل أبو العباس السفاح، مع أنه ما قصد ذلك المعنى الذى شاع على الألسنة.

لقد أعلنها صريحة مدوية فى الآفاق بينما كان "مروان بن محمد" آخر خلفاء بنى أمية يجلس على كرسى الخلافة، فكيف تمت المواجهة بين هؤلاء وأولئك؟ وكيف تحققت الغلبة للعباسيين؟

اللقاء الحاسم:

يالها من لحظات حاسمة فى تاريخ الأمم والشعوب، إن شمس الأمويين الغاربة تؤذن بالزوال، بينما شمس العباسيين فى صعود، وهذه هى الدنيا، فيوم لنا ويوم علينا، والأيام دُوَل.

وكان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين على أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو "نهر الزَّاب الأعلى".

فجيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو "عبد الله بن على"، بينما يقود جيش الأمويين الخليفة نفسه "مروان بن محمد".

كان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 132هـ/ 750م، ولم يجد "مروان" أمام جحافل العباسيين إلا أن يفر إلى "دمشق" مهزومًا أمام مطاردة "عبد الله بن على". لقد راح يُطارده، فاستولى على "دمشق"، واستولى على مدن الشام واحدة بعد الأخرى، وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بنى أمية، وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية، لكن مروان قد فرّ إلى مصر وتوجه إلى

صعيدها، وقرب الفيوم، عند قرية "أبوصير" أُلقِىَ القبضُ عليه، وقُتِلَ بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان.

ومضى عهد، وأقبل عهد جديد، وسيظل عام 132هـ/ 750م فاصلا بين عهدين، وتاريخًا لا يُنسى.

عصور الخلافة العباسية:

بدأت الدولة الجديدة سنة 132هـ/ 750م، وقد بلغ عدد خلفائها نحو سبعة وثلاثين خليفة، تعاقبوا على التوالى حكم هذه الدولة التى طال عمرها، واختلفت عصورها، وامتدت حتى سنة 656هـ/ 1100م ؛ حيث سقطت على أيدى التتار، بعد أن عاشت خمسة قرون وربع قرن ؛ اختلفت فيها العصور قوة وضعفًا! فكيف كانت البداية؟ وكيف كانت النهاية؟

العصر العباسى الأول (232 – 132هـ / 750 - 847م):

اشتمل العصر العباسى الأول على عهود تسعة خلفاء، بدأ حكمهم بأبى العباس السفاح، وانتهى بتاسع الخلفاء العباسيين وهو الخليفة الواثق الذى توفى سنة 232هـ/ 847م.

والعصر العباسى الأول هو العصر الذهبى للدولة العباسية، فقد استطاع أولئك الخلفاء التسعة واحدًا بعد الآخر تحقيق ثلاثة منجزات كبرى، هى:

تأكيد قوة الخلافة العباسية، والقضاء على كل المحاولات التى كان هدفها النيل من تلك الخلافة وسلطانها.

إقامة حكم إسلامى تحققت فيه المساواة بين جميع الشعوب الإسلامية.

رعاية الحضارة الإسلامية، فهم الذين أتاحوا لها الازدهار والانتشار.

خلافة أبى العباس السفاح (136 – 132هـ / 750 - 754 م):

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم.ولم تطل مدة خلافته، إنما هى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة.

انتشار الإسلام:

فقد سكن الكوفة، ثم تركها وأقام بالحيرة، ثم اختار مدينة "الأنبار" فبنى بها قصورًا وأحب الإقامة بها، وظل فيها حتى توفى. وكان لابد من تأمين الحدود، ورفع راية الإسلام ونشره فى ربوع الأرض لتصبح كلمة الله هى العليا، فبدأت من جديد تلك الحملات لتأديب الروم أعداء الإسلام والمسلمين.

عقد أبو العباس لعبد الله بن على أمر هذه المهمة سنة 136هـ/ 754م، فقاد عبد الله جيشًا من أهل الشام وخراسان.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل سيطر الجيش الإسلامى فى عصره من جديد على بلاد ما وراء النهر، وهى المنطقة الواقعة فى حوض نهرى جيحون

وسيحون مما يعرف الآن بالجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى مؤخرًا.

قمع الثورات:

ولم يخل عهده من ثورات قام بها بعض قواد الأمويين فى أول عهده بالخلافة وفى آخره، فقضى على ثورة "أبى الورد" الذى انضم إليه أهل "قنسرين"، و"حمص"، و"دمشق"، وكان ذلك عام تولّيه الحكم.

وفى آخر عهده، أعلن أهل دمشق تمردهم على خلافة العباسيين سنة 136 هـ، وبايعوا أحد الأمويين، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا أمام الجيش العباسى الذى داهمهم وطاردهم.

ويموت أبو العباس فى هذا العام بعد أن أوصى لأخيه "أبى جعفر المنصور" بالخلافة من بعده.

خلافة أبى جعفر المنصور (158 - 136هـ/ 754 - 775م):

يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس وإن تولَّى الخلافة بعد أخيه أبى العباس (سنة 136هـ/ 754م)

ترى لماذا يُعَدُّ أبو جعفر المنصور المؤسس الأول على الرغم من أنه الخليفة العباسى الثانى؟

إن "أبا جعفر المنصور" بذل جهودًا عظيمة لتدعيم الأسرة العباسية فى الحكم، وإعلاء شأن الخلافة، وإضفاء روح المهابة والإجلال على الدولة فى الداخل والخارج.

لقد بُويع بالخلافة بعد عودته من الحج ووفاة أخيه أبى العباس، بايعه أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام التى كان عمه "عبد الله بن على" أميرًا، فقد رفض مبايعته اعتقادًا منه بأنه أولى بالخلافة، فما كان من أبى جعفر إلا أن أرسل إليه القائد "أبا مسلم الخراسانى" ومعه جماعة من أمراء بنى العباس فهزموهم هزيمة منكرة، وخضعت بلاد الشام لأبى جعفر.

نهاية أبى مسلم الخراسانى:

وبدأ الجو يصفو لأبى جعفر بعد مقتل عمه "عبد الله" إلا من بعض الإزعاج الذى كان يسببه له أبو مسلم الخراسانى؛ وبسبب مكانته القوية فى نفوس أتباعه، واستخفافه بالخليفة المنصور، ورفضه المستمر للخضوع له؛ فأبو مسلم يشتد يومًا بعد يوم، وساعده يقوى، وكلمته تعلو، أما وقد شم منه رائحة خيانة فليكن هناك ما يوقفه عند حده، وهنا فكر المنصور جديًا فى التخلص منه.

وقد كان، فأرسل إلى أبى مسلم حتى يخبره أن الخليفة ولاه على مصر والشام،

وعليه أن يوجه إلى مصر من يختاره نيابة عنه، ويكون هو بالشام ؛ ليكون قريبًا من الخليفة وأمام عينيه وبعيدًا عن خراسان ؛ حيث شيعته وموطن رأسه، إلا أن أبا مسلم أظهر سوء نيته، وخرج على طاعة إمامه، ونقض البيعة، ولم يستجب لنصيحة أحد، فأغراه المنصور حتى قدم إليه فى العراق، وقتله فى سنة 137هـ/ 756م، ولأن مقتل رجل كأبى مسلم الخراسانى قد يثير جدلاً كبيرًا، فقد خطب المنصور مبينًا حقيقة الموقف، قال:

"أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تمشوا فى ظلمة الباطل بعد سعيكم فى ضياء الحق، إن أبا مسلم أحسن مبتدئًا وأساء معقبًا، فأخذ من الناس بنا أكثر مما أعطانا، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره، وعلمنا من خبيث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله، وعنفنا فى إمهالنا، فما زال ينقض بيعته، ويخفر ذمته حيث أحل لنا عقوبته، وأباحنا دمه، فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره، ممن شق العصا، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه". ومع ذلك فلم تهدأ الأمور، ولم يصفُ الجو لأبى جعفر المنصور كما كان يتوقع.

ثورة سُنباد:

كان ممن غضب لمقتل أبى مسلم الخراسانى، رجل مجوسى اسمه "سُنباد"، فثار والتف حوله الكثيرون من أهل "خراسان"، فهجموا على ديار المسلمين فى "نيسابور" و"قومس" و"الرى"، فنهبوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا النساء، ثم تبجحوا، فقالوا: إنهم عامدون لهدم الكعبة، فأرسل إليهم المنصور جيشًا بقيادة جمهور ابن مرار العجلى، فهزمهم واستردَّ الأموال والسبايا، ولا يكاد أبو جعفر يتخلص من "سنباد" سنة 137هـ/ 756م، حتى واجه ثائرًا ينادى بخلع المنصور.. تعلمون من هو؟!

إنه "جمهور بن مرار العجلي" قائد جيوش المنصور التى هزمت "سنباد".. فكيف كان هذا؟

لما هزم "جمهور" سنباد، واسترد الأموال، كانت خزائن أبى مسلم الخراسانى من بينها، فطمع "جمهور"، فلم يرسل المال إلى الخليفة المنصور، بل ونقض البيعة ونادى بخلع المنصور، فماذا كان؟

أرسل المنصور القائد الشجاع "محمد بن الأشعث" على رأس جيش عظيم، فهزم "جمهورًا" وفر هاربًا إلى "أذربيجان"، وكانت الموقعة فى سنة 137هـ/ 756م.

ثورات الخوارج:

ترى هل صفا الجو للمنصور بعد هذا ؟ لا.. فلقد كانت هناك ثورات وثورات تهدد الحياة وتحول دون الاستقرار والأمن. كما كانت هناك ثوارت للخوارج الذين أصبحوا مصدر إزعاج للدولة العباسية.

لقد خرج آنذاك "مُلَبّد بن حرملة الشيبانى" فى ألف من أتباعه بالجزيرة من العراق، وانضم إليه الكثيرون، فغلب بلادًا كثيرة، إلى أن تمكنت جيوش المنصور بقيادة خازم بن خزيمة من هزيمته فى سنة 138هـ/ 757م.

وتحرك الخوارج مرة ثانية فى خلافة المنصور سنة 148هـ بالموصل تحت قيادة "حسا بن مجالد الهمدانى"، إلا أن خروجه هو الآخر قد باء بالفشل.وواجه الخليفة المنصور العباسى ثورات منحرفة لطوائف من الكافرين، ففى سنة 141هـ/ 759م.. واجه المنصور ثورة أخرى لطائفة من الخوارج يقال لها "الراوندية" ينتسبون إلى قرية "راوند" القريبة من أصفهان.

إنهم يؤمنون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى واحد يسمى "عثمان بن نهيك" وأن جبريل هو الهيثم بن معاوية -رجل من بينهم-، بل لقد خرجوا عن الإسلام زاعمين أن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو "أبو جعفر المنصور"، فراحوا يطوفون بقصره قائلين: هذا قصر ربنا. ولم يكن ينفع هؤلاء إلا القتال، فقاتلهم المنصور حتى قضى عليهم جميعًا بالكوفة.

ثورة محمد "النفس الزكية":

من أخطر الثورات التى واجهت المنصور خروج محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على، وكان من أشراف بنى هاشم علمًا ومكانة، وكان يلقب بـ "النفس الزكية" فاجتمع العلويون والعباسيون معًا وبايعوه أواخر الدولة الأموية، وكان من المبايعين "المنصور" نفسه، فلما تولى الخلافة لم يكن له هم إلا طلب محمد هذا خشية مطالبته بطاعة هؤلاء الذين بايعوه من قبل، وهنا خرج "محمد" النفس الزكية بالمدينة سنة 145هـ/763م، وبويع له فى كثير من الأمصار. وخرج أخوه "إبراهيم" بالبصرة، واجتمع معه كثير من الفقهاء، وغلب أتباعه على "فارس" و"واسط" و"الكوفة"، وشارك فى هذه الثورة كثير من الأتباع من كل الطوائف.

وبعث المنصور إلى "محمد النفس الزكية" يعرض عليه الأمن والأمان له ولأولاده وإخوته مع توفير ما يلزم له من المال، ويرد "محمد" بأن على المنصور نفسه أن يدخل فى طاعته هو؛ ليمنحه الأمان.

وكانت المواجهة العسكرية هى الحل بعد فشل المكاتبات، واستطاعت جيوش أبى جعفر أن تهزم "النفس الزكية" بالمدينة وتقتله، وتقضى على أتباع إبراهيم
فى قرية قريبة من الكوفة وتقتله.

ثورة كافر خراسان:

ويظل مسلسل الثورات يتوالى على مر الأيام، ففى سنة 150هـ يخرج أحد الكفرة ببلاد خراسان ويستولى على أكثرها، وينضم له أكثر من ثلاثمائة ألف، فيقتلون خلقًا كثيرًا من المسلمين، ويهزمون الجيوش فى تلك البلاد، وينشرون الفساد هنا وهناك، ويبعث أبوجعفر المنصور بجيش قوامه أربعون ألفا بقيادة "خازم بن خزيمة"، فيقضى على هؤلاء الخارجين، وينشر الأمن والاستقرار فى ربوع خراسان.

بناء بغداد:

وراح المنصور يواصل ما بدأ به.. راح يبنى ويعمر بعد أن خَلا الجو، ودانت له البلاد والعباد، لقد فكر -منذ توليه- فى بناء عاصمة للدولة العباسية يضمن من خلالها السيطرة على دولته، وإرساء قواعدَ راسخة لها.

فشرع فى بناء بغداد سنة 145هـ على الضفة الغربية لنهر دجلة عند أقرب نقطة بين دجلة والفرات، لتصبح ملتقى الطرق القادمة من الشام شمالاً،ومن الصين شرقًا، ومن طوائف مصر، ومن الحجاز جنوبًا، إلى جانب موقعها العسكرى الخطير، فهى بين نهرى الفرات ودجلة، فلا وصول إليها إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطع الجسر وخربت القنطرة لم يتمكن معتدٍ من الوصول إليها، ولبغداد مزايا أخرى عديدة، أغرت المنصور بالإسراع فى بنائها، فراح أبو جعفر يأمر بإحضار الفعلة والصناع من بلاد العالم؛ ليحققوا نهضة، وليقيموا حضارة، وليصنعوا المستقبل لدولة الإسلام والمسلمين. وكان مِنْ بين مَنْ استعان بهم المنصور فى ضبط العمل ببغداد: الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان.

ووضع المنصور بنفسه أول لبنة وهو يقول: باسم الله، والحمد لله، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابنوا على بركة الله.

وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان هو القائم على بناء المدينة والمتولى لضرب اللبن. وأصبحت بغداد عاصمة لها شأنها بين عواصم العالم.

وكانت بغداد تتمتع بالطرق الواسعة النظيفة التى تمتد إليها المياه من فروع نهر دجلة فى قنوات مخصوصة تمتد بالشوارع صيفًا وشتاءً، وكانت شوارعها تكنس كل يوم، ويحمل ترابها خارجها، وعيَّن المنصور على أبوابها جندًا يحفظون الأمن بها، فصانها وحفظ لها نظامها ونظافتها من الداخل، وقد فرغ من بناء بغداد وسورها وأسواقها وخندقها بعد 4 سنوات أى سنة 149هـ/ 766م.

وأمام كثرة النازحين إلى عاصمة الخلافة أجمل مدن العالم آنذاك، كان لابد أن يهتمَّ المنصور ببناء سوق يضم أصحاب الصناعات والتجار والباعة. وفعلاً بنيت "الكرخ" سنة 157هـ/ 774م لتظل عاصمة الخلافة محتفظة بجمالها وسحرها وتألقها.

وكانت الكرخ سوقًا نموذجية، فلكل تجارة سوق خاصة بها، ولم يبقَ إلا أن يبنى المنصور مسجدًا جامعًا يجتمعون فيه حتى لايدخلوا بغداد، فبنى للعامة جامعًا، وهو غير جامع المنصور الذى كان يلى القصر، وفى سنة 151هـ/ 768م يبنى المنصور مدينة أخرى لابنه المهدى على الضفة الشرقية لنهر دجلة وهى مدينة "الرصافة" ثم بنى "الرافقة" وكانت هاتان المدينتان صورة من بغداد.

العدل أساس الملك:

وإلى جانب هذه النهضة العمرانية راح المنصور يسهر على تنفيذ طائفة من الإصلاحات الداخلية على مستوى الدولة العباسية كلها.

وإذا كان العدل أساس الملك، فإن الذين يقومون على العدل ينبغى أن يتم اختيارهم بعيدًا عن الهوى والمصالح. روى أن "الربيع ابن يونس" وزير "أبى جعفر" قال له ذات يوم: إن لفلان حقّا علينا؛ فإن رأيت أن تقضى حقه وتوليه ناحية. فقال المنصور:

يا ربيع، إن لاتصاله بنا حقًا فى أموالنا لا فى أعراض الناس وأموالهم. ثم بين للربيع أن لا يولى إلا الأكفاء، ولا يؤثر عليهم أصحاب النسب والقرابة. وكان يقول: ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر، لا يكون على بابى أعف منهم، هم أركان الدولة، ولا يصلح الملك إلا بهم:

"أما أحدهم: فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم. والآخر: صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى. والثالث: صاحب خراج، يستقصى ولا يظلم الرعية، فإنى عن ظلمها غنى .ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول فى كل مرة: آه. آه. قيل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصّحَّة (رجل يخبرنى بما يفعل هؤلاء لا يزيد ولا ينقص)."

هكذا كان المنصور حريصًا على إقامة العدل، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، وإلى جانب هذا، فقد كان يراقب عماله وولاته على الأقاليم، ويتتبع أخبارهم أولا بأول، ويتلقَّى يوميّا الكتب التى تتضمن الأحداث والوقائع والأسعار ويبدى رأيه فيها، ويبعث فى استقدام من ظُلم ويعمل على إنصافه متأسيًا فى ذلك بما كان يفعل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-

العناية بالمساجد:

وأعطى المنصور كل العناية للمساجد، خاصة المسجد الحرام، فعمل على توسعته سنة 140هـ، وسار إلى بيت المقدس بعد أن أثر فيه ذلك الزلزال الذى حدث بالشام، فأمر بإعادة بنائه مرة أخرى، وبنى المنصور مسجدًا بمنى وجعله واسعًا، يسع الذين يقفون فى منى من حجاج بيت الله، وشهدت مدن الدولة الكبرى نهضة إنشائية وعمرانية، روعى فيها بناء العديد من المساجد فى البصرة والكوفة وبغداد وبلاد الشام وغيرها من أقاليم الدولة.

العناية بالاقتصاد:

يذكر التاريخ للمنصور- إلى جانب هذه النهضة الإصلاحية العمرانية- اهتمامه بالزراعة والصناعة وتشجيعه أصحاب المهن والصناعات، وتأمينه خطوط التجارة والملاحة فى الخليج العربى حتى الصين من خطر القراصنة الهنود الذين كانوا يقطعون طرق التجارة، ويقتلون التجار، ويستولون على الأموال، وراح قُواده يؤدبون هؤلاء اللصوص. وكثيرًا ما يعود قواد البحر بالغنائم والأسرى حتى انقطعت القرصنة بعد سنة 153هـ/ 770م، ولقد تم فى عهده إعادة فتح "طبرستان" سنة 141هـ/ 759م، فيما وراء النهر.

العناية بالحدود:

أعطى المنصور اهتمامًا بالغًا بجهة الشمال؛ فراح يأمر بإقامة التحصينات والرباطات على حدود بلاد الروم الأعداء التقليديين للدولة الإسلامية.وكانت الغزوات المتتابعة سببًا فى أن ملك الروم راح يطلب الصلح، ويقدم الجزية صاغرًا سنة 155هـ. ولا ننسى للمنصور حملته التأديبية على قبرص لقيام أهلها بمساعدة الروم، ونقضهم العهد الذى أخذوه على أنفسهم يوم أن فتح المسلمون قبرص.

هذا هو "المنصور"، وهذه هى إصلاحاته فى الداخل والخارج رحمه الله رحمة واسعة، لقد كان يعرف لنفسه حقها، وللناس حقهم، ولربه حقه.وصية المنصور:

لقد ذهب ليحج سنة 158هـ/ 775م، فمرض فى الطريق، وكان ابنه محمد "المهدى" قد خرج ليشيعه فى حجه، فأوصاه بإعطاء الجند والناس حقهم وأرزاقهم ومرتباتهم، وأن يحسن إلى الناس، ويحفظ الثغور، ويسدد دينًا كان عليه مقداره ثلاثمائة ألف درهم، كما أوصاه برعاية إخوته الصغار، وقبل أن يدخل مكة لقى ربه ليقول له: إننى تركت خزانة بيت مال المسلمين عامرة، فيها ما يكفى عطاء الجند ونفقات الناس لمدة عشر سنوات.

رحمه الله، كان يلبس الخشن، ويرقع القميص ورعًا وزهدًا وتقوى، ولم يُرَ فى بيته أبدًا لهو ولعب أو ما يشبه اللهو واللعب، ويذهب المنصور إلى رحمة الله.وتعالوا بنا نقرأ وصية أبى جعفر المنصور لولده وولى عهده المهدى، قال

المنصور لولده المهدى:

"ولدت فى ذى الحجة، ووليت فى ذى الحجة، وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة، وإنما حدانى على الحج ذلك، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى، يجعل لك فى كربك وحزنك فرجًا ومخرجًا، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب.

يا بنى: احفظ محمدًا (فى أمته، يحفظك الله، ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوبٌ إثم) عند الله عظيم، وعار فى الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود، فإن فيها خلاصك فى الآجل، وصلاحك فى العاجل، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله تعالى لو علم شيئًا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمرٍ به فى كتابه.

واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه، أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادًا، مع ما ادّخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة:33]

فالسلطان يا بنى حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودينه القيم، فاحفظه وحصنه، وذُبَّ عنه، وأوقع بالملحدين فيه، وأقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن، واحكم بالعدل ولا تشطط؛ فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع فى الدواء، وعفّ عن الفىء، فليس بك إليه حاجة مع ما خلفه الله لك، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمّن السبل، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المطاردة عنهم، وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة، وهى من شيم الزمان، وأعد الكراع والرجال والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع، جد فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا، واجتهد وشمر فيها، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن بربك، وأسئ الظن بعمالك وكتَّابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقد من تثبت على بابك، وسهّل إذنك للناس، وانظر فى أمر النزاع إليك، ووكل بهم عينًا غير نائمة، ونفسًا غير لاهية، ولا تنم، وإياك، فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة، ولا دخل عينه النوم إلا وقلبه مستيقظ.

يا بنى: لا يصلح السلطان إلا بالتقوى، ولا تصلح الرعية إلا بالطاعة، ولا تعمر البلاد بمثل العدل، هذه وصيتى إليك، والله خليفتى عليك."

خلافة المهدى (158-169 هـ/ 775- 786م):

ويأتى محمد المهدى بعد أبيه بعد أن بايعه الناس بالخلافة، لقد كان المهدى وليّا للعهد فى خلافة والده المنصور، وكثيرًا ما كان يتلقى توجيهاته ونصائحه وإرشاداته، وما زالت كلمات أبيه ترن فى أذنه:

"إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه. يابنى، استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنس نصيبك من الدنيا، ونصيبك من رحمة الله."

استكمال الإصلاحات:

وسار المهدى على نهج أبيه المنصور فى القيام بالإصلاحات الداخلية، وتأمين الحدود، وعمارة المساجد، وعلى رأسها المسجد الحرام.

ولم يفته أن يأمر بحفر نهر بالبصرة يحيى به الأرض الموات، ويسهم فى توفير القوت، ولقد أحسن إلى العلويين وإلى غيرهم ممن لهم أهداف سياسية، فأطلق سراح من كان منهم فى السجون سنة 159هـ/ 776م، وكان لهذا أثره فى الاستقرار والهدوء فلم يخرج عليه أحد من العلويين!

ولقد أتيح له أن يقضى على ثلاث ثورات، قام بها أفراد انضم إليهم كثير من الخوارج، اثنتين فى خراسان والثالثة "بقنسرين" من أرض الشام.

وراح يواصل تأمين طرق التجارة إلى الهند، وانطلقت فى خلافته الجيوش الإسلامية الفاتحة فى اتجاه الروم؛ ففى سنة 165هـ/ 782م بلغت جيوشه بقيادة ابنه "هارون الرشيد" خليج "القسطنطينية"، وجرت الرسل والسفراء بينه وبين الإمبراطورة الرومانية "إيرين" فى طلب الصلح فى مقابل فدية تقدم للدولة الإسلامية سنويّا مقدارها سبعون ألف دينار، واشترط الرشيد على ملكة الروم تعيين أدلاء له، وإقامة الأسواق فى طريق عودته، وكانت مدة الهدنة ثلاث سنين.

تأمين الحدود:

كما أرسل عام 167هـ ولى عهده الهادى إلى "جرجان" فى جيش كثيف لم يُرَ مثله. إن الجيش الإسلامى فى عهد المهدى كان له وجوده على حدود الروم، حتى لقد قام أمير البر الشامى بغزوتين بحريتين فى اتجاه الروم سنة 160هـ/ 777م، و161هـ/ 778م، ولقد قضى على الإلحاد والزندقة فى عهده..، لم
تأخذه فى ذلك لومة لائم، ومن شابه أباه فما ظلم.

ورع المهدى:

وحدث فى خلافته أن أصاب الناس ريح شديدة ظنوا معها قيام الساعة، وأخذ القواد فى البحث عن المهدى فوجدوه واضعًا خده على الأرض وهو يقول: "اللهم احفظ محمدًا فى أمته !اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ! اللهم إن كنتَ أخذتَ هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك." !
واستمر المهدى فى دعائه وتضرعه حتى انكشفت الريح، وعاد الأمر إلى وضعه الصحيح.
وتتبع المهدى الزنادقة والملحدين أعداء الدين، وأمر بتصنيف كتب الجدل للرد عليهم.

أمن وعطاء:

وأشاع عهدًا من السلام بينه وبين العلويين، ولقد سار بالخلافة على الخطة التى وضعها له أبوه، ينظر فى الدقائق من الأمور، ويُظْهِر أبَّهة الوزراء. وكان المهدى أول من جلس للمظالم من بنى العباس، يقيم العدل بين المتظالمين، ومشى على أثره من بعده الهادى والرشيد والمأمون، وكان "المهتدى" آخر من جلس للنظر فيها، وبسط "المهدى" يده فى العطاء، فأذهب جميع ما خلفه المنصور، وأجرى المهدى الأرزاق على المجذومين وأهل السجون فى جميع الآفاق، وأمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ببغال وإبل، وقد وجد البريد من عهد عمر بن الخطاب، والذى فعله المهدى مزيد من التنظيم له، قال رجل للمهدى: عندى لك نصيحة يا أمير المؤمنين.
فقال: لمن نصيحتك هذه ؟ لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك؟
قال: لك يا أمير المؤمنين. قال: ليس الساعى بأعظم عورة، ولا أقبح حالاً ممن قَبِل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة، فلا نشفى غيظك، أو عدوّا فلا نعاقب لك عدوك. ثم أقبل على الناس فقال: لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رضا لله، وللمسلمين صلاح. وما تكاد سنة 169هـ/ 786م تقبل حتى توفى المهدى -رحمه الله -رحمة واسعة. وتولى الخلافة من بعده الخليفة موسى الهادى.

خلافة موسى الهادى (170 - 169 هـ / 786 - 787م):

أوصى المهدى ابنه موسى الهادى قبل أن يموت بقتل الزنادقة، وكان الهادى قوى البأس شهمًا خبيرًا بالملك كريمًا. فجدَّ فى أمرهم، وقتل منهم الكثير.على أن الأمور بينه وبين العلويين لم تكن على ما يرام كما كانت فى عهد أبيه، فقد عادت إلى التوتر بعد فترة السلام التى امتدت طوال فترة خلافة المهدي.ويرجع السبب فى ذلك إلى عامل المهدى على المدينة، فقد ظلم بعض آل على - رضى الله عنه- مما جعل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب يثور ويجتمع حوله كثيرون ويقصدون دار الإمارة، ويخرجون من فى السجون، ثم يخرج الحسين إلى مكة فيرسل له الهادى: "محمد بن سليمان" وتتلاقى جموعهم فى موقعة حاسمة قتل فيها "الحسين" وحمل رأسه إلى موسى الهادى.

ونجا من موقعة "الفخ" اثنان من العلويين، أحدهما: يحيى بن عبد الله بن الحسن، أما الثانى فهو أخوه إدريس بن عبد الله.

وقد ثار الأول فى عهد الرشيد فقتل أما الثانى وهو إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن فقد تمكن من إثارة أهل المغرب الأقصى (المملكة المغربية حاليّا) على العباسيين، حيث أسس هناك دولة الأدارسة.

وعلى الرغم من أن خلافة موسى الهادى كانت قصيرة فإن الفتوحات الإسلامية لم تتوقف مسيرتها؛ فقد غزا "معيوف بن يحيى" الروم ردّا على قيام الروم بغزو حِمْص "الحَدَث"، ولقد دخل معيوف بلاد الروم، وأصاب سبايا وأسارى وغنائم.

ولقى الهادى ربه سنة سبعين ومائة هجرية، وكان رحمه الله موصوفًا بالفصاحة، محبّا للأدب ذا هيبة ووقار، قيل عن الليلة التى مات فيها: هى ليلة مات فيها خليفة وجلس فيها خليفة، وولد خليفة. فالخليفة الذى مات فيها هو الهادى، والذى جلس فيها على سريره هو الرشيد، والذى ولد فيها هو المأمون.

خلافة هارون الرشيد (193 - 170هـ/ 788 - 810م):

لقد سار الرشيد في إدارته على نهج قويم، وأعاد إلى الخلافة مجدها الذى كان لها على عهد جده المنصور، وما كان مسرفًا ولا بخيلا، وسمى الناس أيامه "أيام العروس" لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها، وكانت دولته من أحسن الدول وأكثرها وقارًا ورونقًا وأوسعها مملكة، واتسعت الدولة الإسلامية في عهد الرشيد، وجاءه الخير من كل مكان، وعين الرشيد يحيى بن خالد البرمكى، وجعله كبير وزرائه، وقال له: قد قلدتك أمر الدولة، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. وسلَّم إليه خاتم الخلافة.

إدارة حكيمة:

أما الولايات فقد فوضها إلى أمراء جعل لهم الولاية على جميع أهلها، ينظرون فى تدبير الجيوش والأحكام، يعينون القضاة والحكام، ويجْبُون الخراج، ويقبضون الصدقات، ويقلدون العمال فيها، ويحمون الدين، ويقيمون حدوده،

ويؤمُّون الناس فى صلاة الجمعة، الصلوات الأخرى أو يستخلفون عليها، فإذا كانت أقاليمهم ثغرًا متاخمًا للعدو تولوا جهاده.

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بنى العباس تقسيمها فى زمن الرشيد، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج، ووقت ليغزو، ووقت ليصطاف فى الرقة، ويترك قصر الخلد فى بغداد.

لقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما صغر وكبر من شئون الملك، ومن أشد الملوك بحثًا عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمرًا؛ لذلك فما اشتعلت فتنة فى أرجاء دولته إلا أطفأها.

وألغى الرشيد العُشْر الذى كان يؤخذ من الفلاحين والمزارعين بعد النصف، وكان رحمه الله يسدُّ كل خللٍ فى مملكته، ويهتمُّ كل الاهتمام بما يخفف عن الفلاحين.

وقد ولّى الرشيد رجلا بعض أعمال الخراج، فدخل عليه يودعه، وعنده يحيى بن خالد البرمكى، وابنه جعفر، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه. فقال له يحيى: وفِّر وعَمِّر. وقال له جعفر: أنصف وانتصف. فقال له الرشيد: اعدل وأَحْسِن.

وكتب الرشيد إلى أحد عماله: أجْرِ أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا، واعلم أنها مدة تنتهي، وأيام تنقضى، فإما ذكر جميل، وإما خزى طويل. ومما يعد جديدًا فى تعظيم الحكم أن قاضى الرشيد "أبا يوسف" صاحب أبى حنيفة وتلميذه كان أول من دُعى فى الإسلام قاضى القضاة (وزير العدل الآن)، وكان الرشيد لا يبخل بالمال فى سبيل الدولة، وقد خلف من المال -على كثرة بذله- مالم يخلف أحد مثله منذ كانت الخلافة.

قال ابن الأثير: كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا فى بذل المال، فإنه لم يُر خليفة قبله كان أعطى منه للمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر عنده.

سياسة رشيدة:

وكذلك كان الرشيد حكيمًا فى سياسته كما كان حكيمًا فى إدارته، لقد بويع للرشيد عند موت أخيه الهادى، وكان أبوهما قد عقد لهما بولاية العهد معًا، ويروى أن الهادى قد حدثته نفسه بخلع الرشيد، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده، فأجابوه، وأحضر "هرثمة بن أعين"، فقيل له: تبايع يا هرثمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، يمينى مشغولة ببيعتك، ويسارى مشغولة ببيعة أخيك، فبأى يد أبايع؟

فقال الهادى لجماعة الحاضرين: شاهت وجوهكم، والله لقد صدقنى مولاى، وكذبتمونى، ونصحنى فغششتمونى، وسلم إلى الرشيد بحقه فى الولاية بعده.

وكانت سياسة الرشيد سياسة رشيدة فى الداخل والخارج، غزا الروم حتى وصل إلى "إسكدار" من ضواحى "القسطنطينية" أيام ولايته العهد، وتغلغل مرة ثانية فى بلادهم وغزاهم فى خلافته بضع غزوات، وأخذ منهم "هرقلية"، وبعث إليه ملكهم بالجزية عن شعبه، واشترط عليه الرشيد ألا يعمر هرقلية، وأن يحمل إليه فى السنة ثلاثمائة ألف دينار.

العصر الذهبى:

وكان "نقفور" قد نقض العهد الذى أعطته الملكة "إرينى"، التى كانت تحكم الروم قبله، وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة يهدده فيها: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد؛ فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرَّخ (طائر خرافى يعرف بالقوة)، وأقامت نفسها مقام البَيْدق (يعنى مقام الضعيف)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافه إليها، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأتَ كتابى هذا، فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك."

فلما قرأ الرشيد الرسالة غضب غضبًا شديدًا حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه، فدعا بدواة وكتب إلى نقفور ملك الروم ردّا على رسالته يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام". وقاد بنفسه جيوشًا جرارة، ولقّنه درسًا لا يُنسى، فعاد إلى أداء الجزية صاغرًا، بعد أن خضع أمام قوة المسلمين وعزة نفوسهم.

وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى: "وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون فى الغزو، ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرًا عظيمًا، وأقام من الصناعة (الأسطول) مالم يقم قبله، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل، وهزم الروم وقمعهم".

وسمى الرشيد "جبار بنى العباس"؛ لأنه أخرج ابنه القاسم للغزو سنة 181هـ، فهزم الروم هزيمة منكرة، أدخلت الرعب فى قلوبهم، فصالحه الروم على أن يرحل عنهم فى مقابل أن يعيدوا إليه كل من أسروهم من المسلمين قبل ذلك، وكان هذا أول فداء فى الإسلام بين المسلمين والروم.

وأرسل "على بن عيسى بن ماهان" لغزو بلاد الترك، ففعل بهم مثلما فعل القاسم بن الرشيد بالروم، وسبى عشرة آلاف، وأسر ملكيْن منهم. ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية، وأخذ الجزية من ملك الروم.

وتوطدت الصِّلات بينه وبين "شارلمان" ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا وتبادلا السفراء، والهدايا.

وفى أيامه، خرج "الوليد بن طريف الحرورى" من رءوس الخوارج سنة 178هـ/ 795م، فَقُتِل بعد أن استفحل أمره.

لقد كان عصر الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بنى العباس قوة وعظمة وثقافة، وهو العصر الذهبى للدولة العباسية.

القضاء على البرامكة:

وقد تحدثت الدنيا عن نكبة "البرامكة" الذين كان منهم وزير الرشيد، وكانت لهم الكلمة العليا فى البلاد على يديه سنة 187هـ/ 803م، بعدما ظهروا ظهورًا غطى أو قارب أن يغطى على سلطة الرشيد ومكانته، وهو الخليفة.

لقد أصبحوا مركزًا من مراكز القوى فى الدولة العباسية، الأمر أمرهم، والكلمة كلمتهم، والأموال فى أيديهم، فما منعهم ذلك لأن يفسد حالهم، ويسوء سلوك أكثرهم، حتى إن الرشيد كان لا يمر ببلد أو إقليم أو مزرعة أو بستان إلا قيل: هذا لجعفر بن يحيى بن خالد البرمكى. كما قلدوه فى إنفاق الأموال والعطايا والمنح. وضاق الرشيد بالبرامكة، وعزم على أن يقضى عليهم، وتكون نكبتهم على يديه، ونودى فى بغداد: لا أمان للبرامكة إلا محمد بن خالد بن برمك وولده؛ لإخلاصهما للخليفة.

وكان منهم الوزراء والقادة وأصحاب الرأى، وكانوا من أصل فارسى، فلما حدث منهم ما حدث، امتنع الرشيد عن الوثوق بهم، واختار وزراءه ومستشاريه من العرب، وجعل الفضل بن الربيع الذى كان أبوه حاجبًا للمنصور والمهدى والهادى وزيرًا له.

وكان الفضل بن الربيع شهمًا خبيرًا بأحوال الملوك وآدابهم، فلما ولى الوزارة جمع إليه أهل العلم والأدب. وما زال الفضل ابن الربيع على وزارته حتى مات الرشيد سنة 193هـ/ 809م.

العامة وهارون الرشيد:

وقبل أن ننتقل بحديثنا عن هارون الرشيد إلى غيره من الخلفاء العباسيين، تبقى كلمة لابد من قولها: فقد ارتبط اسم هارون الرشيد فى أذهان العامة بحكايات ألف ليلة وليلة، باللهو والمجون، وما كانت هذه حقيقة الرجل من قريب أو بعيد، وإنما عمد المستشرقون والمستهترون إلى تشويه صورة الرجل، لكى تبدو صورة الخلافة الإسلامية مشوهة، وأن المسلمين قوم لاهَمَّ لهم إلا إشباع غرائزهم، لا يصلحون لقيادة الأمم وعمارة الأرض.

أما حقيقة هارون الرشيد، الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به أعداء الدين، فهو مسلم حق، وعابد، ومجاهد بنفسه وماله فى سبيل عزة هذا الدين وإعلاء كلمة الله فى أرضه.

كان الرشيد يكثر من صلاة النافلة إلى أن فارق الدنيا، وكان يتصدق وينفق على الحجيج من صلب ماله، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء فى الدين، ويسرع الرجوع إلى رحاب الحق إذا ذكر. حدث أنه حبس أبا العتاهية الشاعر، ووكَّل به رجلا يكون قريبًا منه لينظر ما يقول ويصنع، فكتب أبو العتاهية على الحائط:

أما والله إن الظلم لـــؤم		وما زال المسىء هو الظلـوم
إلى ديان يوم الدين نمضـى		وعند الله تجتمع الخصــوم

فجاء الرجل فأخبر هارون الرشيد، فبكى الرشيد، وأطلق أبا العتاهية واعتذر إليه واسترضاه.

وحج ذات مرة، فرآه الناس وقد تعلق بأستار الكعبة يقول: "يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا؛ يا من لا تضره الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، صلّ على محمد وعلى آل محمد، وخِره لى فى جميع أمورى. يامن خشعت له الأصوات بأنواع اللغات، يسألونه الحاجات، إن من حاجتى إليك أن تغفر لى ذنوبى إذا توفيتنى، وصُيِّرت فى لحدى، وتفرق عنى أهلى وولوا؛ اللهم لك الحمد حمدًا يفضل كل حمد، كفضلك على جميع الخلق؛ اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا، وصلّ عليه صلاة تكون له ذخرًا، واجزه عنا الجزاء الأوفى. اللهم أحينا سعداء، وتوفنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء مرجومين".

هذا هو هارون الرشيد، الصورة المضيئة لخليفة المسلمين. والمسلم المحتذى به فى الأمور، ويكفيه شرفًا أنه ما مات حيث مات إلا وهو خارج إلى الرى فى موكب الجهاد لنشر الدين وحماية أرض الإسلام، فرحمة الله عليه.

ويأتى بعد عصر الرشيد عصرا ولديْه الأمين والمأمون.

خلافة الأمين (193-198هـ - 809-814م):

الأمين بن هارون الرشيد ولد سنة 170هـ/ 787م ببغداد، أمه "زبيدة" بنت جعفر بن المنصور، فليس فى خلفاء بنى العباس مَنْ أمه وأبوه هاشميان غير الأمين.
بينما أخوه "المأمون" والذى كان يكبره بستة شهور فكانت أمه فارسية ماتت بعد ولادته.

غزو الروم:

وكان الرشيد قد عهد بولاية العهد للأمين وللمأمون من بعده. وليس فى خلافة الأمين والتى دامت قريبًا من خمس سنوات 193-198هـ/809 - 814م شىء يذكر، غير أنه أعطى المجاهدين مالا عظيمًا ووجه جيشًا تابعاً له لغزو الروم، وأعطى مدن الثغور المواجهة للروم شيئًا من عنايته، فأمر فى سنة 193هـ/ 809م ببناء مدينة "أذنة" وأحكم بناءها وتحصينها، وندب إليها الرجال لسكناها، أما فيما عدا ذلك، فقد مرت خلافته فى صراع بينه وبين أخيه المأمون من أجل الخلافة، انتهى بقتل الأمين وانفراد المأمون بالحكم، وكان الأمين قد تلقى علوم الفقه واللغة من الكسائى، وقرأ عليه القرآن.

مقتل الأمين:

ونشبت حروب بين الأمين والمأمون بسبب رغبة الأمين فى خلع أخيه. من ولاية عهده وتولية ولده مكانه، ورفض المأمون ذلك، فشجعه قادته حتى استعرت الحرب بين الأخوين، وانتهت بانتصار المأمون وقتل الأمين سنة198هـ.

خلافة المأمون (198-218هـ - 814-833م):

أصبح الأمر فى المشرق والمغرب تحت سلطان المأمون وهو سابع خلفاء بنى العباس، لقد كان المأمون فى ذلك الوقت واليًا من قبل والده على "خراسان" وكان يقيم فى عاصمتها "مرو"، وكان من الطبيعى أن يفضِّلها بعد أن انفرد بالخلافة.

إنها تضم أنصاره ومؤيديه، فهو هناك فى أمان واطمئنان، وكان الفرس يودون أن يبقى "بمرو" لتكون عاصمة الخلافة، ولكنها بعيدة عن مركز الدولة، وهى أكثر اتجاهًا نحو الشرق، مما جعل سيطرتها على العرب ضعيفة، بل إن أهل بغداد أنفسهم دخلوا فى عدة ثورات ضد المأمون؛ حتى إنهم خلعوه أخيرًا، وبايعوا بدلاً منه عمه إبراهيم بن المهدى.

واضطر المأمون أخيرًا أن يذهب إلى بغداد وأن يترك "مرو" للقضاء على هذه التحركات فى مهدها.

الإحسان إلى الشيعة:

كان معظم أعوان المأمون من الفرس، ومعظمهم من الشيعة، ولهذا اضطر المأمون لممالأه الشيعة وكسبهم إلى جانبه، فأرسل إلى زعماء العلويين أن يوافوه فى عاصمته (وكانت مرو فى ذلك الوقت)، فلما جاءوه أحسن استقبالهم،

وأكرم وفادتهم، وما لبث بعد قليل أن عهد بولاية العهد إلى "على الرضا" وهى طبعًا خطوة جريئة؛ لأن فيها نقلا للخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى.ولم يكتفِ بهذا، بل غير الشعار من السواد وهو شعار العباسيين إلى الخضـرة وهى شعار العلويين.

ورغم اعتراض أقاربه من العباسيين، فإن المأمون كان مصرًّا على هذا الأمر، إذ كان يعتقد أن ذلك من بر على بن أبى طالب -رضى الله عنه-.وجاءت عمة أبيه زينب بنت سليمان بن على، وكانت موضع تعظيم العباسيين وإجلالهم، وهى من جيل المنصور، وسألته: ما الذى دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت على؟ فقال: يا عمة، إنى رأيت عليّا حين ولى الخلافة أحسن إلى بنى العباس، وما رأيت أحدًا من أهل بيتى حين أفضى الأمر إليهم (وصل إليهم) كافأه على فعله، فأحببت أن أكافئه على إحسانه.

فقالت: يا أمير المؤمنين إنك على بِرٍّ بنى علىّ والأمر فيك، أقدر منك على برهم، والأمر فيهم.
ولكن لم يلبث "على الرضا" أن مات وكان ذلك فى سنة 203هـ/ 819م، وعلى كل حال لقد استطاع المأمون ببيعة "على الرضا" أن يقوى من سلطانه؛ لأنه بهذه البيعة أمن جانب العلويين. ولكن قامت ضد الخليفة المأمون ثورات عديدة اختلفت فى مدى عنفها وشدتها، واستطاع القضاء عليها جميعًا.

ثورة مصر:

كان أخطر هذه الثورات جميعًا ثورة مصر؛ ذلك أن جند مصر كانوا قد اشتركوا فى خلافات الأمين والمأمون كل فريق فى جانب، وبعد أن انتهى الخلاف بفوز المأمون، ظل الخلاف قائمًا بين جند مصر، وأصبح موضع الخلاف التنافس على خيرات مصر، فكان الجند يجمعون الخراج لا ليرسل للخليفة، بل ليحتفظوا به لأنفسهم.
وقد قامت جيوش المأمون كثيرًا بمحاربتهم مع أهل مصر الذىن شاركوا فى هذه الثورات، ولكن هذه الثورات ما لبثت أن أشعلت من جديد حتى أرسل إليهم جيشًا ضخمًا، فاستطاع القضاء على الثورة نهائيًا، كما تمكن قائده "طاهر بن الحسين" من القضاء على ثورات العرب أنصار الأمين، وهكذا سيطر على الدولة سكون وهدوء.

انتشار الإسلام:

وكان المأمون يكتب إلى عمّاله على خراسان فى غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر، ولم يغفل المأمون عن قتال الروم، بل غزاهم
أكثر من مرة، وخرج بنفسه على رأس الجيوش الإسلامية لغزو الروم سنة 215هـ/830م، فافتتح حصن "قرة" وفتح حصونًا أخرى من بلادهم، ثم رحل عنها، وعاود غزو الروم فى السنة الثالثة سنة 216هـ، ففتح "هرقلة" ثم وجّه قواده فافتتحوا مدنًا كبيرة وحصونًا، وأدخلوا الرعب فى قلوب الرومان، ثم عاد إلى دمشق، ولما غدر الروم ببعض البلاد الإسلامية غزاهم المأمون للمرة الثالثة وللعام الثالث على التوالى سنة 217هـ، فاضطر الروم تحت وطأة الهزيمة إلى طلب الصلح.
يرحم الله المأمون، لقد كان عصره من أزهى عصور الثقافة العربية.

أخلاق المأمون:

كان يقول: أنا والله أستلذ العفو حتى أخاف ألا أؤجر عليه، ولو عرف الناس مقدار محبتى للعفو؛ لتقربوا إلى بالذنوب!

وقال: إذا أصلح الملك مجلسه، واختار من يجالسه؛ صلح ملكه كله.

ورفع إليه أهل الكوفة مظلمة يشكون فيها عاملا؛ فوقَّع: عينى تراكم، وقلبى يرعاكم، وأنا مولّ عليكم ثقتى ورضاكم. وشغب الجند فرفع ذلك إليه، فوقَّع: لا يعطون على الشغب، ولا يحوجون إلى الطلب.

ووقف أحمد بن عروة بين يديه، وقد صرفه على الأهواز، فقال له المأمون: أخربتَ البلاد، وأهلكت العباد

فقال: يا أمير المؤمنين، ما تحب أن يفعل الله بك إذا وقفتَ بين يديه، وقد قرعك بذنوبك؟

فقال: العفو والصفح.

قال: فافعل بغيرك ما تختار أن يفعل بك.

قال: قد فعلت.. ارجع إلى عملك فوالٍ مستعطِف خير من وال مستأنف.

وكتب إلى على بن هشام أحد عماله، وقد شكاه غريم له: ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة ويكون غريمك عاريًا، وجارك طاويًا.وهكذا كان المأمون.. حتى لقد وصفه الواصفون بأنه من أفضل رجال بنى العباس حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلمًا ورأيًا ودهاءً، وقد سمع الحديث عن عدد كبير من المحدّثين، وبرع فى الفقه واللغة العربية والتاريخ، وكان حافظًا للقرآن الكريم.

النهضة العلمية:

جاء فى كتاب قصة الحضارة: أنه أرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الرومانية يطلب أن يمدوه بالكتب اليونانية، خاصة كتب الطب والعلوم الرياضية، وعندما وصلت هذه الكتب إلى أيدى المسلمين قاموا بترجمتها

وفحصها ودراستها، وأنشأ المأمون فى بغداد "بيت الحكمة" سنة 214هـ/829م، وهو مجمع علمى، ومكتبة عامة، ومرصد فلكى، وأقام فيه طائفة من المترجمين، وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، فاستفاد المسلمون من هذه الكتب العلمية، ثم ألفوا وابتكروا فى كافة العلوم، التى أسهمت فى نهضة أوروبا يوم أن احتكت بالعرب فى الحروب الصليبية وغيرها.

وكان للمدارس التى فتحها المأمون فى جميع النواحى والأقاليم أثرها فى نهضة علمية مباركة. إلا أن الاطلاع على بعض فلسفات الأمم الأخرى قد جعل العقل يجتهد فى أمور خارج حدوده وتفكيره، ومن هنا نشأ الفكر الاعتزالى الذى يُعْلى من قيمة العقل، ويجعله حكمًا على النص دون حدود أو قيود.

الإسلام قد رفع من العقل، لكنه حدد له حدودًا يعمل فيها.

لقد سمح المأمون لأولئك الذين اعتمدوا على العقل والمنطق فى كل شىء بالتعبير عن آرائهم، ومعتقداتهم، ونشر مبادئهم من غير أن يتقيدوا بقيد أو يقفوا عند حد، فكان هذا من سوءاته التى أحدثت بين علماء المسلمين فتنة دامت تسع عشرة سنة، إلى أن شاء الله تعالى لتلك الفتنة أن تخمد، ولقد وصف الإمام السيوطى المأمون بقوله: "إنه كان من أفضل رجال بنى العباس لولا ما أتاه من محنة الناس". وانتقل المأمون إلى مولاه -سبحانه وتعالى- بعد حياة حافلة بالإنجازات فى مختلف نواحى الدولة.

اشتمل العصر العباسى الأول على عهود تسعة خلفاء، بدأ حكمهم بأبى العباس السفاح، وانتهى بتاسع الخلفاء العباسيين وهو الخليفة الواثق الذى توفى سنة 232هـ/ 847م.

والعصر العباسى الأول هو العصر الذهبى للدولة العباسية، فقد استطاع أولئك الخلفاء التسعة واحدًا بعد الآخر تحقيق ثلاثة منجزات كبرى، هى:

تأكيد قوة الخلافة العباسية، والقضاء على كل المحاولات التى كان هدفها النيل من تلك الخلافة وسلطانها.

إقامة حكم إسلامى تحققت فيه المساواة بين جميع الشعوب الإسلامية.

رعاية الحضارة الإسلامية، فهم الذين أتاحوا لها الازدهار والانتشار.

الفصل الثاني

الامتداد الأقصى للدول الإسلامية على مرّ العصور.

يمتد التاريخ الإسلامي على فترة زمنية طويلة تغطي معظم العصور الوسيطة على مساحة جغرافية واسعة تمتد من حدود الصين في آسيا إلى غرب آسيا وشمال أفريقيا وصولاً إلى الأندلس. ويمكن اعتبار التاريخ الإسلامي يمتد منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي على النبي محمد بن عبد الله ثم تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة مرورا بالدولة الأموية في دمشق التي امتدت من حدود الصين حتى جبال البرانس شمال الأندلس ثم الدولة العباسية، بما تضمنته هذه الدول الإسلامية من إمارات وسلطنات ودول مثل السلاجقة والبويهيين وفي المغرب الأدارسة والمرابطون ثم الموحدون وفي الشام الحمدانيون والزنكيون وغيرهم، أخيراً في مصر الفاطميون وفي الشام ومصر مثل - الأيوبيون والمماليك ثم سيطرةالإمبراطورية العثمانية التي تعتبر آخر الإمبراطوريات التي كانت تحكم باسمالإسلام على امتداد رقعة جغرافية واسعة.

الدين والدولة في الإسلام:

منذ البداية تميز الإسلام بأنه أكثر من دين ينظم العلاقة بين الإله كخالق وبين الإنسان كمخلوق كما تفعل معظم الأديان الأخرى، فقد قام محمد ع منذ بداية نزول الوحي (القرآن الكريم) بتأسيس المسلمين بشكل جماعة برزت منذ أيام الاضطهاد المكي لتتطور إلى مجتمع وما يشابه الدولة في المدينة المنورة. وهناك في المدينة تتابع نزول الوحي منظماً علاقات الأفراد المسلمين (مهاجرون وأنصار) بين بعضهم البعض وبين أفراد الأديان الأخرى (اليهود في المدينة)، وكل هذا يجعل من الإسلام دينا جماعياً حتى أن عباداته بمجملها تقوم على فكرة الجماعة والتضامن في المجتمع، إضافة إلى تحديد علاقة الإنسان مع الخالق والطبيعة، مما يجعله دينا ذا جانبين: روحي ديني، واجتماعي سياسي.

تفسير التاريخ الإسلامي:

تختلف وجهات النظر التي تحاول شرح وتفسير التاريخ الإسلامي بكل تعقيداته وزخمه بالأحداث والثورات والقلاقل، حسب الخلفيات الإيديولوجية التي يتبناها المحللون والأدوات التحليلية التي يستخدمونها.

في العصر الحديث بعد ما يسمى بعصر الصحوة كانت هناك توجهات واضحة من قبل المؤرخين المعروفين بالقوميين لتفسير التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ عربي محض، في ذات الحين نرى أيضا مؤرخين شيوعيّين يميلون لرؤية التجاذبات السياسية والعسكرية في مجمل التاريخ الإسلامي بوجهة نظر ماركسية تغلب العوامل الاقتصادية والصراع الطبقي فوق كل اعتبار آخر، أما المؤرخون العلمانيون فكانوا يحاولون جهدهم لمنع إدخال العامل الديني ضمن تفسير الأحداث وكانت جهودهم تتركز على إعادة استكشاف ما يدعى بالتاريخ الجاهلي باعتبار أن بذور النهضة العربية بدأت في ذلك العصر وما الإسلام إلا بذرة التطور في الفكر العربي.

بين كل ذلك الاختلاف على تفسير الأحداث بقي المؤرخون ذوو التوجه الإسلامي يناضلون لإثبات تفرد الإسلام كدين أحدثثورة اجتماعية وحضارية منحت العرب دولتهم وحضارتهم وهذه حقيقة لا جدال فيها ويؤكدون على تسامح الإسلام ووصول العديد من الأعراق الإسلامية الأخرى إلى سدة الحكم. كما يؤكد هؤلاء المؤرخون على أن بعثة النبي محمد بن عبد الله كانت نقطة فارقة أحدثت انقلاباً في تاريخ المنطقة بشكل خاص والعالم بشكل عام. لكن نقطة الضعف الأساسية أنهم يقدمون بعد ذلك توصيفا للأحداث بدون تفسيرها فبعض السنة تؤكد على عدم الخوض في تفاصيل أحداث فتنة مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان والخلاف بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب باعتبار الاثنين من الصحابة وكلاهما مغفور لهما، أما الفريق الآخر من أهل السنة والجماعة فيؤكد خطأ معاوية في الخروج على علي ويثبتون أحقية علي بدلالة انتخابه وبيعته.

على الطرف الآخر النقيض يقف الشيعة موقفهم المعروف من دعم علي وآل بيته في خلافة المؤمنين بتقرير رسول الله محمد بن عبد الله، جاعلين الخلافة شأناً شرعياً بخلاف نظرية السنة التي تجعل الخلافة أمرا سياسيا يتفق عليه المسلمون وينعقد بالبيعة.

يمكن تصنيف العوامل التي تلعب دوراً رئيسياً حسب تفسير عبد العزيز الدوري إلى: عوامل عقائدية: تلعب فيها أمور الدين والعقائد دوراً أساسياً.

عوامل ثقافية: فالثقافات والعادات المختلفة سواء الموجودة مسبقا عند العرب مما يدعى بالعادات القبلية والبدوية أو العادات التي صادفوها عند انتشارهم في الأقاليم المجاورة مثل الموروث الفارسي والكسروي والموروث الروماني واليوناني.

عوامل حضارية فلسفية: تشكل مجموع العلوم والفلسفات التي تلقاها المسلمون عند اختلاطهم بالشعوب الأخرى وهي أساساً: الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية.

عوامل اقتصادية: فالمال والثروة طالما كانت ذات دور رئيسي في الكثير من الحروب والنزاعات التي رسمت تاريخ الجنس البشري.

يعتمد عابد الجابري تصنيفا مشابها في كتابه العقل السياسي العربي حيث يقوم بدراسة التاريخ الإسلامي حسب محاور ثلاثة: (العقيدة، القبيلة، الغنيمة) كما يدخل أيضاً المدخلات الغريبة من عادات حكم وتقاليد فارسية ويونانية رومانية.

ظهور الإسلام:

كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام مجموعة من القبائل العربية والبدو الرحل ينتظمون في قبائل. ويعتبر الولاء للقبيلة وتحالفاتها الأساس في تنظيم المجتمع العربي (مفهوم العصبية). كانت الغالبية العظمى تدين في مكة بالوثنية إضافة للديانة اليهودية في يثرب والمسيحية في نجران ونجد، وكانت مكة مركزاً دينياً يؤمه العرب من كل صوب لأداء الحج إلى البيت الحرام الذي بناه إبراهيم.

في هذا الجو ظهر محمد ليجهر بالإسلام، وكان أهم تأثير سياسي للإسلام أنه استطاع إقامة دولة في المدينة المنورةيسودها تشريع يحكم الجميع، ووثائق ومعاهدات مع يهود يثرب الذين كانوا يسكنون المدينة. لاحقا استطاع المسلمون هزم المشركين في عدة معارك وفتحت مكة قبل وفاة رسول الله ع بعامين فحطمت أوثان العرب التي كانت موجودة في الكعبة وأعلن التوحيد.

التوحيد الذي جاء به الإسلام لم يكن دينياً روحياً فقط بل كان أيضاً اجتماعياً سياسياً، فالجزيرة العربية كلها دخلت في عقيدة واحدة وأصبح لها كيان واحد وقبلة واحدة وإله واحد هو الله. في حين ضعفت العصبيات القبلية والمطامع المادية في تلك الفترة مؤقتا قبل أن تعود للظهور بعد أن حقق المسلمون انتصارات مهمة لإسقاط دولة الساسانيين وفتح بلاد الشام.

عصر الخلافة الإسلامية:

أحدث خبر وفاة رسول الله ع صدمة هائلة عند كثير من المسلمين، فمن يقول مات رسول الله ومن يقول لا لم يمت. لما بلغ الخبر أبو بكر دخل على رسول الله في بيت عائشة, فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ثم أقبل عليه فقبَّله، وخرج إلى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه مَن كان يعبد

محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ **[سورة آل عمران: الآية 144]**

بايع الناس أبا بكر في المسجد -بعد بيعة قادة المهاجرين والأنصار له في سقيفة بني ساعدة فقام أبو بكر خطيبًا في الناس ليُعْلِن عن منهجه، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: أما بعد، أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

خلافة أبو بكر الصديق:

استلم أبو بكر خلافة الأمة في مرحلة دقيقة، فغياب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله شجع الكثير من القبائل العربية التي أعلنت ولاءها للإسلام إلى إعلان العصيان ومحاولة الخروج عن سلطة المدينة منهم من رفض دفع الزكاة في حين أعلن البعض الآخر ارتداده عن الإسلام وظهر العديد من مدعي النبوة في أرجاء مختلفة من الجزيرة العربية. عرف أبو بكر مباشرة أن مثل هذه الحركات تهدد وحدة الأمة والدين وكان رده مباشرة عن طريق مجموعة حملات عسكرية على القبائل المرتدة عرفت بحروب الردة.[5]

ورغم هذه الفتنة العظيمة فقد صمم أبو بكر أن ينفذ وصية رسول الله ع بإنفاذ جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول الله ليتوجه إلى بلاد الروم.

حروب الردة:

حروب الرّدّة (11هـ. – 13هـ./632م. – 634م.) هي الحروب التي حدثت بعد وفاة الرسول ع بسبب ارتداد غالبيّة العرب عن الإسلام، فلم يبقَ مواليًا لحكم أبي بكر سوى القبائل المحيطة بالمدينة بالإضافة إلى سكان المدينة، ومكة، والطائف. لقد قرّر الخليفة أبو بكر الصّدّيق مقاتلة جميع المرتدّين ولم يترك أحدًا منهم رغم توجّه بعض الصّحابة إليه أن يترك من امتنع عن دفعالزّكاة من القبائل ولكن هذا الرأي لم يلق قبولا من الخليفة الأول. فأرسل

الجيوش الإسلاميّة بقيادة عكرمة بن أبي جهل لمحاربة لقيط بن مالك في دبا فحاربه حتى قتل في المعركة. ومن ثم خالد بن الوليد لمحاربة مسيلمة بن حبيب. وانتصر خالد على مسيلمة في معركة اليمامة التي كانت من أقسى المعارك التي خاضها المسلمون.

جمع القرآن

خرج عدد كبير من حفظة القرآن والعلماء لجهاد المرتدِّين, فكان استشهادهم في معركة اليمامة بمنزلة إنذار للمسلمين حتى يحفظوا القرآن من الضياع، فأَمَر الصِّدِّيق زيدَ بن ثابت بجمعه فقال زيد: فوالله لو كلَّفني نقلَ جبل من الجبال ما كان بأثقل عليَّ مما كلفني به من جمع القرآن.

بداية الفتوحات الإسلامية

بدأت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة أبو بكر الصديق بإرسال خالد بن الوليد لفتح العراق وإرسال 4 جيوش لفتح الشامالجيش الأول بقيادة يزيد بن أبي سفيان والجيش الثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة والجيش الثالث بقيادة أبو عبيدة بن الجراحوالجيش الرابع بقيادة عمرو بن العاص ثم تحولت قيادة الجيوش في الشام إلى خالد بن الوليد الذي أتى بنصف جيشه إلى الشام وحقق عدة انتصارات منها خمسة في شهر واحد هو شهر صفر 13هـ.

تصل الأخبار لخالد بن الوليد أن الروم يتجمعون في مدينة تُسمى جلق بفلسطين فذهب إليها وتقابل الجيشان في أجنادين ودارت معركة من أكبر المعارك في تاريخ الإسلام. ثم استمرت الفتوحات وبدأ التجهيز لـ معركة اليرموك بين المسلمين والروم، واحتشدت القوَّات للمواجهة، قبل البدء في القتال كان أبو بكر قد تُوُفِّيَ يوم الاثنين (22 جمادى الآخرة عام13هـ/ 634م) إثر إصابته بالحمَّى، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودُفِنَ في بيت عائشة بجانب قبر النبي.

لم تستمر خلافة أبي بكر س إلا سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام استطاع خلالها إخماد حركة الردة والحفاظ على سلطة المدينة حتى تسلم عمر بن الخطاب الخلافة.

خلافة عمر بن الخطاب:

استمر حكم عمر بن الخطاب س عشر سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما تمت خلالها معظم الفتوحات الإسلامية خصوصافتح بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر لينتهي بذلك الوجود البيزنطي والساساني في كلا من بلاد الشام والعراق ومصر. كما أقتحم المسلمون غمار البحار فهزموا البيزنطيين في معركة ذات الصواري. مما جعل الدولة الإسلامية تتحول إلى إمبراطورية

مترامية الأطراف تشمل العديد من الأراضي والأقوام والشعوب. وتدفقت الأموال على المدينة المنورة وانتعشت الحياة الاقتصادية مما أثار فعليا مخاوف أمير المؤمنين الذي عرف بزهده وعدله. شكل سقوط الإمبراطورية الساسانية غيظاً شديداً لدى الفرس مما جعل أبو لؤلوة المجوسي يبادر بقتله.

فتح بلاد فارس:

بُشّر الرسول س بفتح فارس عندما كانوا في غزوة الخندق حيث استعصى على الصحابة صخرة وهم يحفرون الخندق فطلبوا مساعدة الرسول فضرب الضربة الأولى وبشّرهم بفتح الشام ثم ضرب الثانية وقال "الله أكبر أُعطيتُ فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الآن". بدأ فتح بلاد العراق وفارس بعد انتهاء حروب الردة مباشرةً وتم إرسال جيش تعداده 18,000 مقاتل بقيادة خالد بن الوليد والذي تمكن من فتح نصف العراق بدون أي هزيمة ووصل عدد معاركه التي لم يُهزم فيها إلى 18 معركة.

أمر الخليفة أبو بكر الصديق بانتقال خالد بن الوليد مع نصف الجيش.في بلاد فارس والعراق (أي 9,000 مقاتل) إلى بلاد الشام لمساعدة الجيوش التي هناك. انتقلت القيادة في الجيوش الإسلامية في فارس إلى المثنى بن حارثة وعلمت الجيوش الفارسية بمغادرة خالد فقامت بالهجوم على الجيش الإسلامي فاضطر للتراجع عن بعض المناطق المفتوحة.

أرسل عمر الإمدادات إلى المثنى بن حارثة حتى قطت المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية الحاكمة لبلاد فارس ثم جاءت معركة نهاوند التي سمَّاها المسلمون "فتح الفتوح"؛ لأنها فتحت الطريق أمامهم للقضاء على الدولة الفارسيَّة فتم الاستيلاء على كنوز كسرى وفُتحت بقية البلاد بدون عائق.

فتح بلاد الشام:

أصدر عمر أوامره بتعيين أبى عبيدة بن الجراح قائدًا عامًا للقوات الإسلامية في الشام، في نفس الوقت الذي أمر فيه بعزل خالد بن الوليد خوفاً من أن يفتتن به الناس.

شَهِدت جبهة الروم تطوُّرًا كبيرًا في أحداثها وخاصَّة بعد انهزام الروم في معركة اليرموك، فقد غادر هرقل بيت المقدس لمَّا عَلِم بانتصار المسلمين في اليرموك، واتَّجه إلى حمص؛ ليجعلها مقرًّا لأعماله الحربيَّة.

بينما اتجه المنهزمون إلى فِحْل، فوجَّه إليها أبو عبيدة بن الجراح قوَّة صغيرة، واتجه هو بجيشه إلى لفتح دمشق بناء على مشورة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي أخبره بأنها حصن الشام.

بعد فتح دمشق واصل أبو عبيدة تقدمه إلى حمص ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى القدس، فلما وصل إلى "الرملة" وجد عندها جمعًا من الروم عليه قائد داهية اسمه (الأرطبون) كان أدهى الروم، وكان قد وضع "بالرملة" جندًا عظيمًا و"بإيلياء" جندًا عظيمًا، فكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمرو قال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب- يعنى عمرو بن العاص.

لما فرغ من دمشق كتب أبو عبيدة إلى أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام أو يدفعون الجزية، وإلا كان الحرب بينهم، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، فركب إليهم في جنوده، وحاصر بيت المقدس، وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح.

هرب أرطبون إلى مصر وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يحيطه بذلك، فحضر عمر، وكتب بنفسه كتاب الأمان المسمى بـ العهدة العمرية وتسلم مقاليد بيت المقدس.

خلال اقامته في القدس، قدم عمر على حجر الأساس. الصخرة التي وفقاً للمؤرخات الإسلامية، قبل أقل من 20 عاماً في وقت سابق صعد منها الرسول ﷺ مع جبريل في رحلة السموات إلى السماء العلى؛ المعروفة باسم الإسراء والمعراج. وقام عمر بمسح النفايات والانقاض من الموقع المقدس، واكتشف أن الصخرة حجمها أكبر. وبعد نهاية التنظيف كشف عن الحجم الحقيقي للصخرة. بنى عمر السياج حولها وأمر ببناء مسجد مجاور لها.

فتح مصر:

بدأت علاقة مصر بالدولة الإسلامية بعد صلح الحديبية حيث أرسل الرسول الرسل إلى ملوك العالم في ذلك الوقت ليدخلوا في الإسلام ومنهم عظيم مصر المقوقس الذي أُرسل إليه حاطب بن أبي بلتعة ومضمون الرسالة هو الدخول في الإسلام. عُرضت فكرة فتح مصر على الخليفة عمر بن الخطاب من قِبل عمرو بن العاص فأرسله بجيش مكون من 8 آلاف مقاتل إلى مصر عام 641م/21هـ ففتح العريش ثم الفرما ثم حصن بابليون ثم الإسكندرية.

أُنشئت مدينة الفسطاط لتكون عاصمة مصر في عهد الدولة الإسلامية وظلت كذلك حتى تأسست الدولة الطولونية على يدأحمد بن طولون وأسس بمصر عاصمته الجديدة وهي مدينة القطائع. أصبحت مصر ولاية إسلامية وأصبح عمرو بن العاص هو والي مصر ثم تم تغييره في عهد الخليفة عثمان بن عفان بـ عبد الله بن أبي السرح.

إدارة عمر وسياسته:

أحصى أسماء الجنود الفاتحين ليجعل لهم رواتب تفي بمطالبهم، وأقام الدواوين، وقسم الدولة إلى ثماني ولايات هي: مكة، والمدينة، وفلسطين، والشام، والجزيرة الفراتية، والبصرة، والكوفة، ومصر، وعين واليًا لكل ولاية ينوب عنه في الصلاة وقيادة الجند، وإدارة شئون الحكم في الولاية. كما قام بترتيب البريد، وأتخذ من الهجرة بداية للتقويم الهجري.

وقد حدَّد نظاماً القضاء وأصوله في العهد فولّى بموجبه أبا موسى الأشعري، ويُعَدُّ عمر أوَّل مَن فصل السلطة القضائيَّة عن سلطة الحُكَّام، فكان القضاة يُعَيَّنُون منه مباشرة، ويتَّصلون به فيما يرَوْن من شئون المسلمين، دون تدخُّل من وُلاة الأقاليم، وأوجد عمر إلى جانب القضاء ما يشبه ديوان المحاسبة، فكان لا يُصدر قرارًا بمعاقبة أحد من وُلاته أو عمَّاله إلا بعد تحقيق دقيق.

الخلافة بعد عمر بن الخطاب:

فطن عمر إلى طريقة جديدة في اختيار الخليفة القادم تخلصه من مسؤولية الاختيار والتي ستكون تطبيقاً فريداً لمبادئ الشوربالتي يحض عليها الإسلام: ما كان من عمر إلا أن اختار مجموعة من ستة أشخاص (هم من بقي من العشرة المبشرين بالجنة)وفيهم عبد الله بن عمر يحضـر معهم مشيرًا فقط.وأمرهم أن يجتمعوا بعد موته في بيت أحدهم لاختيار خليفة المسلمين.[16]

كما أمر صهيبًا الرومي أن يُصَلِّيَ بالناس أثناء التشاور، حتى لا يُوَلِّيَ إمامةَ الصلاة أحدًا من الستة؛ فيصبح هذا ترشيحًا من عمر له بالخلافة، وأمر المقداد بن الأسود وأبا طلحة الأنصاري أن يراقبا سير الانتخابات.[17]

وحدَّد ثلاثة أيام لاختيار الخليفة لا يَزيدون عليها؛ حتى لا يحدث شقاق وخلاف بين المسلمين، ولذلك قال عمر لهم: لا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير.

خلافة عثمان بن عفان:

يقسم عادة المؤرخون خلافة عثمان بن عفان (اثنتا عشر سنة) إلى قسمين: ست سنوات هادئة وست سنوات في اضطرابات وفتن. الست سنوات الأولى توبعت فيها الفتوحات واستمر تقدم الجيوش الإسلامية في شمال أفريقيا وآسيا الوسطى، أما الست السنوات الأخيرة فقد تميزت بظهور الاضطرابات لاسيما في مناطق مثل العراق ومصر.

بدأت بوادر الفتنة في الظهور في أواخر عهده على يَدِ يهودي يُسَمَّى عبد الله بن سبأ، وكان أَوَّلُ ظهوره في اليمن عام (30هـ), حيث أظهر الإسلام, ولكنَّه طعن فيه وأخذ يقول أنه عين الولاة لقرابتهم وأنه حرق المصاحف، فأخذ يتنقَّل

بين بلاد المسلمين ناشرًا أفكاره وآراءه حتى كثر أتباعه.

الفتوحات في عهد عثمان:

كانت الفتوحات أيام عثمان بن عفان واسعة؛ إذ أضافت بلادًا جديدة في تركيا وقُبْرُص وأرْمِينِيَة، وأَجْبَرَت مَن نَقَضَ العهد إلى الصلح من جديد في فارس، وخراسان، وباب الأبواب، وصارت هناك فتوحات جديدة في بلاد السند، وكَابُل، وفَرْغَانَة. تمت في عهده توسعة المسجد النبوي عام 29 - 30 هـ، وقد أنشأ أول أسطول بحري إسلامي لحماية الشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين. وكان من أهم إنجازاته جمع كتابة القرآن الكريم الذي كان قد بدء بجمعه في عهد الخليفة أبي بكر الصديق. وجمعالقرآن الكريم في مصحف مكتوب برسمه إلى الوقت الحالي.

جمعه للقرآن الكريم في مصحف واحد:

أعظم أعمال عثمان أنه جمع المسلمين على مصحف واحد بعد أن بدأت القراءات في الاختلاف بسبب انتشار الإسلام في بلاد كثيرة وانتشار لهجات مختلفة فكان الخوف من اختلاف كتابة القران وتغير لهجته، فجمع عثمان المسلمين على لهجة قريش وهي لهجة العرب وكتب القرآن بلسان العرب ليصبح للمسلمين كتاب واحد هو المصحف العثماني.

مقتل عثمان:

اقتحم المتآمرون بيت عثمان وهجموا عليه وهو يقرأ القرآن، فأكبّت عليه زوجته نائلة لتحميه بنفسها، لكنهم ضربوا يدها بالسيف فقُطعت أصابعها، وتمكنوا من عثمان فضربوه بالسيف، فسال دمه على المصحف الذي كان يقرأ منه، ومات شهيدًا في صبيحة عيد الأضحى يوم الجمعة 18 من ذي الحجة سنة 35 هـ، ودفن بـالبقيع.

وكانت هذه شرارة نشوب فتن وحروب أخرى عديدة، مثل حرب الجمل، ومعركة صفين، وبداية ظهور الخوارج.

خلافة علي بن أبي طالب وفتنة مقتل عثمان:

الدولة الإسلامية خلال عهد علي بن أبي طالب س، اللون الأخضر الباهت يظهر المناطق التي لم تكن خاضعة لسيطرته بالكامل.

بويع علي بن أبي طالب للخلافة بالمدينة المنورة في اليوم التالي لقتل عثمان رضي الله عنه انتقل على رضي الله عنه إلى الكوفةونقل عاصمة الخلافة إلى هناك.

رأى علي س تأجيل تنفيذ القصاص حتى تستقر الأمور في المدينة، وكان كثير من الصحابة مع علي س في رأيه، ولكن كان هناك مجموعتان يرون رأيًا مخالفًا؛ فكانوا يرون وجوب القصاص الفوري من قتلة عثمان س ،

الفريق الأول: يضم السيدة عائشة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ي، والفريق كله من أهل الجنة كعلي س تمامًا.

الفريق الثاني: يضم معاوية بن أبي سفيان س والي الشام من قِبَل عثمان، والذي يعتبر نفسه ولي دمه؛ لأنه من بني أمية مثله.

موقعة الجمل:

في شهر جمادى الآخرة سنة 36هـ خرج الفريق الذي يضم السيدة عائشة والزبير وطلحة إلى البصرة؛ لتنفيذ القصاص في قتلة عثمان س، وللإصلاح بين المسلمين فقرَّرَ أن يتجه إلى البصرة ليردهم إلى المدينة، ولكنَّ الحسن بن علي رضي الله عنه نصحه بعدم الذهاب؛ لأن تواجه الجيوش لا بد أن يُسفِر عن حروب وخسائر دامية، ولكن عليًّا س صمَّم على الذهاب.

لاحت بشائر الصلح، وذَكَر الزبير بقول النبي ع: (لَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ..) وتذكر الزبير ذلك وأراد الصلح فلما علم المتآمرون ببوادر الصلح قاموا بالاختلاط بين الناس في المعسكرين، ويهيجوا الناس على القتال قبل أن يصطلحوا. التحم الجيشان واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة حتى قتل أمامه 70 رجلاً فأمر على رضي الله عنه فعقر الجمل حتى يهدأ القتال وأمر بحراسة السيدة عائشة حتى عودتها إلى المدينة. انتهى القتال وانتهت الفتنة جزئياً وبقت مشكلة معاوية.

معركة صفين:

في محرم سنة 37 هـ أراد على أن يعزل معاوية من على الشام فخرج إليه بجيشه وبعث إلى معاوية يبين حجته إلا أن هذا لم يجدِ، فدار القتال عند صفين، وقتل عمار بن ياسر ا على يد جيش معاوية وقد قال له النبي ع: (وَيْحَ عَمَّارٍ! تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ) وكاد معاوية أن يهزم فرفع جيشه المصاحف وطلب التحكيم.

شعر على أنها خديعة إلا أن الصحابة أصروا على قبول التحكيم فقبل به.اجتمع الحكمان في دومة الجندل ، كان عمرو بن العاص المفاوض من قبل جيش معاوية بن أبي سفيان، وكان أبو موسى الأشعري المفاوض من قبل جيش علي بن أبي طالب. فكتبت صحيفة التحكيم وتوقف القتال وأذن على رضي الله عنه بالرحيل إلى الكوفة، وتحرك معاوية رضي الله عنه بجيشه نحو العراق.

ظهور الخوارج ومقتل الإمام:

انشق مجموعة من جيش على (12000) يرفضون التحكيم من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، وكفروا علياً. ناظرهم على وفقهاء الصحابة لكنهم لم يسمعوا لأحد.

في سنة 38 هـ : اجتمع الخوارج في مكان يسمى النهروان، قاتلهم على بعد ما فشلت معهم الحجة فقتل منهم الكثير وفر منه طائفة وانقسموا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

في سنة 39 هـ: تصالح على ومعاوية على وقف القتال على أن يكون معاوية على الشام لا يتدخل فيها أمير المؤمنين.

في سنة 40 هـ: رصد الخوارج ثلاثة منهم ليقتلوا معاوية وعلياً وعمرو بن العاص بيد أنهم لم ينجحوا إلا في مقتل الإمام رضي الله عنه وأرضاه.

في 16 رمضان سنة 40 هـ: تربص اثنان من الخوارج بعلي س عند خروجه كعادته ليوقظ الناس قبيل صلاة الفجر للصلاة، فقتلوه عند باباً المسجد فصاح قائلاً: "فزت ورب الكعبة".

الدولة الأموية:

معاوية بن أبي سفيان الذي هو المؤسس الأول للدولة الأموية التي كونت أكبر إمبراطورية في التاريخ الإسلامي من وسط آسيا والصين حتى وسط أوروبا وحدود فرنسا وقد امتد حكم معاوية بن أبي سفيان عشرين عاماً.

أعاد حكم معاوية حركة الفتوحات الإسلامية بعد فترة من التوقف منذ اشتعال فتنة مقتل عثمان سنة 35 هـ، كما أنه نقلَ عاصمة الدولة من الكوفة إلى دمشق (بعد أن كان علي قد نقلها من المدينة إلى الكوفة). شهدت الدولة في عهده فترة من الاستقرار والرخاء، ومُتابعة الفتوحات بعد توقف طويل. وقد أنشأ نظاماً للشرطة لحماية وحراسته يُعيِّنه بنفسه، كما طوَّر ديوان البريد وأنشأ ديواناً جديداً لتنظيمه أكثر هو ديوان الخاتم.

عين معاوية عقبة ابن نافع قائداً على جيش المغرب فحقق به فتوحات كثيرة، كما أذن له في بناء مدينة القيروان بين سنتي 50 و55 هـ .

جامع القيروان، أسسه عقبة بن نافع عام 670م، وهو أقدم وأعرق مسجد في المغرب العربي.

جاء من بعده ابنه يزيد كان عهد مليئاً بالفتن والقلاقل والانقسامات، من أكبر الفتن في عهده مقتل الحسين بن علي ومحاولة قتل عبد الله بن الزبير على يد قتيبة بن مسلم الذي أرسله يزيد، فضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق حتى سقط جانب من جوانبها.

انتقلت الخلافة بعد ذلك إلى مروان بن الحكم الذي حارب عبد الله بن الزبير ا واعتبره من الخارجين إلا أنه فشل في إيقافه.

بعد وفاة مروان بن الحكم خلفه ابنه عبد الملك بن مروان تولي الحكم سنة 65 هـ والدولة في حالة انقسام وضعف فأعاد الوحدة وجمع كلمة المسلمين وقضي علي الفتن لذلك اعتبره المؤرخون المؤسس الثاني ، قام عبد الملك بن مروان بارسال جيش بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة لاستعادتها من يد عبد الله بن الزبير الذي كان قد جعلها عاصمة له ولخلافته لكنه هزم وقتل على يد الحجاج وأصبحت مكة تحت سيطرة الامويين. في عهده عُرِبت الدواوين،

ووضعت النقاط على الحروف في المصحف لتسهيل القراءة، كما أقام مسجد قبة الصخرة ببيت المقدس. اهتم عبد الملك بن مروان بنشر العلم والثقافة الإسلامية وعَمَدَ إلى استقطاب العلماء والمفكرين، وقد ازدهرت الدولة الأموية في عهده وارتفعت راية الإسلام في بلاد لم تكن إسلامية قبل الحكم الأموي.

بعد عبد الملك بن مروان خلفه ابنه الوليد بن عبد الملك الذي تابع مسير الدولة الأموية القوية متابعاً نهج أبيه في احتضان العلم والعلماء، ويذكر أن أبرز الأحداث في عهده، هو فتح الأندلس عام 95 هـ واتساع امتداد الدولة الأموية وصك العملة الأموية الإسلامية، وكانت رعايته للمدن الإسلامية كبيرة.

فتح الأندلس:

قام الأمويون بفتح الأندلس علي يد جيش طارق بن زياد وموسى بن نصير ليبدأ العصر الإسلامي في الاندلس الذي دام قرابة ثمانية قرون حتى سقوط مملكة غرناطة سنة 1492م. أسس الأمويون حضارة إسلامية قوية في مدن الأندلس المختلفة. وهي أطول وأهم الفترات التي استقر فيها المسلمون في الأندلس الدولة الأموية ونقلوا إليها الحضارة الأدب والفن والعمارة الإسلامية، وأثار الأمويون هي الطابع الغالب على الأندلس بأكملها ومن روائع ما خلفه الأمويون مسجد قرطبة.

وعلي الرغم من سقوط الخلافة الأموية علي يد العباسيين إلا أن خلافة جديدة كانت قد تأسست في الأندلس بقيادة عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الذي نشأ في بيت الحكم في دمشق واستطاع الهرب من بطش العباسيين ليقيم الدولة الأموية في الأندلس.

وقد كان لـ عبد الرحمن الداخل جهود حضارية متميزة فقد جمل مدينة قرطبة وأحاطها بأسوار عالية وشيد بها المباني الفخمة والحمامات على شاكلة الحمامات في دمشق والمدن الإسلامية والمدارس والمنتديات والمكتبات.

في عام 1492 سقطت غرناطة بعد حصارها من قبل قوات الملوك الكاثوليك وفي فترة لا تتعدى عشرة أعوام طُرد أكثر من 250 ألف مسلم ومنعوا من أخذ ممتلكاتهم, حيث لجأوا إلى شمال أفريقيا (ولا يزال العديد من العائلات التي ترجع أصولهم إلى مسلمين الاندلس يعيشون في شمال أفريقيا وخصوصاً بالمغرب وهم من المسلمين من أصول ايبيرية).
بعد وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك خلفه سليمان الخليفة الشديد وكان أبرز ما فعل تَقَرُبَه لأبن عمه عمر بن عبد العزيز بن مراون بن الحكم.

عمر بن عبد العزيز:

بعد سليمان خلفه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ثامن الخلفاء الأمويين عام 99 هـ جاءته الخلافة ولم يطلبها عُرف عنه الصلاح والتقوى والعدل والزهد ومخالطة العلماء واستشارهم في أمور الدولة اعتمد علي الحوار في إقناع المخالفين للعودة إلي جماعة المسلمين. نتج عن ذلك انتشار الرخاء والعدالة الاجتماعية حتى أن عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء لإعطائهم فلا يجدون. لُقب بخامس الخلفاء الراشدين لأنه أعاد للناس ما كان من سيرة الخلفاء الراشدين.
بعد وفاته تولي (6) من الخلفاء الضعاف، وكان أخرهم مروان بن محمد، الذي قُتل سنة 132 هـ و انتهت الخلافة الأموية.

الخلافة:

كان الخلفاء الراشدون يعيشون حياةً بعيدة عن الأبّهة، ولم تكن تختلف عن حياة أي مواطن عادي في عهدهم، فلم يكن أبو بكر على سبيل المثال، يتقاضى راتبًا، وكان عمر يستعين على الإنفاق على نفسه أبّان خلافته بما يربحه من التجارة. وعندما أعلن معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفةً، إثر مقتل الإمام علي بن أبي طالب، تأثّر بنظم الحكم التي كان البيزنطيون يطبقونها في الشام فعاش حياة الملوك، واتخذ عرشًا للملك، وأقام الشرطة لحراسته، ودفعه مقتل ثلاثة خلفاء من قبله إلى أن يبني مقصورةً خاصةً في المسجد يُصلي بها منفردًا عن الناس. وحين عُهد بولاية العهد إلى ابنه يزيد استحدث للدولة الإسلامية تقليدًا جديدًا، فقد أصبحت الخلافة ملكًا وراثيًا بعد أن كانت انتخابية تقوم على مبدأ المبايعة الحرّة.

الدولة العباسية:

اندلعت الثورة العباسية بقيادة أبو مسلم الخراساني، وهو قائد أموي انقلب على الأمويين، وبعد نصف قرن من الدعاية السرية، نودي بأبي العباس السفاح خليفة بعد وفاة أخيه إبراهيم بن محمد بن علي، وقد تعقب السفاح بقايا

الامويين في الشام وقتلهم واحدا بعد الآخر ولهذ لقب بالسفاح.

بعد نجاح ثورتهم، نقل العباسيون عاصمتهم من دمشقإلى بغداد، التي ازدهرت طيلة قرنين من الزمن، وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة للعلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية.

يُعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة العباسيين حيث قام بترسيخ أقدامها في العالم الإسلامي وأقام حضارة مزدهرة وسيطر بسرعة على معظم المناطق الإسلامية التي فتحها الأمويون ولكن فقدوا بعض المناطق منها الأندلس وبعض أجزاء من دول المغرب العربي أو غرب إفريقية منها موريتانيا، لكن عوضها العباسيون في عهد الخليفة هارون الرشيد بمناطق أخرى.

هارون الرشيد:

تُعْتَبَر خلافة هارون الرشيد بداية عصر القوة في الدولة العباسية (العصر الذهبي)، ويشمل ذلك العصر خلافة ابنه المأمون، ثم المعتصم بن الرشيد، فالواثق بن المعتصم؛ حيث تميز هذا العهد بقوة السلطة المركزية، وبالتنظيمات الإدارية، والإصلاحات. في عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، وتطورت العلوم خصوصًاالفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية. اعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن.

العصر العباسي الثاني:

بانتهاء العصر الذهبي يبدأ العصر العباسي الثاني، وتبدأ الدولة العباسية في الانهيار، بعد 100 سنة تقريباً من تأسيسها فقدت الدولة العباسية كل ما ملكته من المناطق ما عدا العراق بعد تمرد الولاة ومن أولهم أحمد بن طولون الذي استقل بمصر والشام والحجاز وأسس الدولة الطولونية وعاصره أن الترك والفرس قد سيطروا على الجيوش العباسية بعد أن فضلهم العباسيون علىالعرب فضاعت هيبة الخلافة واستقلت دول كثيرة عن الخلافة العباسية منها دولة السلاجقة والدولة الفاطمية والدولة البويهية والدولة الخوارزمية وغيرها من الدول.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه.

انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد وحرق مكتبتها، حيث قامت الخلافة مجددًا تحت زعامة المماليك في سنة 1261م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينيًا، في حين أن سلاطين المماليك المصريين كانوا هم الحكّام الفعليين للدولة. استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها.

الحضارة الإسلامية في عهد العباسيين:

لم تستمر حركة الفتوحات في عهد العباسيين بالقدر الذي كانت عليه في السابق، إلا أن عصر القوة العباسي شهد نهضة علمية بالغة القوة والتنوع في شتي المجالات، شهد هذا العصر ظهور علوم نقلية كثيرة مثل: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو واللغة، والبيان، والأدب. وزاد الاهتمام بالعلوم العقلية مثل: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافيا.وقد ازدهرت هذه العلوم كلها.

انتشر كذلك فن الروايات والقصص ذات العبر ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع والذي مرر من خلاله نقدًا لاذعًا لولاة الأمر على ألسنة حوار جرى في مملكة الحيوان.

ومن أبرز المنجزات العلمية في العصر العباسي، رسم أول خارطة للعالم بأسره على يد الإدريسي ومن العلماء العباسيين البارزين أيضًا، ابن الهيثم المولود عام 965 والذي ألف مائتي كتاب في شتي العلوم ولعلّ كتبه حول الأشعة وانكسارها وانعكاسها أبرز ميادين كتابته، وقد حاز مؤلفه «المناظر» الذي درس به الأشعة شهرة عالمية.

كما شهد هذا العصر ظهور المدارس الفقهية لأبي حنيفة ومالك ابن أنس والشافعي وأحمد ابن حنبل.

الدولة الفاطمية:

الدولة الفاطمية سلالة شيعية ، تنتسب للفرقة الإسماعيلية من الشيعة، من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية، أسسها في المغرب الأقصى عبيد الله المهدي سنة 296هـ. توالى على حكمها أبناء عبيد الله وأحفاده. استولى الفاطميون على شرق الجزائر، ثم تونس، ثم ليبيا ثم صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061 م.

دخل الفاطميون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشام. كما تنازعوا السيطرة على شمال إفريقية مع أموييالأندلس.وتمكنوا من إخضاع الحجاز والحرمين ما بين ما بين سنوات 965-1070 م.

فتح الفاطميين لمصر:

في سنة 358هـ أرسل المعز قائده جوهر الصقلي لغزو مصر؛ فنجح في فتحها وضمها إلى الدولة الفاطمية، فأنشأ مدينة القاهرةوأنشأ بها الجامع الأزهر. وبعد قليل انتقل الخليفة المعز إلى مصر، واتخذ من القاهرة عاصمة لدولته، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر مقراً للخلافة الفاطمية. توالى على حكم مصر في ذلك العصر عشرة خلفاء يمكن تقسيمهم إلى عصرين: عصر القوة ويشمل الخلفاء: العزيز بالله بن المعز، والحاكم بأمر الله بن العزيز، والظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم. بعد ذلك يبدأ عصر الضعف. الذي سيطر فيه الوزراء على الحكم.

انتهى العصر الفاطمي نتيجة لتنازع الوزراء في عهد الخليفة العاضد لدين الله الذي خلف الفائز، فقد تنازع شاور وضرغام على الوزارة ، واستنجد ضرغام بالقوات الصليبية الموجودة في بيت المقدس، بينما استعان شاور بنور الدين محمود سلطان دولةالزنكيين في الموصل الذي أرسل قائده أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي إلى مصر. وانتهى النزاع بمقتل الوزيرين وعزل آخر الخلفاء الفاطميين العاضد، واستقلال صلاح الدين بمصر.

ملامح العصر الفاطمي:

كان للفاطميين أثر كبير في التاريخ الإسلامي بشكل العام والمصري بشكل خاص، حيث تقدمت العلوم والفنون في عهدهم وكانت القاهرة حاضرة زمانها يفدها الطلاب من أنحاء العالم للتزود بالعلم والمعرفة وبنيت بها دار الحكمة والأزهر وانتشرت الكتب وجعل المال من أجل الشعراء والأدباء، وارتبطت الكثير من العادات والتقاليد والطقوس والقصص الشعبية بالدولة الفاطمية في مصر حيث ما زال التأثير الفاطمي يظهر في مصر أثناء شهر رمضان والأعياد. ومازل المصريون يتذكرون موكب حصان الخليفة المهيب الذي كان يخرج يوم المولد النبوي فيصنعون حلوى تشبه هذا الحصان.

الدولة الأيوبية:

الدولة الأيوبية، دولة إسلامية قوية أسسها صلاح الدين الأيوبي عُرفت بجهادها ضد الصليبين. تعتبر الدولة الأيوبية امتداد للدولة الزنكيية التي حكمت سوريا وشمال العراق. حكمها في عصر صلاح الدين السلطان نور الدين محمود، بعد وفاته استقل صلاح الدين بالدولة.

نور الدين محمود:

سار نور الدين محمود على نهج ابيه عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين. فكان يؤمن بأن طرد الصليبيين من بلاد الشام لن يتم إلا عن طريق تحقيق جبهة إسلامية قوية تمتد من العراق إلى مصر. حتى أنه أمر ببناء منبراً ليضعه في المسجد الأقصى بعد أن يقوم بفتح المدينة وقد نُقل هذا المنبر بالفعل إلى القدس بعد فتحها على يد صلاح الدين الأيوبي.

صلاح الدين الأيوبي:

دخل صلاح الدين في خدمة نور الدين محمود سلطان حلب الذي استعان به وبعمه أسد الدين شيركوه في بسط نفوذه على مصر واستطاع بذكائه أن ينهي الخلافة الفاطمية في مصر. بعد موت نور الدين أعلن صلاح الدين نفسه سلطاناً على مصر وحصل على موافقة الخلافة العباسية. واستطاع توسيع ملكه ليضم الشام وشمال العراق، كما ضم بلاد الحجاز واليمن وصلت حدود دولته غرباً إلى شرق تونس كما امتدت إلى بلاد النوبة.

صلاح الدين وجهاده ضد الصليبين:

أصبحت مصر في عهده محور تطلعات العالم الإسلامي في حركة الجهاد المعلنة ضد الصليبيين حيث هزمهم في معركة حطينواسترد بيت المقدس، وصمد للجحافل الصليبية التي جاءت إلى الشرق بقيادة ثلاثة من أعظم ملوك أوربا في ذلك الوقت هم:ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وفريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا.

نجح الأيوبيون في القضاء على المذهب الفاطمي في أنحاء دولتهم. وقد أقام صلاح الدين حكومة عادلة ونشر الأمن وأنشأ المساجد والمدارس وبدأ في إنشاء قلعة القاهرة الحالية وأحاط القاهرة والفسطاط بسور واحد. وقد أوقف صلاح كثيراً من الأوقاف على المدارس والمساجد وخاصة على بيت المقدس والمسجد الأقصى كما أوقف أوقافاً على العلماء والفقراء من أهالي الإسكندرية اعترافاً بفضلهم عليه عندما ناصروه أثناء حصار الصليبيين له فيها. توفي صلاح الدين بدمشق وعمره 55 عاماً وقد ترك دولة قوية قهرت الصليبيين إلا أنها انقسمت بعده دويلات مستقلة يحكمها ابنائه.

تصدى الملك الكامل لجيوش الصليبيين التي غزت دمياط في الحملة التي عرفت بالحملة الصليبية الخامسة، ثم خلفه ابنه الصالح نجم الدين أيوب الذي تصدى لجحافل الصليبيين التي جاءت بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، فاحتلت دمياط وحاصرت المنصورة، وتوفي الصالح قبل معركة المنصورة، فأخفت زوجته شجر الدر خبر الوفاة وقادت الجيش مع أمراء الجيش من مماليك الصالح وهم عز الدين أيبك وأقطاي وقطز وبيبرس حتى تحقق النصر وأُسر لويس التاسع.

ثم تسلطن توران شاه بن الصالح ولكنه قُتل على يد شجر الدر ومماليك أبيه، وتسلطنت شجر الدر وتزوجت من عز الدين أيبك، ثم لم تلبث أن قتلته لتنفرد بالحكم، ولكن مماليك أيبك قتلوها ونصبوا ابنه المنصور سلطاناً لتنتهي بذلك دولة الأيوبيين ويبدأ العصر المملوكي.

دولة المماليك:

المماليك هم الرقيق الذين كانوا يؤسَرون في الحروب. وقد اعتمد عليهم السلاطين الأيوبيين في دفاعهم عن عروشهم، فكانوا يأتون بالرقيق ويسلمونه إلى المختصين ليعلّموهم القراءة والكتابة وحفظالقرآن الكريم. وإذا ما شبّوا، بدأوا في تعليمهم فنون الحرب والرمايةوالفروسية وينتقل بعدها المملوك من رتبة إلى رتبة إلى أن يبلغ أمير الأمراء أو قائد الحرس الملكي أو قائد الجيش. أشهر من أتى بالمماليك ورباهم هو السلطان نجم الدين أيوب الملقب بالملك الصالح .

قامت دولة المماليك بعد انهيار الدولة الأيوبية إذ تولت شجر الدرحكم مصر بعد وفاة نجم الدين أيوب إلا أنها لاقت معارضة شديدة داخل مصر وخارجها لذلك تزوجت من عز الدين أيبك لكي يكون هو في الصورة غير أن أيبك انقلب عليها بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد، فغضبت شجر الدر وأسرعت في تدبير مؤامرتها للتخلص من أيبك، بعد مقتل أيبك قبض عليها مماليكه وحملوها إلى امرأة عز الدين أيبك التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة، فقاموا بضربها بالقباقيب علي رأسها وألقوا بها من فوق سور القلعة، حتى انها لم تدفن إلا بعد عدة أيام.

سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية:

دخل المغول بغداد، وقتلوا المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وقتلوا أولاده وجميع أهله، وأحدثوا مجزرة عظيمة استمرت 40 يوماً ثم أخذوا مكتبة بغداد وكانت أعظم مكتبة في العالم فألقوها في النهر وقيل أنهم عبروا عليها بخيولهم إلى الضفة الآخري من كثرتهم.

قطز وعين جالوت:

أثار سقوط بغداد الذعر في الشام ومصر، وكان الحكم في مصر ضعيفاً بعد وفاة شجر الدر إذ كان على عرش مصر نور الدين علي بن أيبك وكان صغيراً في السن وكان الواصي عليه سيف الدين قطز. فقام العالم العز بن عبد

السلام في مصر فأعلن عزل نور الدين، وأعلن الخلافة لقطز بشرط أن يعلن الجهاد. أظهر قطز شجاعة نادرة أمام رسل المغول، ولم يهتز لأقوال التهديد والوعيد. بل قام وقتل رسل هولاكو وعلق رؤوسهم علىباب زويلة مما زاد من ثقة الناس به وبقدرتهم على تحدي التتار.

أرسل قطز المنادين في القاهرة ومختلف مصر للجهاد في سبيل الله ولمحاربة المغول. في 3 سبتمبر 1260 م تمكن قطز من الانتصار على جيش المغول في عين جالوت (تقع بالقرب من فلسطين) مما أوقف تقدم المغول في المشرق الإسلامي نهائياً.

قُتل قطز بعد عودته إلى مصر وأغلب الروايات تقول أن الظاهر بيبرس هو الذي قتله. تولى بعده بيبرس وقاتل التتار في عدة معارك ونقل الخلافة العباسية إلى مصر لتصبح دولة المماليك هي الخلافة الإسلامية في العالم وأقام حضارة عمرانية كبيرة في مصر. تولى بعد بيبرس سلاطين من المماليك أقوياء من أشهرهمالمنصور سيف الدين قلاوون و الأشرف صلاح الدين خليل و الناصر محمد بن قلاوون الذين قضوا على الوجود الصليبي فيالشام نهائياً.

بدأت فترة شديدة الضعف في دولة المماليك بعد أن اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ولم تعد التجارة تمر بمصر وبدأت في طريقها للسقوط. سقطت دولة المماليك تحت أقدام العثمانيين بعد معركتي مرج دابق وكان العثمانيون بقيادة سليم الأول والمماليك بقيادة قنصوة الغوري والريدانية التي كان فيها المماليك بقيادة طومان باي وسقطت مصر وأصبحت ولاية عثمانية بعد أن كانت مركزاً لعدة دول إسلامية مهمة ومركز للخلافة العباسية المملوكية ولتصبح الدولة العثمانية هي الخلافة الإسلامية في العالم.

الدولة العثمانية:

قامت الدولة العثمانية على يد السلطان الغازي عثمان بن أرطغل في منطقة الأناضول وقامت بضم آسيا الصغرى تحت قيادتها وبدأت محاولة فتح القسطنطينية إلى أن فتحها محمد الفاتح لتبدأ في مرحلة التوسع والقوة ويدخل محمد الفاتح اليونان ويصل إلى حدود إيطاليا وكان يجهز لفتحها لكنه مات في 3 مايو عام 1481م، الموافق 4 ربيع الأول سنة886هـ.

فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح:

بدأ محمد الثاني عهده بهذا الفتح الذي منحه لقب محمد الفاتح في التاريخ. كان فتح هذه العاصمة الرومانية العتيدة هدف المسلمين منذ العهد الأموي، ثم غاية العثمانيين منذ أن عبروا بحر مرمرة إلى الشاطئ الأوربي.

القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية أصبحت عاصمة الإمبراطورية الجديدة وبذلك انتهت البقية الباقية للإمبراطورية البيزنطية، وقد أطلق عليها العثمانيون الآستانة (إسلام بول) أي مدينة الإسلام. وحالياً يطلق عليها إستانبول.

شَّرَ محمد أُمَتَهُ ع، فقال: " لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"؛ رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده.

أكمل الفتوحات السلطان سليم الأول الذي سيطر على دولة الصفويين في العراق وفارس وأسقط دولة المماليك في مصر وأخذ أملاكها بما فيها الحجاز وتهامة وبذلك لُقب بخادم الحرمين وأمير المؤمنين وأول خليفة من العثمانيين.

بعد موت سليم الأول قام سليمان القانوني يبدأ عهد ازدهار شامل للدولة، كان سليمان مناصراً للفنون، وإصلاح الأنظمة التعليمية والتشريعية وأصبحت عاصمتها القسطنطينية تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي، ولكنه أعطى امتيازات للفرنسيين مما أدى إلى ازدياد نفوذهم داخل الدولة وضعفها فيما بعد، فقد طمع الفرنسيين في غزو مصر والشام لذا تعاون العثمانيون مع إنجلترا لإخراج الفرنسيين من مصر.

بعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، ينتهي عصر الدولة العثمانية الذهبي، بعده أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئًا، على الرغم من أنها عرفت فترات من الانتعاش والإصلاح فيما بعد إلا أنها لم تكن كافية لإعادتها إلى وضعها السابق.

محمد علي باشا:

تولى محمد علي (مؤسس مصر الحديثة) حكم مصر وانفصل عن الدولة العثمانية استطاع أن ينهض بمصر عسكريًا وتعليميًا وصناعيًا وزراعيًا وتجاريًا، مما جعل من مصر دولة ذات ثقل في تلك الفترة، إلا أن حالتها تلك لم تستمر بسبب ضعف خلفائه وتفريطهم في ما حققه من مكاسب إلى أن سقطت دولته في 18 يونيو سنة 1953 م، بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في مصر.

كانت طموحاته العسكرية بلا حدود، خاض في بداية حكمه حربًا داخلية ضد المماليك والإنجليز إلى أن خضعت له مصر بالكامل، ثم خاض حروبًا بالوكالة عن الدولة العثمانية في جزيرة العرب ضد الوهابيين وضد الثوار اليونانيين الثائرين على الحكم العثماني، كما وسع دولته جنوبًا بضمه للسودان.

بعد ذلك تحول لمهاجمة الدولة العثمانية حيث حارب جيوشها في الشام والأناضول، مما دفع العثمانيين إلى التحالف مع أوروبا لإيقاف محمد علي وذلك في عام 1840م وتوريث أولاده ولاية مصر؛ في تلك الفترة فقدت الدولة

العثمانية معظم أراضيها في أوروبا بسبب دعم الأوربيين للثورات الداخلية بالسلاح وبدأت الدولة في مراحل السقوط.

السلطان عبد الحميد:

تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم في ظروف دقيقة من حياة الدولة العثمانية، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية، ووجد السلطان نفسه في وطن مشبع بالثورة والاضطراب.

الفصل الثالث

تاريخ العالم الأسلامي

تردد في الآونة الأخيرة مصطلح (صدِام الحضارات) وأخذ هذا المصطلح يطفو على سطح الوسائل الإعلامية المسموعة والمرئية والمطبوعة وكأن العالم قاب قوسين أو أدنى من حرب كونية ثالثة سوف تأتي على السلالة البشرية بأكملها وراح البعض يرّوج لفكرة أن الدين سيكون شرارة هذه الحرب..

وما أن طغى مصطلح (صدِام الحضارات) على السطح، حتى ظهر مصطلح آخر وهو بمثابة الند أو الضد للمصطلح الأول وهو مصطلح (حوار الحضارات) ويرى أصحاب هذا المصطلح أو التيار أن الحضارات لا تتصارع ولا تتصادم وإنما تتكامل وتتبلور بحيث تعتمد كل حضارة على ما عند الحضارات الأخرى من علوم ومعارف وثقافات وعقائد، ويرى أصحاب هذا التيار أيضاً أن الأديان لا يمكن أن تكون بذاتها وسيلة للصدِام والمجابهة بل هي بذاتها وسيلة لتقارب الإنسان من أخيه الإنسان. وكما أن الدين وسيلة للتفاهم فإن الحضارة أيضاً هي خير وسيلة للتعبير عن احتياجات ورغبات الإنسان في العيش الهانئ دون اللجوء إلى لغة العنف مع الآخر.

غير أن الشاعر يقول:

أرى خلال الرماد وميض نـــار		**وأخشى أن يكون لهم ضرام**
فإن النـــار بالعـودين تذكـى .		**وإن الحـرب مبدؤها كلام**

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في (الإسلام والغرب): من الموضوعات التي طرحت نفسها وبحدة خاصة بعد 11 سبتمبر/ أيلول 2001، موضوع علاقة الغرب بالعالم الإسلامي. ففي الغرب يسألون لماذا يكرهنا المسلمون؟!.

وفي محاولة الإجابة عن هذا السؤال يقولون : "إن المسلمين يحقدون على الغرب بسبب الاستقرار السياسي والتقدم التكنولوجي والاقتصادي اللذين يتمتع بهما، وإنهم وقعوا أسرى الماضي بدلاً من بذل الجهد اللازم ليلحقوا بركب الحداثة والتقدم، ولذا أخفقوا في تحديث مجتمعاتهم، الأمر الذي يزيد من عدائهم للغرب ".

وفي المقابل يحاول بعض المسلمين تفسير العداء الغربي بالقول إن اللوبي الصهيوني -وأحيانا اليهودية العالمية- هي التي تحرض الغرب ضدنا. وهناك

من يرى أن الغرب لا يزال صليبياً يحاول تحطيم الإسلام وإذلال المسلمين وربما تنصيرهم.

ثم يقول: وقد يكون هناك شيء من الصحة في كل هذه العناصر، ولكنها قاصرة عن تفسير ظاهرة في شمول وعمق التوتر المتصاعد في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي.

اتساع نطاق الدين العام في دول العالم الإسلامي

(المشكلة والحلول)

مقدمة:

يعرف الدين العام لإحدى الدول في تاريخ معين بأن مجموع ما حصلت عليه تلك الدولة من قروض داخلية وخارجية وفوائدها حتى ذلك التاريخ [1]. وتحتاج الدول لعقد هذه القروض العامة من أجل سد فجواتها الاقتصادية على الصعيدين المحلي (عجز الموازنة) والدولي (عجز ميزان المدفوعات). فمن ناحية قد لا تكفي الموارد المحلية في تغطية حاجات الإنفاق العام، حينئذ تلجأ الدولة إلى عقد القروض الداخلية في شكل أذون وسندات الخزانة العامة يكتتب فيها أفراد المجتمع ومؤسساته المالية لمزاياها المتعددة كأوعية ادخارية واستثمارية من حيث الضمان والسيولة والربحية . كما قد تلجأ الدولة للاقتراض من الجهاز المصرفي عن طريق زيادة المعروض من النقود[2] . ومن ناحية أخرى قد تعاني الدولة من فجوة في الصرف الأجنبي نتيجة لوجود عجز شبه مستمر في ميزان مدفوعاتها حيث تزيد قيمة مدفوعاتها لتغطية وارداتها (المنظورة وغير المنظورة) عن متحصلاتها من صادراتها.

يترتب على عقد القروض العامة الداخلية والخارجية التزامات محددة على الدولة المدينة تتمثل في سداد تلك الديون (استهلاكها) خلال فترة زمنية محددة، إضافة إلى دفع فوائدها المتفق عليها عند عقدها. وتظهر مشكلة الدين العام حين تتراكم تلك الديون وفوائدها سنة بعد أخرى حتى تصل إلى مستويات حرجة (مقارنة بكل من حجم الناتج المحلي الإجمالي و ميزانية النفقات وقيمة الصادرات) [3].

ويخلق وجود الدين العام واتساعه بمرور الوقت مشاكل اقتصادية أساسية للمجتمع، لعل من أهمها التضخم (حال عقد القروض العامة الداخلية) [4] مما يؤدي إلى عرقلة مسيرة التنمية الاقتصادية والإخلال بالعدالة التوزيعية ومنها أيضا التبعية الاقتصادية (بل والسياسة أحياناً) في حال القروض الخارجية [5].

وحالياً تواجه الغالبية العظمى من بلدان العالم الإسلامي مشكلة اتساع الدين العام بما تسببه من مشاكل اقتصادية أساسية مرتبطة باستغلال الموارد

والاستقرار والأمن الاقتصاديين والتبعية للدول الدائنة ومضمناتها على مستويات المعيشة لشعوبها.

أهمية الدراسة:

البحث عن الصيغ المقبولة إسلامياً في التمويل لعلاج مشكلة العجز في الموازنة العامة واتساع الدين العام حتى تتوافق مع الشريعة الإسلامية الغراء. وخصوصاً مع استمرار احتياج الدول الإسلامية إلى الأموال من أجل بناء وتوسيع المرافق العامة وسد الاحتياجات الطارئة وتحتاج هذه إلى تحريك موارد تحويلية جديدة محلياً ودولياً.

المساهمة في أسلمة الاقتصاديات الوطنية في البلدان الإسلامية من خلال تطبيق الشريعة في الأنشطة التمويلية والبنكية والاقتصادية، من أجل تحريك الموارد الاقتصادية للاستخدام العام بطريقة تتفق مع المشاعر والعقيدة والعواطف لأبناء الأمة

المشكلة:

يتبين من الجداول المرفقة في الملحق لهذه الدراسة أنه:

ابتداء من عام 1982 أصبح عجز الموازنة ظاهرة عامة في الاقتصاد العربي، في جدول (1)، وقد أدى التدهور المتواصل في الإيرادات النفطية، واستمرار معدلات النمو العالية في الإنفاق الحكومي إلى بروز عجز الموازنة في البلدان النفطية. وبالمقابل فإن العجز في البلدان العربية غير النفطية والذي كان صفة ملازمة لاقتصادها طوال الفترة محل الدراسة، قد بدأ بالانخفاض مع زيادة الإدراك بضرورة تكييف الإنفاق المحلي مع الإيرادات المحلية. أما على مستوى كل دولـة عربية على حدة فيظهر جدول(2) متوسط العجز أو الفائض في الموازنة كنسبة من GDP. يتضح من الجدول أن جميع البلدان غير النفطية كانت تعاني من عجز في الموازنة منذ مطلع السبعينات. وازداد العجز بالقيم المطلقة وكذلك كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي خلال سنوات السبعينات وبلغ في المتوسط 9ر4% من GDP ثم ارتفع إلى 13% خلال النصف الأول من الثمانينات حيث ساهمت عدة عوامل في تفاقم مشكلة العجز في مجموعة البلدان العربية، ومن أهمها انخفاض المساعدات الخارجية وبخاصة من البلدان العربية النفطية، وازدياد معدلات الإنفاق العام وبالذات على القطاع العسكري، ونشوب الحرب العراقية / الإيرانية والحرب الأهلية في لبنان . ونتيجة للسياسات الاقتصادية التي تضمنت إجراءات مالية تعسفية انخفضت نسبة العجز في تلك الدول .

أن الديون العامة الخارجية تتزايد بصورة مستمرة لكل من تركيا، ماليزيا، ونيجيريا، وإندونيسيا وباكستان. حيث تواجه إندونيسيا وباكستان مشاكل كبيرة تتمثل في وقوعهما في مصيدة الدين الخارجي الخبيثة، فهماً، عادةً، يقترضان مجددا من أجل خدمة الديون القائمة، وأصبح الدين العام غير قابل للسيطرة عليه بكل منهما، كما تواجه نيجيريا صعوبات كبيرة في خدمة ديونها الخارجية، وتتكرر بصفة دورية إعادة الجدولة لديونها. وأخيراً لعل إيران هي إحدى الدول الإسلامية القليلة التي انخفض فيها الدين الخارجي خلال الفترة 1998-2001 من 14 مليار $ إلى 7,2 مليار $ وأدى ذلك إلى تخفيض نسبة الدين العام إلى GDP من 75,1 % إلى 29,2 %.[6]

كيف تم تمويل العجز؟

التمويل الخارجي: ويأخذ أحد أشكال المنح والقروض الميسرة أو التفضيلية، والاقتراض التجاري، والمنح قد تكون نقدية أو عينية، سلع غذائية مثلاً، يستخدم ثمنها في سداد العجز، والقروض الميسرة أو التفضيلية تمنح بمعدلات فائدة أقل من تلك السائدة في السوق، وقد تمنح هذه من قبل دول أو مؤسسات دولية وغالباً تكون مرتبطة بمشروعات محددة. والقروض التجارية تأتي بشكل رئيسي من البنوك التجارية الأجنبية.

التمويل المحلي: ويأخذ أحد الأشكال الثلاث التالية:

الاقتراض من المصرف المركزي وهذا التمويل للعجز ليس له تأثير انكماشي مباشر على الطلب الكلي، لأن البنك المركزي ليس مضطراً لتخفيض الائتمان في مكان آخر حتى يقوم بتوسيع الائتمان للحكومة. ومن هنا يقال إن الاقتراض من البنك المركزي له أثر توسعي في الطلب الكلي.

الاقتراض من البنوك التجارية: لن يكون لهذا التمويل أثر في الطلب الكلي إذا كان لدى البنوك احتياطات زائدة . أما إذا لم يكن لها احتياطات فيكون ذلك على حساب القطاع الخاص وهذه يخلق أثر المزاحمة؛ فيخلق ضغوطاً تزيل الأثر التوسعي للزيادة في الإنفاق الحكومي وبدلاً من الحد من الائتمان للقطاع الخاص تلجأ هذه البنوك إلى البنك المركزي لمساعدتها والنتيجة تشبه الحال التي تحصل فيها الحكومة على هذه الائتمان من المصرف المركزي مباشرة.

الاقتراض من القطاع الخاص خارج نطاق البنوك . ويكون لهذا التمويل أثرا انكماشيا في الطلب الكلي و يصدق هذا الشكل خاصة على الدول النامية التي تكون فيها الموارد المالية لدى القطاع الخاص غير البنكي محدودة.

وتوضح البيانات المتاحة أن مجموعة الدول النفطية اعتمدت في تغطية العجز بعد عام 1982 على السحب من الاحتياطي الحكومي نسبة إلى إجمالي العجز

بشكل مطرد بين عامي 1983- 1987، كما لجأت إلى مصادر التمويل المحلية من البنوك التجارية والقطاع الخاص من خلال بيع الأوراق المالية وفي عام 1993 ظل الاعتماد على المصادر الخارجية محدوداً. أما الدول غير النفطية فتمت تغطية العجز فيها أساساً من خلال التمويل الداخلي الذي كان ولا يزال يشكل القسم الأكبر من مصادر التمويل (75%)

وذلك نتيجة تضاؤل مصادر الاقتراض الخارجي مع بدء تدهور العائدات النفطية، وارتفاع أسعار الفائدة في الأسواق العالمية. ولكن بعد ذلك ونتيجة لتطبيق برامج التصحيح الهيكلية فقد أمكن لبعض هذه الدول خفض أو إعادة الجدولة مما أدى ارتفاع مساهمة التمويل الخاص إلى إجمالي التمويل الكلي منذ عام 1988.

وأخيراً توضح البيانات الملحقة بالدراسة انخفاض إجمالي حجم الدين العام الخارجي للدول العربية مجتمعة سنة 2000 مقارنة بعام 1995 بمقدار 5ر15 مليار $ وترافق ذلك مع ارتفاع قيمة *GDP*،و صادرات السلع والخدمات في الدول العربية ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل لعل أهمها:

برامج الإصلاح الاقتصادي والهيكلي التي اتبعتها هذه الدول وكان لها الأثر الإيجابي في استقرارها الاقتصادي الذي حفز جانب العرض من السلع والخدمات وساعد على ارتفاع قيمة الاستثمارات الأجنبية المباشرة منها والتي استأثرت فيها العربية السعودية ومصر بالنصيب الأكبر نسبياً مقارنة بالدول الأخرى حيث بلغت الاستثمارات الأجنبية المباشرة عام 1998 في السعودية ومصر 2400 مليون و 1076 مليون دولار على التوالي.

ارتفاع أسعار النفط العالمية و كميات تصديره من هذه الدول.

ارتفاع قيمة الدولار الذي يتم تسعير المبادلات النفطية مقابل العملات الدولية الأخرى ومن ثم ارتفاع القيمة الإجمالية للصادرات العربية.

وهكذا توضح الجداول والبيانات أن أزمة الدين العام الداخلي والخارجي هي أزمة حقيقية للدول الإسلامية عربية وغير عربية وأنه على الرغم من التحسن النسبي في بعض مؤشرات الدين إلا أن مشكلة المديونية لم تحل بعد بل هي مرشحة للاتساع بمرور الوقت، خصوصاً في ظل العولمة الاقتصادية وفي ظل محاولات الدول الغربية باسم الإرهاب السيطرة على مقدرات الدول الإسلامية، ولذا يتوقع أن تستمر وتتسع مشكلة الدين العام وخصوصاً الخارجي للدول الإسلامية إلا إذا بدأت تلك الدول بالتفكير في استراتيجية جديدة خلاقة، ومبدعة للقضاء على تلك المشكلة عن طريق البحث في التراث الإسلامي عن مقومات النهضة الاقتصادية والتفاعل مع مشكلات الاقتصاد والبيئة الإسلامية.

فرضية البحث:

يمكن علاج مشكلة اتساع الدين العام في بلدان العالم الإسلامي، بالتدريج، وعلى مدى فترة زمنية ممتدة في البيئة الإسلامية، شرط الالتزام بأحكام الشريعة في مجال جباية الأموال العامة وإنفاقها.

بعد هذه المقدمة سنعرض لما تبقى من هذه الدراسة في النقاط التالية:

2- الإطار العام للدراسة

3- تحليل اقتصادي لعلاقات العجز والدين العام والاقتصاد القومي

4- أسباب ونتائج اتساع الدين العام في الدول العام.

5 – الحلول المقترحة لأزمة الدين العام.

6- خلاصة وتوصيات.

الإطار العام للدراسة:

قبل أن نقدم تحليلاً لأسباب ونتائج وحلول مشكلة اتساع الدين العام للبلدان الإسلامية دعنا نعرض الملاحظات التالية:

ترجع مشكلة اتساع نطاق الدين العام هذه في أسبابها المباشرة إلى وجود الفجوات الاقتصادية في كل من الموارد المحلية و في الصرف الأجنبي، وفي ظل فلسفات اقتصادية رأسمالية كانت أم اشتراكية تبتعد عن قواعد الشريعة الإسلامية في مجالي جمع الأموال العامة وإنفاقها.

للوصول إلى حلول لمشكلة اقتصادية أو اجتماعية في البيئة الإسلامية ينبغي دراسة تلك المشكلة بصورة متكاملة مترابطة باعتبارها جزء من الصيغة الإسلامية العامة للحياة. تلك الصيغة التي تبنى على أساس توفر البيئة أو التربة أو الأرضية التي أعدها الإسلام للمجتمع. هذه التربة تجمع بين العقيدة (التي تحدد نظرة المسلم إلى الكون) والمفاهيم (والتي تعكس وجهة نظر الإسلام في تفسير الأشياء على ضوء النظرة العامة التي تبلورها العقيدة)، وأخيراً العواطف والأحاسيس وهي ما يبثها وينميها الإسلام لدعم المفاهيم. وهكذا فان العواطف الإسلامية وليدة المفاهيم الإسلامية وهي بدورها موضوعة في ضوء العقيدة الإسلامية. لذلك يمكن القول – في ضوء ما سبق – أنه لا يجوز أن تدرس مشكلة اقتصادية مجزأة بعيدة عن أجزاء النظام الأخرى كأن تدرس مثلاً مشكلة اتساع الدين العام بصورة منفصلة عن أحكام الإسلام في المضاربة والتكافل العام والتوازن الاجتماعي والربا. كما لا ينبغي دراسة الاقتصاد بوصفه مستقلاً عن الجوانب السياسية والاجتماعية للمجتمع لأن جميعها تكون الصيغة الإسلامية العامة التي تنظم شتى نواحي الحياة.

الدين هو الإطار الشامل لكل أنظمة الحياة في الإسلام، يعالج الإسلام كل جانب من جوانب الحياة عن طريق المزج بينه وبين الدين ويصوغه في إطار الصلة الدينية للإنسان بخالقه وآخرته. وهذا الإطار هو الذي يجعل النظام الإسلامي قادراً على الحياة ويضمن تحقيق الأهداف الاجتماعية للإنسان (7) .

يرجع عدم نجاح السياسات الاقتصادية التنموية في العديد من بلدان العالم الإسلامي في حقيقته إلى انخفاض هامش الحرية السياسية، وحقوق الإنسان والديمقراطية المتاح بتلك البلدان بما يترتب عليه من سيطرة للاعتبارات السياسية على الاعتبارات الاقتصادية الفنية، كالتعيينات في الوظائف القيادية الإدارية وكالاهتمام بالمشروعات الاقتصادية العملاقة والتي لا تتوفر لها فرص النجاح (مقارنة بالمشـروعات الصغيرة) نتيجة لعدم الاهتمام بدراسات الجدوى، أو المظهرية التي تسود تلك الدراسات، إضافة إلى مظاهر البذخ التي لا تتناسب بحال عند بناء وتجهيز المرافق العامة والمباني الإدارية الملحقة بها، وكل ذلك يسبب نزيفا مستمرا للموارد الاقتصادية المحلية، ويجعل من الصعب على تلك المشروعات استرداد الأموال التي استثمرت فيها، ويفاقم من مشكلة الدين العام .

يساهم الفساد الذي يظهر في القطاع العام وفي الحكومة في عديد من بلدان العالم الإسلامي (الذي تتعدد مظاهره من الرشوة إلى التربح غير المشروع والتهرب الضريبي) في عدم نجاح السياسات الاقتصادية ويقلل من ثقة أفراد المجتمع حول مدى إمكانية نجاح الحكومة في تنفيذ برامجها، كما يضيع على الدولة (في حال التهرب الضريبي) الفرصة في سداد فجوة الموارد المحلية دون اللجوء إلى الاقتراض الداخلي وما ينجم عنه من مشاكل الدين العام.

ما كانت مشكلة اتساع نطاق الدين العام في بلدان العالم الإسلامي مشكلة تراكم للديون وفوائدها خلال فترة زمنية طويلة في الماضي، فإن علاجها يتوقع أن يستغرق وقتاً طويلاً أيضاً، ولذا لا يتوقع التخلص كلية من هذه المشكلة في سنوات محدودة حتى في حال اتخاذ خطوات إصلاح جدية.

تحليل اقتصادي للعجز في الموازنة العامة والدين العام والاقتصاد القومي:

باستخدام النموذج الكينزي في الاقتصاد الكلي (متطابقة الدخل القومى) عندما لا يتساوى جانبي الموازنة العامة، أي عندما لا تغطي الحصيلة الضريبية (T) الإنفاق الحكومي (G) بالضبط فإنه إما أن تزيد الحكومة من مخزونها الصافي من الأصول المالية (NFA) NET FINANCIAL ASSETS أو الأصول المالية FA مطروحاً منها الالتزامات أو الخصوم المالية (FL) في الموازنة نتيجة تحقيقها فائضاً في الموازنة (BS)، أو تقلل منه إذا كان هناك عجز في الموازنة (BD) وهكذا يمكن كتابة قيد الموازنة العامة على النحو التالي [8]

$$G + L = T + B$$

..حيث L = الإقراض، b الافتراض، أو

$$G + \Delta FA = T + \Delta FL$$

حيث ΔFA = الزيادة في الأصول المالية، ΔFL = الزيادة في الالتزامات المالية ومنها:

$$BS = T - G$$

$$= \Delta FA - \Delta FL$$

$$= \Delta NFA$$

ولما كانت معظم الحكومات تحقق عجزاً في الموازنة فإنه يفضل كتابة قيد الموازنة في حال العجز على النحو التالي:

$$BD = \Delta FL - \Delta FA$$

$$= \Delta NFL$$

وبالطبع ينبغي على الحكومة أن تمول العجز السنوي في موازنتها من خلال الاقتراض من سوق الأوراق المالية بإصدار أذون وسندات الخزينة (Treasury bills and Treasury bonds) أو من خلال الاقتراض من البنك المركزي (أي زيادة كمية النقود)[8] فإذا اعتبرنا أن تغطية عجز الموازنة يتم أساساً بواسطة أذون وسندات الخزانة وأهملنا تداول تلك الأذون والسندات في سوق الأوراق المالية(للتبسيط) فإنه يمكننا اشتقاق العلاقة بين عجز الموازنة BD والدين العام على النحو التالي:

$BD_t = \Delta D = D_t = D_t\text{-}1.$

أي أن الاختلاف بين الدين العام في نهاية الفترة t مقارنة بالفترة t-1 ينتج عن عجز يتحقق في نهاية الفترة t أو BD_t، والحقيقة أن علاقة العجز في الموازنة وحجم الدين العام علاقة ذات اتجاهين وذلك لأن حجم الدين العام يؤثر بدوره أيضاً في حجم عجز الموازنة، وذلك لأن الفائدة على الدين ينبغي دفعها أيضاً. ومن الناحية التحليلية تعد مدفوعات الفائدة للدين مدفوعات تحويلية من قبل الحكومة لحاملي السندات، وهكذا كلما كان حجم الدين العام كبيراً كلما انخفض مقدار صافي الضرائب (الضرائب – المدفوعات التحويلية), وللتأكيد على دور الفائدة في تحديد حجم العجز والدين العام نفصل بند الفائدة (i) كأحد مكونات عجز الموازنة على النحو التالي:

$BD_t = (G\text{-}T)T + D_{t\text{-}1}$

توضح هذه المعادلة أن الدين العام لن يتوقف عن النمو طالما كان هناك عجز في الموازنة، وأن هذا العجز سيتحقق إلا إذا زادت المتحصلات الضريبية عن الإنفاق العام بأكبر من مدفوعات الفائدة على الدين القائم . وبصورة عامة كلما كان الدين العام كبيراً كلما زادت مدفوعات الفائدة، ومع بقاء الأشياء الأخرى على حالها، كلما زاد عجز الموازنة.

وبهذا المنطق يتبين لنا أن الدين العام يغذي نفسه بنفسه، وكلما زاد حجمه كلما كان تخفيض حجم الإنفاق العام وزيادة المتحصلات الضريبية المطلوبة لضبط وإيقاف نمو هذا الدين أمراً صعباً ومؤلماً، حتى يصل الأمر إلى نمو متسارع في الدين العام بصورة لا يمكن معها ضبطه أو التحكم فيه.

كما يتبين لنا أيضا من المعادلة (6) أنه حتى إذا تحقق توازن أولي في الموازنة فان الدين العام يمكن أن يتسارع نتيجة لمدفوعات الفائدة على الدين المتراكم وتمويلها بواسطة القروض الجديدة. فإذا انتقلنا من هذا التحليل الساكن Static إلى التحليل الديناميكي Dynamic ولأكثر واقعية نجد أن الإيرادات الضريبية تنمو بصورة متواصلة في حال تحقق النمو الاقتصادي مما يسمح للحكومة (في حال ضبط وترشيد الإنفاق العام) بتحقيق فوائض في الموازنة . وهكذا فانه مع تزايد الدخل القومي (Y) تزيد المتحصلات الضريبية بنسبة t (ty) سنويا، وهذا الفائض الأولي يمكن أن يتراكم ويقلل من عجز الموازنة بأكبر من تأثير نمو المدفوعات التحويلية و يحد ذلك من نمو الدين العام .

وهكذا فإن التغيرات المقصودة في كل من G و T تجعل العجز ينمو أو ينخفض عبر الزمن معتمدا على المحددات الأساسية الثلاثة التالية :

حجم الدين العام الموروث.

متوسط أسعار الفائدة على السندات الحكومية وأخيراً.

معدل نمو الدخل القومي.

وتؤكد الدراسات القياسية (9) التي تربط بين العجز والدين العام والمتغيرات الاقتصادية الأخرى على وجود علاقة سالبة بين كل من معدل النمو في الناتج المحلي الإجمالي والعجز في ميزان المدفوعات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي ومقدار العجز في الموازنة (نسبة مئوية من إجمالي النفقات) ووجود علاقة طردية (موجبة) بين متوسط أسعار الفائدة على السندات ومقدار العجز في الموازنة (كنسبة مئوية من إجمالي النفقات). كما تبين تلك الدراسات أيضاً على وجود علاقة سالبة بين مقدار العجز والنمو الاقتصادي حيث يمتص العجز في الموازنة الموارد المالية التي كان يمكن استثمارها في القطاع الخاص.

ويلاحظ أن التمييز بين المتغيرات الاسمية والمتغيرات الحقيقية يضيف بعداً مهماً لعجز الموازنة والدين العام وهو تأثير التضخم، فخلال فترات التضخم ترتفع معدلات الفائدة الاسمية لتعكس المسموحات المرتبطة بالتضخم ويطلق على ذلك " بأثر فيشر Fisher Effect والذي ينشأ عندما يطالب المقرضين بتعويضات مقابل النقص في القيمة الحقيقية لرأسمالهم على مدى فترة القرض. ولكن تأثر فيشير يقع فقط على معدلات الفائدة الحالية فقط ولا ينطبق على

السندات الحكومية التى تم شراؤها في فترات سابقة . وهكذا تجد الحكومة أن متحصلاتها الضريبية ستزداد نتيجة التضخم ولكن مدفوعاتها على سندات القروض العامة ستظل على ما هي عليه (باستثناء القروض الجديدة) . وبلغة أخرى فإن التضخم يترك الإيرادات الضريبية الحقيقية على ما هي عليه ولكن يقلل من القيمة الحقيقية للدين العام . ويطلق على تآكل الدين العام أحيانا " بضريبة التضخم Inflation Tax ؛ لأنه يحول الثروة الحقيقية من مالكي السندات الحكومية إلى الحكومة.

وهكذا إذا اعتبرنا أن P_t هو مستوى الأسعار في نهاية الفترة t ، وأن D_t هو الدين الإسمي في نهاية الفترة t فإن حجم ضريبة التضخم (F) هو ببساطة ذلك المقدار الذي ينبغي أن يزيد به الدين العام الاسمي القائم للحفـــاظ على قيمته الحقيقية أو:

$$P_t – P_{t-1} /P_{t-1}] D_{t-1} \ ] \ .= \ F \quad .$$

$$P_tD_t\text{-}1 \quad =$$

حيث P_t هو معدل التضخم خلال الفترة t . في هذه الحال فان الزيادة الحقيقية في الدين العام ليست ببساطة مرآة لعجز الموازنة. ولكن هي عجز الموازنة مطروحا منها ضريبة التضخم أو

$$\Delta RD_t \ = \ BDt - \ F$$

وهكذا كلما كان معدل التضخم مرتفعاً وحجم الدين العام مرتفعاً كلما أمكن زيادة العجز الحكومي الاسمي دون زيادة حقيقية في الدين. ففي السبعينات من القرن الماضي حققت العديد من الدول عجزا اسميا في الموازنة بينما كانت في الحقيقة تحقق فائضاً فيها بسبب ضريبة التضخم العالية
يتبين أيضا من معادلة (6) أن هناك متغيرين أساسيين يحددان إلى درجة كبيرة ظاهرة انفجار الدين (عدم إمكانية السيطرة عليه ويطلق عليها مصيدة الدين العام أو كرة الثلج) عندها لا يمكن سداد خدمة الديون القائمة إلا من خلال الإقتراض الجديد الذي يدخل الدولة المدينة في حلقة خبيثة لا يمكن السيطرة فيها على الدين العام وهما سعر الفائدة المتوسط على السندات الحكومية ومعدل نمو الناتج المحلي الإجمالي، ويتحقق ذلك إذا كان سعر الفائدة الاسمي أكبر من معدل نمو الدخل المحلي الإجمالي الاسمي. وقد وضع البعض هذه الظاهرة (انفجار الدين العام) في شكل رياضي آخر على النحو التالي:

$$BDt \ = [\ (i – r) / (i + r)] * \ bt\text{-}1$$

حيث r هي معدل النمو في الناتج المحلي الإجمالي الاسمي. وأن D_{t-1} نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي في السنة t-1 وأن Dt هي نسبة العجز الأول إلى الناتج المحلي الإجمالي.

bt_{-1} هي نسبة الدين العام إلى الناتج المحلي في السنة t-1

ومن النموذج (9) يتضح أن خطر انفجار حجم الدين العام يتوقف على علاقة i , rه ، فإذا كانت $i > r$ فان ديناميكية الفوائد وحدها تؤدي إلى زيادة حجم الدين العام.

إن السبب الرئيس لاتساع مشكلة الدين العام – كما يوضح النموذج الرياضي هو الفائدة (أو الربا) وذلك لأن معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي يتقلب، عادة، بسبب ظروف الاقتصاد الدولي المتغيرة بين الركود والانتعاش، بينما معدل الفائدة على الديون العامة يحدد مسبقا عند عقد القرض.

أسباب اتساع نطاق الدين العام في الدول الإسلامية ونتائجه:

أولاً: الأسباب:

عرفنا أن سبب عجز الموازنة واتساع نطاق الدين العام في الدول الإسلامية هو وجود الفجوات الاقتصادية إلا أنها بدورها تعكس أسباباً أخرى لعل من أهمها الظروف الاقتصادية غير الملائمة التي تواجهها الدول النامية متمثلة في معدلات الفائدة العالية وتدهور شروط التجارة الخارجية[10] والركود الاقتصادي العالمي الذي ينتاب الاقتصاد العالمي كل فترة زمنية إضافة بالطبع إلى مشاكل الإدارة الاقتصادية المحلية والمتمثلة في انعدام الكفاءة والفساد، كما إن نمو أعباء خدمة الدين بمرور الوقت تجعل عملية الإصلاح المالي أكثر صعوبة.

ثانياً: النتائج:

لعل أهم تكاليف الدين العام هي التكاليف الإنسانية والاجتماعية والتي تجعل ملايين الأفراد في الدول المدينة يصابون بالإحباط واليأس من تحسن الأحوال في المستقبل، كما يضيع على ملايين أخرى من الأطفال بتلك الدول فرص السعادة والتمتع بالحياة وذلك دون جريمة اقترفوها سوى أنهم ولدوا في مجتمعات فقيرة. ومن التكاليف العامة الأخرى لأزمة الدين العام (خصوصاً الخارجي) هي تدهور نوعية الحياة داخل الدول المدينة إضافة إلى عدم استقرار المجتمع سياسيا وانخفاض معدل النمو الاقتصادي للدول المتقدمة أيضاً.

أما التكاليف الاقتصادية للديون الخارجية فتتمثل في تدفقات لرأس المال صافية خارجية لتمويل الدين العام، فقد أصبحت الدول المدينة منذ الثمانينات مصدرة صافية لرؤوس الأموال من أجل خدمة ديونها. وهذا بالطبع يقلل من فرص النمو لها فخلال الفترة من 1965 - 1980 كان معدل النمو المتوســط للدول

الأكـــثر مديونية 3ر6 % انخفض خلال 1980 -1990 إلى 7ر1% سنوياً كما تدهورت شروط التجارة من 118 إلى 101 بين عامي 1985 و 1990، فإذا عرفنا أن هناك تزايدا للسكان فان الزيادة في الناتج المحلي الإجمالي (7ر1 %) انقلبت، في الحقيقة، إلى انخفاض صافي في الناتج المحلي الإجمالي لكل نسمة، وهذا يعوق فرص النمو الاقتصادي في المستقبل، وقد انعكس ذلك على حجم الاستثمار لكل نسمة فقد انخفض مثلا بنسبة 40% خلال عامي 87 و 1980 .

إن خطورة أزمة الدين أن لها دينامية تدعم نفسها بنفسها وتجعل الدول المدينة تواجه مشكلة مصيدة الديون كما أن زيادة الفقر في الدول النامية يقلل من فرص النمو في الدول المتقدمة لأن الدول النامية ستقلل من وارداتها من الدول المتقدمة لتستطيع سداد الدين العام .

يسبب تمويل العجز الحكومي وسداد مدفوعات خدمة الدين العام ارتفاعا في الأسعار (التضخم) من خلال آلية خلق النقود بصورة مباشرة لتغطية العجز، لأن الحكومات تكون أحيانا غير قادرة على تفعيل برنامج الضرائب أو إدارتها بصورة فعالة من أجل الحصول على الإيرادات الكافية أو نتيجة زيادة حجم القاعدة النقدية نتيجة تمويل العجز من خلال الاقتراض من القطاع الخاص وارتفاع سعر الفائدة (أثر المزاحمة) Crowding out Effect [(11)] وتحرص السلطات النقدية على المحافظة على حجم القاعدة النقدية في حدود معينة من أجل عدم التأثير في الاستثمار، ولذا فالبديل الآخر أمامها هو اللجوء إلى البنك المركزي من أجل زيادة الإصدار النقدي الجديد. واضطرار السلطات النقدية إلى الدفاع عن معدل الفائدة المستهدف يسبب نمو القاعدة النقدية ثمناً عليها قبوله.

دعنا نبين تأثير تمويل عجز الموازنة بواسطة كل من الضرائب والاقتراض من البنك المركزي والاقتراض من الجمهور والمؤسسات الاقتصادية (أو الدين العام):

التمويل بالضرائب:

إذا تمت زيادة الضرائب على الأرباح لتمويل العجز فإن مؤسسات الأعمال تنقلها العبء إلى المستهلكين في شكل ارتفاع في الأسعار وهكذا يتحمل المستهلكون (العاملون) هذه الضرائب، بالمقابل قد يطلب العاملون زيادة في أجورهم تعادل الارتفاع في الأسعار ويؤدي هذا إلى تخفيض هامش الربح للمؤسسات الخاصة على الأجور والمرتبات. وهذا بدوره سيؤدى إلى انخفاض معدلات الاستثمار والذي يمول من خلال إعادة توظيف واستثمار الأرباح.

وقد أكدت هذه النتائج دراسة أجريت في بريطانيا حيث توصلت إلى أن ارتفاع الضرائب لها انعكاس سلبي في استثمارات القطاع الخاص، وأن كل زيادة في الإنفاق العام مقدار 5 % تؤدي إلى نقص في معدلات النمو والناتج القومي بمقدار 1% [12]. ويؤدى انخفاض معدلات الاستثمار إلى تدهور معدلات نمو الإنتاجية ومن ثم فان التقدم التقني أو الاستثمار في المعدات والآلات الحديثة سيؤدي إلى تفاقم مشكلة البطالة بدلا من زيادة معدلات الإنتاج . وقد لوحظ أيضا أن زيادة معدلات الأجور التي يكون سببها ارتفاع معدلات الضرائب تؤدي إلى زيادة تكلفة رأس المال. وأشارت الدراسة أيضا إلى أنه إذا كانت الزيادة في معدلات الأجور أكبر من الزيادة في معدلات أسعار الفائدة، فإن رجال الأعمال والقطاع الخاص قد يختارون الاستثمار في آلات ومعدات حديثة كثيفة رأس المال مما يسبب زيادة معدلات البطالة .

التمويل بالاقتراض من البنك المركزي:

يقوم البنك المركزي، عادة، بتمويل عجز الموازنة بزيادة المعروض من النقود. ويتضمن هذا ضريبة مستترة تتمثل في ارتفاع معدلات التضخم، بما يصاحبه من زيادة معدلات الضرائب التي تقتطعها الحكومة من دخل الفرد. (في الحالات التي تؤدي فيها ارتفاع معدلات التضخم إلى زيادة معدلات الأجور، مما قد يدخل المكلف في فئة داخلية أعلى ينطبق عليها معدل ضريبي أعلى. وتظهر سريعاً الآثار الاقتصادية السالبة للتمويل التضخمي على الاقتصاد الوطني.

التمويل بالاقتراض العام (الدين العام):

تأخذ القروض العامة أما شكل سلف وتسهيلات مالية تقدمها البنوك الوطنية أو مؤسسات الإقراض الدولية، وأما على شكل سندات حكومية تصدرها الدولة للاكتتاب فيها والآثار المحتملة لتمويل الإنفاق العام بهذه الوسائل تعتمد بالضرورة على الأغراض المخصصة لها: أي على ما إذا كانت زيادة الإنفاق العام هي في الحقيقة زيادة في معدلات الاستثمار أو في الإنفاق الجاري فقط.

ويسبب التمويل من خلال الدين العام (على الأرجح) آثاراً طاردة أو مزاحمة Crowding out effects .

فالأموال التي اكتتب بها القطاع الخاص والأفراد كان بالإمكان توجيهها نحو الاستثمار أو بناء المنازل أو زيادة الاستهلاك الذي من شأنه تحفيز الإنتاج. وهكذا فإن جزءاً لا يستهان به من "السيولة" الخاصة قد تم امتصاصها في القنوات الحكومية مما قد يكون له آثاراً انكماشية، ولتشجيع الاكتتاب في الدين العام قد تلجأ السلطات العامة إلى رفع أسعار الفائدة على السندات الحكومية. والنتائج المحتملة لذلك هي انخفاض الاستثمار

الخاص وارتفاع معدلات التضخم . ولكن هذه الطريقة مرغوبة من قبل السلطات السياسية مقارنة بالضرائب لأنه يمكنها بهذه الطريقة زيادة الإنفاق العام دون زيادة الضرائب، ودون خضوعها لتساؤل المؤسسات التشريعية أو لمحاسبتها. ولقد بينت إحدى الدراسات التطبيقية أن الإنفاق العام بالدول العربية يبدو ذو أثر سلبي في الإنفاق الاستثماري وأخيرا توضح نتائج تلك الدراسة أن كل زيادة في حصة الإنفاق العام من الناتج المحلي الإجمالي بمقدار 100% تؤدي إلى انخفاض في الإنفاق الاستثماري الخاص بمقدار 27% وهذا يدل على أثر تزاحمي قوي.

الحلول المقترحة لأزمة الديون العام:

مقدمة:

إن علاج العجز المستمر في الموازنة العامة وسداد الدين العام سيكونان في صالح الاقتصاد الوطني عموماً والمستثمرين والمستهلكين خصوصاً على المدى المتوسط والبعيد. فمن ناحية يؤدي علاج العجز (والذي يمثل اختلالاً هيكلياً في الاقتصاد الوطني) إلى استعادة الثقة في الاقتصاد الوطني، وفي قدرته على التعامل من جديد مع أسواق النقد الدولية للحصول على التسهيلات الائتمانية التى يحتاجها، ويستعيد قدرة الدولة على جذب الاستثمارات الأجنبية المباشرة، كما يحمي سعر صرف العملة المحلية من التدهور، ويحفظ الاحتياطات الدولية للبلد من الاستنزاف ويقضي على الحاجة لتصفية الاستثمارات والأصول الخارجية التي يمتلكها البلد والتي تعد مصدراً مهماً من مصادر الدخل. كما تحقق عودة الاستقرار النقدي والسعري ثقة المواطنين في عملتهم وتشجعهم على استخدامها للادخار ويقلل من ظاهرة الدولرة Dolarization ويحد من هروب الثروات إلى الخارج. كما يقلل علاج العجز في الموازنة من الحاجة للاستدانة من الخارج ويحد من معدل الديون الخارجية، بل ويخفضها في المستقبل، كما يقلل أيضاً من الحاجة إلى الاقتراض الداخلي، ويخفض أعباء الدين التي يتحملها الجيل الحاضر والأجيال المستقبلية.

أما من ناحية المستثمرين ورجال الأعمال فإن تخفيض سعر الفائدة الناجم عن تقليل الحاجة للاقتراض الداخلي سيخفض من تكلفة رأس المال (الثابت والعامل) مما يشجع على زيادة الاستثمار والتوسع في خطط الإنتاج، ويشجع هذا المستهلكين على شراء المزيد من السلع الاستهلاكية المعمرة، كما أن تخفيض حاجة الدولة لفرض المزيد من الضـرائب يكون في صالح المستثمرين والمستهلكين على السواء.

أما من ناحية المستهلكين فإن علاج العجز يحقق لهم القضاء على التضخم، ومن ثم حماية مدخراتهم من التآكل، وحماية دخولهم الحقيقية من التدهور بسبب عودة الاستقرار للقوة الشرائية للنقود. كما يشجع انخفاض أسعار الفائدة على منح المستهلكين تسهيلات ائتمانية لتمويل شراء السلع المعمرة، وأخيراً فان انخفاض الضـرائب على الاستهلاك نتيجة سداد العجز في الموازنة يرفع من مستوياتهم المعيشية.

وأخيراً إذا كان العجز مصحوباً بمشكلة الركود التضخميStagflation في الاقتصاد الوطني فإن علاجه سيخفض من معدل التضخم، وهذا يساعد بدوره على تحسين مناخ الاستثمار في القطاعات المستوعبة للعمالة مما يخفض بدوره من معدلات البطالة.

وجدت أزمة الديون العامة وخصوصا الخارجية منها اهتماماً دولياً واقترحت عدة صيغ لحلها تتمثل أهمها في مبادلة الدين بالملكية أو بالدين أو بالطبيعة، ولكن الآليات والحوافز لتنفيذ تلك الصيغ ما تزال غير كافية حتى الآن. بالنسبة لمبادلة الدين بالملكية " Debt-Equity Swap " يتم شراء الشركات ومؤسسات الأعمال في الدول المدينة للبنوك بخصم كبير ومنها مبادلة الدين العام بالدين Dept for Debt Swap حيث تقدم عروض السندات مخفضة لإعادة الدفع. ويتضمن هذا إعادة شراء الدين الخارجي بتخفيض كبير بواسطة الدولة المدينة وفاء للدائنين الذين لا يرغبون في الاستمرار في الاستثمار ويرغبون في تخفيض خسائرهم. وبالطبع يشترط هنا موافقة الدول الدائنة. أما الصيغة الأخيرة للمبادلة فهي مبادلة الدين بالطبيعة Debt for Nature Swap حيث تعد الدولة المدينة المجتمع الدولي بالحفاظ على الطبيعة مقابل قيام جماعات خارجية بشراء ديون تلك الدول.

وهناك عدة صيغ عملية أخرى اقترح أحدها وزير المالية الأميركية James Becker وتتمثل في ضرورة تنظيم إعادة دفع الدين الخارجي من قبل كل دولة مدينة على حدة وفقاً لظروفها، مما يسهل عليها دفع الديون. أما برادي Brady فقد اقترح صيغة أخرى عام 1989 تتمثل في إنقاص حجم الديون بنسبة 20% بشرط ضمان البنك الدولي وصندوق النقد الدولي قيام الدولة المدينة بدفع ال80% الباقية في المستقبل. وقد حصلت كوستاريكا ثم المكسيك ومراكش، الفلبين، وفنزويلا على اتفاقات تتعلق بخطة برادي، ولكن تتم الموافقة، عادة، على أساس دراسة كل حالة على حدة .. والذي لا شك فيه أن فكرة تخفيض الدين العام عن طريق إلغاء نسبة معينة منه فكرة جيدة وتعطي أملاً وإشارة إلى الاتجاه الصحيح لحل المشكلة[13].

والآن دعنا نعرض لأهم الحلول المطروحة لمشكلة اتساع نطاق الدين العام، وهى الحلول المقترحة بواسطة المؤسسات الدولية، والدول المدينة، وأخيراً الحل الذي تقترحه الدراسة وهو تفعيل صيغ التمويل الإسلامية على النحو التالي:

أولاً: الحلول المقدمة من المؤسسات الدولية:

وهى حلول البنك الدولي والصندوق وما يرتبط بها: نادى باريس ونادي لندن: أو ما يطلق عليه المنهج الانكماشي، يستند هذا المنهج على فكرة أن الاقتصاد الرأسمالي قادر على أن يتوازن ويستقر آليا وبشرط احترام الحرية الاقتصادية وآليات السوق والمنافسة الحرة وابتعاد الدولة عن التدخل في النشاط الاقتصادي. ووفقا لهذا المنهج سبب عجز الموازنة هو تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي ومحاولتها تحقيق الرفاهية الاقتصادية، لذا يتطلب الأمر من البلد المدين للخارج من أجل إعادة جدولة ديونه أن يوافق على برنامج الصندوق للتثبيت الاقتصادي Stabilization Program كشرط أولي للإصلاح المالي [14].

وفنياً يرى الصندوق والبنك الدولي أن وجود الفجوات الاقتصادية يعود إلى وجود فائض طلب في الاقتصاد الوطني يفوق المقدرة الحقيقية للعرض الكلي في الداخل، وهو ما يسبب تضخما ومديونية خارجية. ويرجع هذا الطلب الفائض إلى الطموحات الائتمانية والاستهلاكية التي تفوق موارده. ولذا ينبغي القضاء على هذا الفائض وإعادة النظر في السياسات الاقتصادية من خلال تخفيض الطلب الكلي (سياسات إدارة الطلب) خصوصاً الإنفاق الجاري والاستثماري ويقدم الصندوق حزمة جاهزة من السياسات المالية على النحو التالي:

تخفيض النفقات العامة: ويتم ذلك من خلال:
خفض النفقات التمويلية ذات الطابع الاجتماعي من خلال إلغاء الدعم السلعي.
خفض الأجور ووضع حد أقصى لها أو تجميدها وإلغاء الوظائف الشاغرة والمؤقتة وتجميد التعيين.
التخلص من الدعم الاقتصادي لوحدات القطاع العام من خلال تصفية الوحدات والخصخصة والإدارة التجارية ورفع الأسعار.
ضغط الإنفاق الاستثماري وخصخصة الأنشطة في مجالي الصحة والتعليم.
امتناع الدولة عن الدخول في الأنشطة الاقتصادية التي يستطيع القطاع الخاص القيام بها مع السماح له بدخول مجالات البنية التنموية .
رفع الدولة يدها عن توظيف الخريجين من الجامعات والمعاهد الدراسية.
زيادة الموارد العامة: ويتم ذلك من خلال:
زيادة أسعار الطاقة خصوصاً المرتبطة بالاستهلاك العائلي مع زيادة رسوم استخدام المرافق العامة وإعادة النظر في فلسفة التعليم المجاني.
زيادة فئات بعض الضرائب غير المباشرة على السلع الضرورية.
الخصخصة عن طريق نقل الملكية من العام إلى الخاص.
وضع سقف للائتمان المصرفي المسموح به للحكومة في القطاع العام ووضع حد أقصى لعجز الموازنة كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي.
ويرسل الصندوق بعثات إلى الدولة المدينة كل ستة أشهر للتأكد من التزام الدولة بتنفيذ مقترحات الصندوق، فإذا لم تنجح الوسائل السابقة يقترح الصندوق سد العجز من خلال طرح أذون وسندات الخزانة العامة وترتبط فاعلية هذه الوسيلة بطبيعة العجز، فإذا كان مؤقتا نجحت وإن كان دائما وهيكليا ستؤدى هذه الوسيلة في الأجل الطويل إلى زيادة العجز في الموازنة العامة وزيادة الدين العام، وزيادة عدم العدالة في توزيع الدخول، مما يعنى أن هذا المنهج من الناحية العملية والتطبيقية يسبب مشاكل اجتماعية وسياسية خطيرة .

ثانياً: الحلول المقدمة من الدول النامية:

يستند هذا المنهج إلى فكرة العجز باعتباره خللا هيكليا في الاقتصاد الوطني تتحمل مسئوليته كل من الدول المدينة والدائنة، ولذا يتطلب رؤية متكاملة شاملة لعلاجه، وانه بتحقيق التنمية الاقتصادية تزداد قدرة الدولة المدينة المالية مما يمكنها من سداد العجز، وإن تكلفة السداد يجب أن توزع بعدالة بين أفراد المجتمع على أساس القدرة على الدفع. أما أهم المقترحات لحل مشكلة الديون الخارجية في ظل هذا المنهج فتمثل فيما يلي:

ينبغي أن ينصب محور الاهتمام في معالجة أزمة الديون الخارجية على النقاط التالية:

تفعيل عملية النمو الاقتصادي في الدول شديدة المديونية.

التوزيع الكفء والموضوعي لذلك النمو الاقتصادي المحقق على كافة قطاعات الاقتصاد الوطني.

إعادة إدماج تلك الاقتصاديات في النظام الاقتصادي الدولي .

وحينئذ فقط وبعد تحقيق النمو المستدام Sustainable Growth يمكن أن يأمل المجتمع الدولي والدول الدائنة في إعادة دفع ديون تلك الدول بمعدلات معتدلة.

ينبغي إعادة تقويم سياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ذلك أن شرط التعديل الهيكلي الذي تطالب به الدول المدينة والذي تفرضه هاتان المؤسستان قد يكون ملائما لعلاج مشاكل مؤقتة في ميزان المدفوعات ولكن غير منتج في

حال المشكلات المزمنة والتي تتسم بها أزمة المديونية الحالية حيث أن تدفق رؤوس الأموال في هذه الحقبة من الدول المدينة أكبر من تدفق رؤوس الأموال إليها. إن الدول المدينة تحتاج من البنك والصندوق إلى سياسات أكثر إبداعية، تثبيت وتخفيض معدلات الفائدة بدلا من زيادتها (نتيجة إعادة الجدولة) أو اكتشاف طرق منع هروب رؤوس الأموال من الدول النامية.

ينبغي أن تدرك الدول الدائنة والمجتمع الدولي بوضوح انه بالنسبة للدول شديدة المديونية أن الجانب الأكبر من ديونها لا يمكن استرداده كاملا. وإنما لا بد من إسقاط نسبة من الديون 50% مثلا، ويصبح التساؤل المهم هو كيف تخصص الديون التي لا تدفع من قبل الدائنين. أما الإصرار على قيام الفقراء بدفع ديونهم مع الظروف الحالية من الفقر والمعدلات المنخفضة للتنمية فلن يخدم أي من الأغنياء (الدائنين) أو الفقراء في الأجل الطويل.

و أخيراً هناك مسألة المسؤولية التي ينبغي أن يقر بها المجتمع الدولي وهي أن أزمة الدين في الحقيقة أحد أعراض النظام الاقتصادي العالمي الذي كان يسمح بالنمو مع وجود الفقر في آن واحد . إن الدول المتقدمة عليها مسؤولية خلق الظروف التي تسمح للدول الفقيرة أن تتفاعل بصورة أكثر إنتاجية وإيجابية مع الأنشطة الاقتصادية الدولية، وأهم أساليب ذلك هو تقليل القيود التجارية على منتجات الدول الفقيرة.

وعلى الدول المدينة مسئولية القيام بالإصلاحات المالية التالية:

إعادة ترتيب أولويات الإنفاق العام بالتركيز على إنشاء المشروعات الحكومية الأكبر أهمية.

تنمية الموارد المالية للدولة من خلال قوانين الضرائب ومكافحة التهرب الضريبي ورفع كفاءة الإدارة الضـريبية .

التحكم في الدين الداخلي والدين الخارجي بحيث يكون نمو الإنفاق الحكومي بمعدل أقل من نمو الناتج.

ثالثاً: منهج إسلامي لعلاج مشكلة اتساع نطاق الدين العام:

والآن من الواضح أن الحلول التي اقترحت لحل مشكلة الدين العام خصوصا حلول صندوق النقد الدولي لم تعط ثمارها حتى الآن، وإلا فلماذا تستمر هذه المشكلة حتى الآن في تلك البلدان؟ تحتاج، في الحقيقة، إلى فكر جديد وطرق جديدة لحل مشكلة الدين وخصوصا في ظل البيئة الإسلامية. في تلك البيئة قد تحتاج الدول أيضاً إلى موارد مالية إضافية (إما نتيجة لمعالجة أثار الكوارث الطبيعية أو انتشار الجفاف والأوبئة أو الحروب التي تفرض على الأمة الإسلامية والفتن الداخلية.[15]

والآن نود الإشارة إلى أن مختلف المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها بلدان العالم الإسلامي ومنها تفاقم مشكلة الدين العام ترجع في حقيقتها وجوهرها إلى إهمال قواعد ومبادئ الشريعة الإسلامية الغراء في مختلف الجوانب الاقتصادية للأمة الإسلامية، وإن كان الكثيرين من الكتاب حتى الإسلاميين منهم يفكرون في المشكلة في إطار مبادئ وقواعد الفلسفة الرأسمالية السائدة حاليا وفي ظل الهجمة الشرسة للعولمة.

والحقيقة هي أنه لحل مشكلة عجز الموازنة واتساع المديونية في العالم الإسلامي ينبغي علينا القيام بكل مما يلي:

أولاً: تحديد وظائف الدولة وحجم القطاع العام فيها في البيئة الإسلامية.
ثانياً: التعرف على الحقوق والواجبات المالية الشرعية على أفراد المجتمع وتأثيرها على النمو الاقتصادي.
ثالثاً: التعرف على صيغ التمويل الإسلامي البديلة للتمويل الربوي.

أولاً: وظائف الدولة الإسلامية وحجم القطاع العام فيها:

يقترح البعض أن هذه الوظائف تتمثل فيما يلي:

حماية الدين وذلك من خلال:

الحصول على القوة العسكرية والسياسية الكافية.

تطبيق أحكام الإسلامية في المجتمع كتوزيع الميراث، وتحريم الربا.

تعليم أفراد المجتمع بدينهم وتوفير العلم بالإسلام لغير المسلمين.

إدارة الشؤون العامة كالأمن والنظام القضائي والإدارة العامة والمتطلبات الاجتماعية الأخرى.

إدارة ودعم الملكية العامة في صالح أفراد المجتمع.

ضمان الحد الأدنى للمعيشة من الاحتياجات الأساسية لكافة المواطنين وذلك عندما لا تكفي الوسائل التطوعية لتحقيق ذلك.

تشجيع ومساعدة ودعم القطاع الخاص في سعيه لتوفير الدخل والإنتاج الكافيين وتحقيق الرفاهية العامة لكل أفراد المجتمع.

مراقبة ودعم واحترام الأفراد للقيم الأخلاقية والإنسانية في علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية.

ثانياً: الواجبات والتكاليف المالية في الإسلام:

نظام الزكاة : تخفف الزكاة عن كاهل الدولة عبئاً كبيراً لأنها تغطي حاجات التكافل الاجتماعي التي كان على الدولة القيام به للفقراء إضافة إلى مصارف أخرى هامة كالدفاع عن الإسلام. والزكاة فريضة حولية مستمرة، وتجبى من

جميع الأموال النامية فهي مورد دوري متجدد وينمو بنمو الدخل الفردي، وتعادل ربع عشر ثروة الأمة على الأقل وهو الحد الأدنى من إنفاق الفريضة أما إنفاق التطوع فلا حدود له، ولذا تعد الزكاة مورداً مالياً ضخما للدولة فريداً في الشريعة الإسلامية.

نظام الإرث: حيث يفتت ثروة المرء بعد وفاته ولذا يساعد بدوره في التخفيف من مشكلة الفقر وتحقيق عدالة توزيعية أكبر.

الضرائب والتوظيف: يقول الإمام الشافعي للحاكم أن يفرض على الأغنياء ما يراه كافياً إلى أن يظهر مال في بيت المال عند حاجة الإمام إلى تكثير الجند للدفاع عن الثغور وحماية الملك المتسع. كما يفرض الإسلام على أفراده حقوقا أخرى تقلل مرة أخرى من الحاجة إلى مساعدة الدولة، منها حقوق الوالدين والأقربين وحقوق اليتامى والجار ذي القربى والجار والضعيف والسائل والمضطر. يقول عز وجل : ﴿. لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ.﴾ [سورة البقرة: الآية 177] ويقول أيضاً: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية 215]. وفي الحديث الشريف عن فاطمة بن قيس أن رسول الله ع قال: "إن في المال حقاً سوى الزكاة ".

ولا شك أن قواعد الشريعة تساهم في تحقيق معدلات عالية من النمو الاقتصادي ومن إيرادات الدولة ومنها تحريم الربا، وفرض الزكاة، واسترداد الموارد الاقتصادية المقطوعة للأفراد من قبل الدولة إذا عجزوا عن الاستثمار فيها خلال فترة زمنية معينة، وتحريم اكتناز الأموال والذهب والفضة، مما يقلل من حاجة المجتمع للاستدانة لتغطية عجز الموازنة العامة أو ميزان المدفوعات.

والحقيقة أننا نواجه هذه الأيام صعوبات جمة في السعي نحو تطبيق قواعد الشريعة في مجال الاقتصاد (وفي غيره من المجالات) وذلك بسبب هيمنة النظام الرأسمالي على العالم في ظل محاولات العولمة القائمة، ونتيجة لذلك ظهرت هيبة و سيادة لعنصر الفائدة في النظام الاقتصادي والمصرفي العالمي وقيادته لنظم وأساليب التمويل والتنمية الدولية.

ولكن رغم كل هذه الصعوبات فقد واجهت الأمة الإسلامية منذ نشأتها تحديات كثيرة ﴿. وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ.﴾ [سورة البقرة: الآية 217]". ولكنها بفضل الله تغلبت عليها . إن أهمية اتباع قواعد الشريعة الغراء في مجال الاقتصاد والذي اعتبره جهادا اقتصاديا ضروريا فهو لكي

يتكامل الجانب الاقتصادي والشرعي في إنجاح برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتخلص من مشكلات التبعية الاقتصادية للغرب وضخامة اتساع الديون العامة . أما الصعوبة الحقيقية فهي كيف يمكن الابتعاد عن (وإزاحة) النموذج الرأسمالي الربوي المسيطر على مقدرات العالم خصوصا في زمن العولمة وتشابك الاقتصاديات الدولية .

ثالثاً: صيغ التمويل الإسلامية لسد عجز الموازنة وحل مشكلة اتساع الدين العام:

تتضمن هذه الصيغ التمويل على أساس البيع، المشاركة في الربح والخسارة، المشاركة في الإنتاج، والقروض الحسنة على النحو التالي:

التمويل على أساس البيع:

تتضمن هذه الصيغة تقديم السلعة إلى الحكومة مع تأجيل دفع الثمن، ويمكن أن يتم إما مباشرة من قبل المقاولين مع الحكومة، أو بواسطة البنوك الإسلامية وينتج عنها مديونية ثابتة محددة، لذا يمكن تقديم الضمانات والكفالات والرهون للممول . وهو نوعان عرضان بيع مؤجل وإجاره والإجارة من صيغ التمويل بالبيع و إن كان المبيع هو المنفعة فقط.

هناك ثلاثة أشكال للتمويل بالبيع هي بيع المرابحة للآمر بالشراء وبيع الاستصناع وبيع السلم. أما بيع المرابحة للآمر بالشراء فيتمثل في البيع برأس المال مضافا إليه ربح معلوم يشترط فيه أن يكون العقد الأول صحيحاً وأن يكون الثمن موجوداً، والعلم بالربح الذي يستحقه البائع. ويمكن استخدام هذا العقد لتمويل الاحتياجات الاستهلاكية والإنتاجية (كمستلزمات الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية). ويأخذ هذا الشكل صورة قيام البنك الإسلامي بشراء هذه السلع وإعادة بيعها للحكومة مع الدفع الآجل أو بالتقسيط، فيكون التمويل هنا لمدة بيع الأجل ويكون ربح البنك هنا ربحاً تمويلياً شرعياً وذلك لامتلاكه السلعة قبل إعادة بيعها للدولة.

أما الاستصناع: فيكون التمويل فيه من بائع السلعة إلى الحكومة (إذا حدد فيه تاريخ الدفع بعد التسليم)، وقد يتوسط البنك الإسلامي في الاستصناع فيكون صانعاً في علاقته بالدولة مع تأجيل الثمن، ويكون مستصنعاً في علاقته بالمقاول مع تعجيل الثمن ويرتبط عقد الاستصناع بالمواد المصنوعة سواء كانت منمطة أم غير منمطة كبناء دائرة أو آلة بأوصاف معينة. ولا يشترط فيه أن يكون المستصنع هو الذي يقوم بنفسه فعلا بصناعة السلعة التي التزم بيعها

وتسليمها في موعد مستقبلي، ومعنى ذلك أنه يستطيع أن يعهد بأمر صناعتها لشخص آخر يعقد استصناع آخر تذكر فيه نفس أوصاف السلعة وموعد تسليمها ولذا يستطيع المصرف الإسلامي في هذه الحال أن يمول المشتري والبائع معاً أو أي منهما.

أما بيع السلم فهو شراء آجل بعاجل وهو مشروع لقول ابن عباس اعن رسول الله ع: "إنهم قدموا المدينة وهم يسلفون من التجار بالسنتين والثلاث فقال ع: من استلف من شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم والى أجل معلوم. فالمديونية فيه عينية على الدولة، التي تلتزم تسليم سلعة كالبترول مثلاً في وقت محدد في المستقبل، ويختلف عن عقد الاستصناع في وجوب دفع الثمن عند العقد، وأن تكون السلعة معيارية (أي محددة أوصافها ومما هو موجود في السوق)، ولاشترط فيه وجود عنصر مصنع في السلعة.

التمويل على أساس المشاركة في الربح:

ويشمل التمويل بالشركة وبالمضاربة يوزع فيهما الربح حسب الإنفاق أما الخسارة فتوزع حسب أسهم رأس المال. والفرق بينهما من الناحية التمويلية – أن الشركة يشارك فيها جميع أرباب المال في الإدارة، لأن الشركة هي تعاقد عدد من الأفراد على خلط أموالهم وجهودهم، أما في المضاربة فإن هناك انفصالاً تاماً بين ملكية رأس المال (والتي يقدمها أحد الأطراف) وإدارته (والتي يقدمها المضارب). ولابتعاد رب المال عن الإدارة أثر مهم، بالنسبة لتغطية العجز في الموازنة العامة نظراً لأن هذا يحفظ للسلطات العامة حرية التصرف بمشروعات الموازنة كلها، وعدم تدخل الجهة الممولة بالقرار الإداري للجهة الحكومية الآمرة بالصرف.

وتعد صيغة المشاركة في الربح والخسارة من أكثر الطرق تعبيراً عن روح الإسلام ومبادئه الاقتصادية في توظيف المال وتحقيق العدالة وهي مشروعة بنص الحديث الشريف الذي رواه أبي هريره عن النبي ع قال: قال الله تعالى: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خانه خرجت من بينهما رواه أبو داوود بسند صحيح.

ويستعمل شكل الشركة في تمويل رأس المال الثابت والعامل بحسب مدتها وهدفها التمويلي، ويحصل فيها دائماً تقييم للمؤسسة بتاريخ بدء المشاركة التمويلية – تكون حصة المستفيد من التمويل ويقابله المبلغ الذي يقدمه البنك الإسلامي، وتمارس الشركة نشاطها في كافة مجالات التجارة والصناعة والخدمات وكافة المعاملات الناشئة عنها. ويمكن أن تستخدم هذه الصيغة في حال ما إذا رغب القطاع العام في الاستفادة من مهارات رجال الأعمال في اتخاذ القرارات وهنا سيقدم القطاع الخاص التمويل والإدارة، أما الفائدة التي ستعود على الدولة فهي تنفيذ المشروع مع الاحتفاظ بحق الرقابة الإدارية. ويمكن للحكومة أن تزيد أو تخفض من نسبة مشاركتها من خلال سوق الأوراق المالية كتداول أسهم الشركة.

أما شكل المضاربة فهي مشروعة بالسنة التقريرية، وللمضارب أن يتصرف في رأس المال بالعمليات التي تقتضيها عملية المتاجرة والاستثمار، فله أن يبيع ويشتري ويوكل الغير، وأن يودع ويرهن ويؤجر. وتصلح في تحريك الموارد الاقتصادية لمشروعات القطاع العام التي تحقق دخلاً بشرط قيام الحكومة باتخاذ خطوات جادة لتوفير المهارات الإدارية والتي تزيد وتدعم الممولين. ويمكن أن يستخدم هذا الشكل لأي نوع من الاستثمار سواء كان قصير أو متوسط، أو طويل الأجل وتستخدم في عمليات كبيرة (مثل شركات السكك الحديدية والطيران والاتصالات). وتصدر شهادات المضاربة بواسطة مستخدمي الأموال أنفسهم أو بواسطة المؤسسات المتخصصة من أجل تجميع الأموال لتمويل الحكومة على أساس الاستصناع أو الإجارة. ويمكن لعقود المضاربة أن تكون محددة المدة أو غير محددة، وينبغي دعم المضاربة بواسطة الحكومة إذا ما قامت الشركات بإصدارها وذلك من أجل تغطية بعض الأخطار خصوصاً الأخطار غير التجارية.

وأخيراً فإن الفقه الإسلامي قد توسع في مسألتين أولهما أنه أباح خلط أموال أرباب المال المتعددين مع بعضهما في الاستثمار، وثانيهما السماح بخلط مال المضارب مع أموال أرباب الأموال المضاربة. وبفضل هذا التيسير أقيمت البنوك الإسلامية وأمكنها تكوين صيارفة للاستثمار تتألف من أموال الودائع الاستثمارية وجزء من أموال البنك نفسه.

التمويل على أساس المشاركة في الإنتاج:

تصلح هذه الصيغة لتمويل المشـروعات الكبيرة القابلة للتشغيل والتي تحتاج إلى استثمارات ضخمة في الأصول الثابتة، مقابل رأس مال عامل صغير نحو جسر أو نفق أو سكة حديد، وخصوصاً إذا تم تمويلها من قبل الجمهور عن طريق إصدار شهادات ملكية بمساهمة أصحابها في المشـروع. وتكون لأصحاب هذه الشهادات حصة في الإيرادات الإجمالية للمشـروع. تقوم السلطة العامة على إدارته على أساس المشاركة في العائد الإجمالي له. وهو واضح في المزارعة والمساقاة حيث توضع الأرض والشجر تحت تصـرف الزارع الذي يتقاسم مجمل الإنتاج مع المال حسبما اتفقا عليه. تتسم هذه الصيغة بعدم الحاجة لحساب الأرباح والخسائر أو تقييم الأصول الثابتة التي تم تقديمها في العمليات التمويلية لأن المشاركة هنا في الإنتاج وليس الربح.[18]

القروض الشرعية:

وهي التي لا تقوم على الربا، بل على الإحسان، ولذا يطلق عليه القرض الحسن وله عدة أشكال يمكن أن تلجأ الدولة إليها لسد عجز الموازنة. منها الاقتراض الإجباري الذي يمكن أن يفرض على أفراد المجتمع أو مؤسساته التجارية والصناعية أو المصارف التجارية. ويلاحظ ان الاقتراض من المصارف التجارية بدون فائدة وبخاصة في الأجل القصير يمكن أن يستند إلى أي من المبدأين:

الانتفاع من ودائع الحساب الجاري لصالح المجتمع بكامله متمثلاً ببنود الموازنة العامة بدلاً من تركه لأصحاب البنوك وخصوصا أن الودائع الجارية تعتمد على الاستقرار النقدي الذي تحققه السلطات المتقدمة في الدولة.

لما كانت البنوك التجارية تخلق الائتمان فإن عليها أن تعطي الحكومة قروضاً إلزامية بدون فوائد مقابل ما استفادته البنوك من توسيع القاعدة النقدية.

ويمكن، في الحقيقة، اللجوء إلى الاقتراض من الأفراد بتحريك الدوافع الوطنية لديهم للحفاظ على الصالح العام. وأيضاً من باب التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع بعضهم مع البعض الآخر أو من المؤسسات المالية والاقتصادية والمجتمع ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾. ويتفرع عن صيغة القرض الشرعي صيغتان أخريان: القرض مقابل الودائع، وتسهيلات القروض الخاصة.

باستعراض صيغ التمويل الإسلامي السابقة تتضح لنا أنها تختلف عن صيغ التمويل الربوي المعاصر في النقاط التالية:

الربا هو زيادة في الدين وهو شيء ليس من طبيعته النماء، بينما الزيادة في مجال التمويل الإسلامي في شيء مملوك من طبيعة النمو.

الدائن في العلاقة الربوية لا يضمن تحمل الخسارة بعكس المالك الممول في التمويل الإسلامي.

الزيادة في العلاقة الربوية افتراضية تحكمية في حين أن الزيادة في التمويل الإسلامي – إن وجدت – هي زيادة حقيقية فعلية .

يستند التمويل الربوي على القدرة على السداد وحدها لذا يمكن استخدامه لمشروع استثماري أو لسداد ديون سابقة أو حتى للمقامرة، ينما لا بد أن يمر التمويل الإسلامي عبر السلع والخدمات (مشروع إنتاجي).

يسمح في التمويل الربوي بالاقتراض من البنوك وبتداول الديون (لأن تداول الديون من البنوك يقوم على أساس فكرة الخصم الزمني رهون الربا). بينما لا

تسمح الشريعة الإسلامية بتداول الدين (لأنها ستنقل فقط بقيمها الاسمية بغض النظر عن تاريخ الاستحقاق.

الخلاصة والتوصيات:

بعد مرور سنوات طويلة من السير في طريق الاستدانة الداخلية والخارجية (تحت شعار التنمية الاقتصادية) وجدت الدول الإسلامية نفسها في مأزق كبير، فلا هي حققت التنمية المطلوبة ولا أصبحت قادرة على سداد ديونها. وأمام هذا العجز عن سداد الديون واستجابة للضغوط (خصوصا من المؤسسات الدولية) لجأت تلك لدول إلى مزيد من الاستدانة وإعادة جدولة ديونها وفقا لشروط الدائنين من خلال نادي باريس.

وأسباب الاستدانة في الحقيقة كثيرة داخلية وخارجية. أما الأسباب الداخلية فتتمثل في الفجوات في الموارد الاقتصادية والركود التضخمي *Stagflation* (تزامن مشكلتي التضخم والبطالة) إضافة إلى عبء المديونية الخانق، إضافة إلى سوء توظيف أموال القروض وتهريب رؤوس الأموال للخارج للمسؤولين الحكوميين ولرجال الأعمال نتيجة الفساد المالي والإداري[19]، وأخيرا التبعية الاقتصادية للغرب والتي تتعدد أشكالها من تبعية تجارية إلى غذائية إلى نقدية إلى تكنولوجية ومن قبلها تبعية سياسية وعسكرية . أما الأسباب الخارجية فتتمثل في الركود الاقتصادي العالمي، وتدهور شروط التجارة نتيجة انخفاض أسعار المواد الأولية التي تصدرها تلك الدول، إضافة إلى ارتفاع معدلات الفائدة في الأسواق المالية الدولية.

والحقيقة أن أزمة الدين العام في الدول الإسلامية أزمة هيكلية اقتصادية عميقة وليست أزمة مالية فحسب. فهي أزمة اقتصادية متعددة الأبعاد أزمة نقدية وغذائية وبطالة وأزمة في الطاقة كلها تنبع من عدم ملاءمة السياسات الاقتصادية المتبعة في هذه الدول للواقع الاقتصادي والثقافي لها ولخصوصياته.

إن النظام الاقتصادي الإسلامي لم يطبق بعد في غالبية البلدان الإسلامية، وبدلاً منه تحاول تلك البلدان حل مشاكلها من خلال تصميم سياسات تم وضعها في ظل الفلسفة الرأسمالية ومن الواضح أنه على الرغم من زيادة الناتج المحلي الإجمالي في الغالبية العظمى لتلك الدول إلا أن هذه السياسات لم تفلح في المجالات التالية:

لم تنخفض معدلات الفقر بل ارتفعت وتحولت نسبة كبيرة من الطبقات المتوسطة بتلك الدول إلى طبقات منخفضة الدخل.

زادت درجة عدم المساواة الداخلية أو في الثروة.

لم تستطع تلك الدول توفير الحاجات الأساسية لشعوبها.

استمر القطاع العام في تحقيق معدلات أداء منخفضة في كثير من الأحيان.

اتساع مشكلة الدين العام مع ما ينجم عنها من التضخم ومعدلات الفائدة العالية ومزاحمة القطاع الخاص وتخفيض فرص التنمية.

ووفقاً لحلول المؤسسات الدولية (البنك والصندوق ومنظمة التجارة العالمية ونادي باريس) فإن على بلدان العالم الإسلامي خلق استقرار تشريعي، ودعم البنية التحتية في تلك الدول إضافة إلى تحسين السياسات المالية لإيجاد مناخ صحي للاستثمار يشجع رؤوس الأموال المهاجرة (تقدر بالنسبة للدول العربية فقط بما يتراوح بين 800 - 2400 مليار دولار) إلى العودة إلى أوطانها حتى وإن كانت عودة جزئية.

إن السبب الحقيقي لأزمة الديون العامة لبلدان العالم الإسلامي (وإن ظهرت أسبابها المباشرة في الفجوات الاقتصادية المحلية والخارجية) هو الابتعاد عن الشريعة الإسلامية في مجالي جمع الأموال وإنفاقها والتي تظهر في الصور التالية:

الإنفاق غير المبرر على المظاهر والكماليات.

استخدام القروض العامة في تمويل النفقات الاستهلاكية وليست الإنتاجية التي تدر دخلاً يمكن خلاله سدادها.

عدم الالتفات إلى الصيغ الإسلامية المتعددة في التمويل (القرض الحسن) أو الصيغ البديلة عن التمويل (المشاركة والمضاربة والإجارة والخصخصة وأثرها).

إن السبب الرئيسي لتفاقم المشكلة كما يوضح لنا النموذج الرياضي فهو ارتفاع سعر الفائدة عن معدل النمو في الناتج المحلي الإجمالي. وهكذا تلعب الفائدة (الربا) إضافة إلى عدم استخدام صيغ التمويل المشروعة الدور الأول لاتساع مشكلة الدين العام.

إن غالبية الدول الإسلامية التي تعاني من مشكلة عجز الموازنة واتساع الدين العام بمرور الوقت، تجاوزت في برامج إنفاقها مقدرتها على تعبئة الأموال وأصبح لذلك عجز كل من الموازنة وميزان المدفوعات عجزاً هيكلياً يستدعي ضرورة تغطيته سنة بعد أخرى. وهناك حاجة حقيقية نحو تعديلات جوهرية في المالية العامة لتلك الدول، ولا ينبغي على تلك الدول البحث في الحلول السهلة التي أدت إلى تفاقم المشكلة. هناك حاجة لتعديلات هيكلية في كل من جانبي الإنفاق والإيرادات في الموازنة العامة. إن المنهج الحالي واعتبار الإنفاق محدد خارجياً بصورة أو بأخرى ثم تجنيد كافة الطاقات والإمكانات لتحصيل الموارد

المالية الكافية لتغطية ذلك الإنفاق خطأ. ذلك أن الناس هم الذين ينبغي أن يحددوا مدى ضرورة هذه البرامج الإنفاقية فإذا اقتنعوا ببعضها فإن عليهم أن يدفعوا تكلفتها. إن الاعتماد على الاقتراض لتغطية برامج الإنفاق يجب أن يتوقف.

إن التمييز بين الإنفاق الجاري والإنفاق الاستثماري ينبغي مراعاته عند تعبئة الموارد. إن الممارسة الحالية لتعبئة أقصى قدر من الموارد وتوجيهها لتغطية الإنفاق الجاري وتحويل ما يفيض منها إلى برامج الاستثمار والتنمية ليس صحيحاً. ووفقاً لهذه الدراسة فإن المشاركة الفعالة بواسطة القطاع الخاص في تنمية الموارد الوطنية بهدف التنمية ينبغي تفعيلها ذلك أن كثيراً من المشروعات العامة يمكن تنفيذها على أساس صيغ التمويل الإسلامية.

إن تحديد وظائف رئيسية للإنفاق العام وتحديد مصادر تمويلها والالتزام بها في التطبيق يمكن أن يضمن القيام بتلك الوظائف، دون إهمال الوظائف العامة الأخرى. وهنا فإن برامج الدفاع وإزالة الفقر في بلدان العالم الإسلامي هي من بين تلك المجالات الرئيسية للإنفاق العام. وسيساعد هذا التقسيم للموارد المالية، على أساس الوظائف، في ترشيد الإنفاق العام وعدم الإسراف والتبذير في الأموال العامة خصوصاً الإنفاق على الكماليات ما دام لم يتم إشباع الضرورات بعد.

ينبغي تفعيل الصيغ الإسلامية في التمويل لتغطية عجز الموازنة العامة خصوصاً التمويل بالمشاركة في الربح والخسارة والإجارة والقرض الحسن. حيث تستخدم الصيغة الأولى على نطاق واسع لتمويل المشروعات السليمة تجارياً. وهذه المشاركة ينبغي أن تكون محلية إلا إذا عجزت الموارد المحلية أو كان هناك مكون أجنبي كبير في الاستثمار فيمكن أن تكون المشاركة أجنبية. أما صيغة الإجارة فيمكن استخدامها في تمويل مشروعات البنية التحتية، ولنفس الغرض يمكن استخدام الخصخصة في نظام البناء والتشغيل والتمويل BOT ومشتقاته. أما القروض الربوية فإن مجالها سيكون محدوداً جداً في البيئة الإسلامية لتمويل عجز الموازنة وخصوصاً القروض الخارجية والتي يترتب عليها تبعية اقتصادية ولكن قد تضطر الدولة الإسلامية في مرحلة الانتقال من التمويل الربوي إلى التمويل الإسلامي وتحت ضغط الأولويات الحرجة للاستدانة من السوق العالمية الربوية . أما القروض المصرفية فإن مجالها أيضاً محدود في البيئة الإسلامية، وفقط قد تستخدم في حال التوسع النقدي الذي لا يهدد الاستقرار النقدي.

ينبغي تطبيق فريضة الزكاة وإصدار قوانينها الملزمة. ذلك أن تطبيق فريضة الزكاة يمكن أن يوفر جانباً هاماً من احتياجات الدولة في مجال الشئون الاجتماعية. كما ينبغي تشجيع الدور الذي تلعبه الأوقاف الإسلامية في مجالات التعليم والصحة، وقد تحملت مؤسسة الوقف- تاريخياً – المسئولية الكاملة تقريباً في توفير النظام التعليمي للكبار والصغار ومد المساجد بالعمارة والخدمة والرعاية وكذلك المستشفيات والحدائق العامة بحيث يمكن القول بأنه كان لنظام الوقف دوراً كبيراً في بناء البنية التحتية للخدمات الاجتماعية.

كما ينبغي تشجيع المساهمات التطوعية، خصوصاً المساهمات من خلال خدمة المجتمع من خلال العمل والمشاركة في الأنشطة الخيرية والثقافية، فالمساهمة الخيرية بالعمل التطوعي تعد من أهم مصادر دعم التنمية وحل المشاكل الاقتصادية في الدول الإسلامية وذلك لانخفاض مستوى الدخل الفردي وصعوبة التطوع بالمال وكما يقترح الأستاذ منور إقبال أن ما نحتاجه هو فحص دقيق لهيكل الإيرادات والنفقات وليس مجرد إصلاح مالي.

وهكذا يتضح لنا أن مشكلة اتساع الدين العام في بلدان العالم الإسلامي يمكن علاجها تدريجياً وعلى مدى فترة زمنية ممتدة، شرط الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في مجالات اكتساب المال العام وإنفاقه مع ضرورة تحمل الدول الدائنة لجزء من مسؤولية تفاقم المشكلة.

ينبغي على الدول الإسلامية أن تشترك معاً في وضع تصور مستقبلي لموقعها في عالم اليوم وأن تحدد في ذلك التصور مفهوماً محدداً للأمن الإسلامي وذلك في ظل الملاحظات التالية:

ضرورة التكتل الاقتصادي بينها من أجل حل مشاكلها الاقتصادية عامة والدين العام خاصة، ذلك أننا نعيش عصر التكتلات الاقتصادية العملاقة والعولمة. لذلك فإن إقامة السوق الإسلامية المشتركة وصولاً إلى الوحدة الاقتصادية الكاملة مستقبلاً يعد ضرورة لبناء اقتصادي إسلامي قادر على البقاء والمنافسة في عالم الاقتصاد المعاصر. إن التكامل الاقتصادي الإسلامي أصبح من صميم "الجهاد الاقتصادي" الذي لا يقل في أهميته هذه الأيام عن الجهاد العسكري من أجل جعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلي. ينبغي وضع استراتيجية لتحقيق التنمية الشاملة في بلدان العالم الإسلامي على أن يكون محور هذه التنمية هو العنصر البشري من خلال احترام حقوق الإنسان وحريته في التعبير والتعليم دون عوائق.

الهوامش والمراجع:

يلاحظ أن الإحصاءات الرسمية للدين الوطني National Debt تستبعد قروض البنك المركزي للدولة على أساس أنه لا يتطلب خدمة لذلك الدين (أي مدفوعات الفائدة والاستهلاك). أما مفهوم الدين العام Public Debt فهو يجمع بين كل من الدين الوطني وقروض البنك المركزي لتغطية عجز الموازنة ولذا يعد أفضل تمثيلاً وانعكاساً لتراكم عجز الموازنة في السنوات الماضية ولكن لضآلة استخدام قروض البنك المركزي لتغطية عجز الموازنة بالنسبة إلى قروض مستندات و أذون الخزانة سنعتبر الدين العام Public Debt لغرض هذه الدراسة هو الدين الوطني National Debt.

فالدولة واقتصادها الوطني هما الضمان لسداد قيمة هذه الأوراق المالية الحكومية وفوائدها حيث تستطيع أن تقترض مجدداً لسداد أعباء خدمة ديونها القائمة، كما تستطيع فرض ضرائب حديثة أو توسع من نطاق الضرائب القائمة أو تزيد من أسعارها. كما تسمح الدولة عادة بتداول الأوراق المالية الحكومية في سوق الأوراق المالية مما يزيد من سيولتها، وأخيراً تدفع الدولة عادة معدلاً للفائدة على تلك الأوراق أعلى من المتاح في سوق الأوراق المالية. وتغري بالطبع هذه المميزات الكثيرين من أفراد المجتمع على الاكتتاب في الأوراق المالية الحكومية وتحويل استثماراتهم أل هذا الشكل من الاستثمار، أنظر: المرسي السيد حجازي : مبادئ الاقتصاد العام ، الدار الجامعية ، بيروت 2001م .

حددت اتفاقية ماسترخت بين دول الاتحاد الأوروبي شروطاً محددة فيما يتصل بالديون العامة وأعباء خدمتها لقبول دولة عضواً جديداً في الاتحاد الأوروبي وهي أن لا تزيد نسبة خدمة الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي عن 60% (تبين تلك النسبة مدى عبء الدين العام الذي ينتظر أن تتحمله الدولة في الأجل الطويل . وأن لا تزيد نسبة خدمة الدين العام إلى الصادرات عن 25% و تبين تلك النسبة مدى إمكانية توفير سيولة كافية من النقد الأجنبي لمواجهة مدفوعات خدمة الدين العام.

ينتج عن هذا النوع من الإقراض أو "الإقراض التضخمي" تشوهات خطيرة في الاقتصاد الوطني تنعكس سلباً على كل من القوة الشرائية للعملة الوطنية، والادخار الوطني والاستثمارات الحقيقية وميزان المدفوعات مما ينعكس بدوره سلباً على التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع.

تتحكم المؤسسات المالية الدولية كالصندوق والبنك الدولي ومؤسسة التمويل الدولية (وأيضاً نادي باريس للدول الدائنة) في السياسات الاقتصادية المحلية للدول المدينة ، دون مراعاة للاعتبارات الاجتماعية مما يهدد الاستقرار الاجتماعي والسياسي للمجتمع بل يمكن أن يصل الأمر إلى سيطرة الدول الدائنة على الإدارة السياسية للدول المدينة في مجال العلاقات السياسية الدولية ولقد كانت ديون مصر الخارجية لبريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر(لتمويل مشروع حفر قناة السويس) سبباً مباشراً لاحتلال مصر عسكرياً بواسطة بريطانيا عام 1881 .

أرجع بيان الخارجية التركية أن سبب تفاقم الديون الخارجية يعد بالدرجة الأولى إلى ما وصفه بمكافحة التنظيمات الإرهابية والانفصالية طيلة السنوات الماضية الذي كبد خزينة الدولة أموالا طائلة ودفع الدولة إلى تعزيز مقدراتها الأمنية و الدفاعية . المصدر: منظمة رابطة العالم الإسلامي ورقة رقم 1758 ص 9 . كما حددت أسباب نمو الدين وتراكمه في باكستان بزيادة العجز المالي والانخفاض المستمر في معدل الصرف الأجنبي والتكلفة العالية للاقتراض واقترح لحل مشكلة اتساع الدين العام هناك ضرورة تحقيق الاستقرار الكلي مع الإدارة الحكومية الصارمة وانتج سياسات تتفق مع السوق حتى تزداد ثقة المستثمرين والخصخصة للمشروعات العامة لإطفاء الدين العام أنظر:

http:www.saarcnet.org/newsaarcnet/countryprofile/pakistan/pakistan18.htm

محمد باقر الصدر، اقتصادنا: دراسة موضوعية تتناول النقد والتحليل والبحث في المذاهب الاقتصادية للماركسية والرأسمالية والإسلام في أسسها الفكرية وتفاصيلها، دار المعارف ، بيروت 1411هـ ، 1991 . صفحات 291- 293 .

د. على توفيق الصادق ، إدارة الدين العام : قضايا تحليلية واستنتاجات عملية ، من كتاب صندوق النقد العربي :"سياسة وإدارة الدين العام في البلدان العربية " ، سلسلة بحوث ومناقشات حلقة العمل عدد 4، 28-31مارس 1998، أبو ظبي صفحات: 21- 29 .

مؤسسة البحوث والاستثمارات، الدين العام في لبنان: أزمة مالية عامة أم أزمة اقتصاد ؟ منشورات دار الحوار العالمي، بيروت شباط 1999 .

فخلال الفترة من 1986/1900 تدهورت أسعار المواد الأولية (بما فيها الوقود) صادرات الدول النامية بالنسبة إلى صادرات الدول المتقدمة بمعدل 36% أو بمعدل 5ر0 سنويا انظر :

Vincent Ferraro and Melissa Rosser,: Challenges for New Century, edited by Michael Klare and Daniel Thomas, New York 1994 , pp. 342.

لاختبار فرضية المزاحمة يمكن الاعتماد على النموذج التالي:

$$I/y = a0 + a1 (G/Y)t + a2 Pt + e$$

t (I/Y) حصة الانفاق الاستثماري من GDP في السنة t

t (G/Y)حصة الانفاق الحكومي من GDP في السنة t

P t مؤشر أسعار المستهلك (التضخم) e هو حد الخطأ

فإذا كانت فرضية المزاحمة صحيحة فان إشارة a 1 تكون سالبة أي كلما كانت حصة الإنفاق القومي كبيرا من GDP كلما انخفضت حصة الإنفاق الاستثماري من الناتج المحلي والإشارة المتوقعة للتضخم سالبة أيضا نتيجة توقعات القطاع الخاص مستقبلا و التي تخلق عدم اليقين وهذا بسبب الإشارة السالبة المرجع السابق ص 151 –160 .

د. عبد الرازق الفارس، الحكومة والفقراء والإنفاق العام ، دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ص 153 نقلا عن فتحي خليل الخضراوي " العجز المالي والسياسة النقدية مصر ، مجلة العلوم الاجتماعية ، 217 العدد 4(شتاء 1989)

على الرغم من اعتراض البعض على فكرة الإلغاء الجزئي للديون على أساس أنها تشجع الدول المدينة على عدم الاهتمام برفع الكفاءة (الاقتصاد) واستغلال الموارد إضافة إلى تحميل المؤسسات المالية للدولة كالبنك والصندوق بأعباء هائلة مما يقلل من فعالية تلك المؤسسات مستقبلا نتيجة لتقلص مواردها بسبب عدم السداد.

رمزي زكي ، انفجار العجز: علاج عجز الموازنة العامة للدولة في ضوء النهج الانكماشي والنهج التنموي ، دار الندى للثقافة والنشر ، دمشق ، سوريا ، 2000 صفحات 153 –195.

يشترط الإمام الشاطبي أن يتم الاستقراض من قبل الدولة أوقات الأزمات إنما يكون حيث يرجى لبيت المال دخل ينتظر أو يرتجى، وأما إذا لم ينتظر شيء فلا بد من جريان حكم التوظيف(أي الضرائب). انظر محمد محمود بابلي مصادر تمويل الدولة الإسلامية في ي منطلق الدعوة والخلافة الراشدة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1395هـ / 1975 م . نقلاً عن الاعتصام.

انظر د. علي محي الدين على قره داغي، بحوث في فقه المعاملات المالية المعاصرة ، دار البشائر الاسلامية، بيروت، 1422هـ، 2001 م

د. حسين راتب يوسف ريان، عجز الموازنة وعلاجه في الفقه الإسلامي، دار النفائس للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2419هـ ، 1999م

سعد بن حمدان اللحياني ، الموازنة العامة في الاقتصاد الإسلامي ، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب – البنك الإسلامي للتنمية ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، بحث رقم 43 ، 1417 هـ (1997).

منذر قحف،تمويل العجز في الموازنة العامة للدولة من وجهة نظر إسلامية دراسة حالة الكويت، بحث رقم 39 البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب.

وأيضاً دور الدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي والأهداف الاقتصادية للدولة الإسلامية من كتاب السياسة الاقتصادية في إطار النظام الإسلامي، وقائع ندوة السياسة الاقتصادية في الإسلام (سطيف بالجزائر) 29 شوال ذو القعدة 1411 هـ 1991م .

Instruments and Alternatives of Public Debts in Islamic Economy
http://www.kahf.net/english /debts.html

وأيضاً نظرية التمويل الإسلامية والمصرفية الإسلامية، من كتاب الاقتصاد الإسلامي بين الشك واليقين، دار الفكر بدمشق 1420 هـ ، 2000م

في دراسة للباحث عن التكاليف الاجتماعية للإنفاق العام أوضح أن تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي لأفراد المجتمع يسبب تكاليف اجتماعية (غير مرتبة) مرتفعة وهامة لا تبرر التدخل الآمن منظور غير اقتصادي اجتماعي أو سياسي مثلاً، انظر: المرسي حجازي : التكاليف الاجتماعية للإنفاق العام مع الإشارة لمصـر ، مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية ، كلية الحقوق ، جامعة الإسكندرية، العدد الرابع 1995.

M. Umar Chabra : Economics of Public Debt in Islam Government Borrowing Needs from Reading in Public Finance in Islam, Islamic Research and Training Institute, Jeddah , Saudi Arabia. pp 357- -368.

تبين الدراسة انه في ظل افتراضات قريبة من الواقع الاقتصادي المعاصر إلى حد كبير يؤدي بطبعه فريضة الزكاة في الدول الإسلامية خلال 12 سنة، مجلة جامعة الملك سعود م9، علوم إدارية (1) الرياض 1417هـ

Munawar Iqbal , causes of Fiscal Problems in Muslim Countries and some Suggests for Reform from Financing Development in Islam , edited by M.A. , Mannam, Islamic

Researched Training Institute paper Presented at the Third Internal Conference on Islamic Economics (Kuala Lumpur, Malaysia 23-25 Rajab 1412 H 1 Jan. 28-30 , 1992 , pp. 109- 138

Abulhassan M. Sadeq , Resource Mobilization and investment in an Islamic Framework , proceedings of the third International seminar 1992 , 1412 pp: 141 –145 .

23- محمد آدم : العولمة وأثرها على اقتصاديات الدول الإسلامية

http:www.amnabaa.org/nba42/awlamah.htm

ملحق بيانات عجز الموازنة والدين العام في البلاد الإسلامية

جدول رقم (1)

العجز أو الفائض في الموازنة العامة للبلدان العربية النفطية وغير النفطية 1993/1972		
السنة	البلدان النفطية	البلدان غير النفطية
1972- 1981	(+)	(-)
1982- 1993	(-)	(-)

المصدر: د. عبد الرازق الفارس، الحكومة والفقراء والإنفاق العام : دراسة لظاهرة عجز الموازنة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ص 123.

جدول رقم (2)

العجز أو الفائض في الموازنة العامة للبلدان العربية النفطية وغير النفطية 1993/1972

	الدولة	-70 75	-75 80	-80 85	-85 90	-90 93
مجموعة الدول النفطية	السعودية	3ر8	2ر11	00ر6	1ر16	11-
	الكويت	2ر29	48	6ر30	-1ر0	65-
	الجزائر	7ر5	7ر7	9ر2	-8ر1	6ر0
	ليبيا	9ر11	-6ر1	- 10ر4	8ر2-	1ر7
مجموعة الدول غير النفطية	مصر	-2ر9	- 16ر5	- 22ر9	-ر13	7ر5-
	سوريا	7ر5-	- 13ر4	- 17ر4	3ر9-	4ر9-
	تونس	-2ر1	3ر8-	5ر00	-ر5	4ر0-
	المغرب	4ر8-	- 12ر3	9ر5-	5ر6-	2ر9-

جدول رقم (3)

تمويل العجز في البلدان العربية النفطية وغير النفطية (نسب مئوية)

بيان	75	80	85	90	93
البلدان النفطية... اقتراض خارجي	-	-	03ر7	7ر1	8
.... اقتراض داخلي	-	-	3ر107	3ر98	92
البلدان غير النفطية.. اقتراض خارجي	59	38	29	31	41
.... اقتراض داخلي	41	62	71	69	59

جدول رقم (4)

العجز أو الفائض في الميزانية العامة للبلدان العربية (مليون دولار أميركي)

السنة	البلدان النفطية	البلدان غير النفطية
1970	-	-
1971	-	-
1972	878	1641-
1973	1008-	652-
1974	12446	2920-
1975	11938	3255-
1976	14744	4564-
1977	15415	5089-
1978	15935	8472-
1979	26410	9354-
1980	59431	10422-

13378-	34555	1981
13502-	20071 -	1982
14349-	18370-	1983
16461-	31521-	1984
12226-	12171-	1985
9604-	36910-	1986
6538-	17808-	1987
6620-	24749-	1988
5907-	4370-	1989
10111-	17018-	1990
2379-	50541-	1991
5993-	16898-	1992
	15926-	1993

جدول رقم (5)

إجمالي الدين الخارجي على عدد من الدول الإسلامية بنهاية العام

(ببلايين الدولارات الأميركية)

الدولة	1990	1993	1996	1999	2000
الأردن	7ر04	66ر00	7ر09	7ر55	6ر75
تونس	6ر66	7ر42	9ر38	9ر49	11ر57
الجزائر	26ر42	24ر85	31ر60	25ر91	25ر00
السودان	9ر16	8ر99	9ر37	8ر85	15ر93
سوريا	14ر92	16ر24	16ر70	16ر14	21ر27
مصر	28ر37	28ر30	28ر81	26ر00	27ر11
المغرب	23ر10	20ر68	21ر13	17ر28	16ر37
اليمن	5ر15	5ر34	5ر62	3ر73	4ر94

جدول رقم (6)

خدمة الدين/إجمالي الصادرات من السلع والخدمات ومتوسط سعر الفائدة

على الدين العام الخارجي

الدولة	1990		1993		1996		1999		2000
الأردن	3ر21	6ر4	4ر17	2ر6	9ر24	1ر5	6ر14	1و5	0ر15
تونس	0ر23	8ر6	7ر20	2ر6	1ر16	7ر4	3ر15	0ر3	6ر26
الجزائر	3ر63	4ر8	2ر83	5ر5	9ر27	5ر5	9ر36	1ر5	7ر24
السودان	5ر4	7ر0	5ر4	-	-	-	1ر36	-	4ر11
سوريا	5ر23	7ر3	3ر3	8ر3	9ر1	-	5ر3	-	3ر16
مصر	1ر23	3ر5	8ر14	6ر2	9ر11	4ر1	0ر9	8ر0	6ر8
المغرب	1ر23	7ر6	8ر42	7ر6	1ر33	0ر6	6ر27	7ر3	1ر23
اليمن	8ر6	8ر1	5ر8	9ر0	5ر3	2ر1	0ر4	8ر0	3ر5

جدول رقم (7)

إجمالي خدمة الدين العام الخارجي للدول العربية خلال العام (مليون دولار)

الدولة	1990	1993	1996	1999	2000
الأردن	548	507	941	559	530
تونس	1220	1221	1325	1359	1855
الجزائر	8562	8657	3948	4885	5059
السودان	23	17	--	12	207
سوريا	1191	174	125	206	1129
مصر	2487	1863	1879	1478	1618
المغرب	1461	3088	3253	2985	2196
اليمن	108	99	79	100	217

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحد أعداد مختلفة.

جدول رقم (8)

نسبة الدين العام الخارجي إلى الناتج المحلي الإجمالي

الدولة	1990	1993	1996	1999	2000
الأردن	175ر2	121ر6	100ر9	93ر5	81ر1
تونس	54ر1	50ر8	47ر9	47ر6	59ر5
الجزائر	42ر6	49ر9	66ر3	53ر9	46ر5
السودان	76ر3	160ر2	113ر1	76ر6	124ر2
سوريا	107ر4	811ر0	94ر9	96ر2	118ر7
مصر	80ر0	60ر4	42ر6	29ر2	27ر8
المغرب	89ر5	77ر2	57ر7	49ر4	49ر8
اليمن	56ر7	88ر6	97ر9	51ر3	57ر8

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحد أعداد مختلفة.

جدول رقم (9)

حجم الدين العام وخدمته في الدول الإسلامية

بلدان مختارة عام 2001م

الدولة	الديـــــن العـــــام						خدمة الدين العام
	الخارجي		الداخلي		الإجمالي		
	مليار $	% GDP	مليار $	% GDP	مليار $	%GDP	
تركيا	118	-	23	-	141	-	
ماليزيا	45ر2	42 %					
إيران	7ر2	29ر9 %					
إندونيسيا	144	%100					
باكستان	3198 مليار روبية عام 2000	%100	1641 مليار روبية	51ر6 %	4839 مليار روبية عام 2000	15ر61	تعادل 60% من إجمالي الإيرادات العامة
السعودية	--	--	160				تعادل 14% من إجمالي المصروفات العامة
مصر	--	--	44ر2				

الفصل الرابع

معركة عين جالوت

تعد معركة عين جالوت التي وقعت بتاريخ الثالث من سبتمبر عام 1260م من أهم المعارك التي عرفها التاريخ الإسلامي، حيث تم من خلالها القضاء على أسطورة الجيش التتري الذي لا يقهر، و الذي لم يسلم من بطشه أحد سواء المسلمين أو العرب بل وصل حتى الصين وبلاد فارس وممالكها الإسلامية والأتراك؛ فكانت هزيمتهم في عين جالوت بداية نهاية الإمبراطورية العملاقة؛ ففي أحلك الظروف ظهر الملك قطز ووحد المماليك والعرب لصد الهجوم المغولي وبفضل الحنكة العسكرية والسياسية استطاع مع الأمير بيبرس الانتصار على الجند الذين لا يعرفون الخسارة، وتعقبوا فلولهم، ووحدوا الشام ومصر لمدة 200 سنة.

موقع عين جالوت

من هو السلطان المظفر قطز (قاهر التتار):

هو السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي، تسلطن بعد أن خلع الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك وشجرة الدر في يوم السبت 17من ذي القعدة سنة 657 هـ 1959م، بعد أن تفاقم خطر التتار، وأصبحت مصر مهددة بغزوهم الوشيك.

توسع التتار قبل معركة عين جالوت:

عرف التتار بحروب الصاعقة التي تعتمد على المفاجأة و سرعة الحركة مستفيدين أيضًا من حرب الأعصاب إلى أقصى مدى، فنشروا الذعر والخوف في كل مكان، وحيثما اتجهت قواتهم كانت تسبقهم الأقاصيص عن طغيانهم وقسوتهم ومذابحهم.

ففي سنة 654 هجرية أي 1256م، ملكَ التتار سائر بلاد الروم، ثم توجه بعدها قائد التتار هولاكو بن طولوي بن جنكيز خان إلى بغداد في صفر من سنة 656 هجرية أي 1285م، محدثًا مجازر في أهلها من قتل و نهب، وقضوا على الخلافة العباسية، وعلى معالم الحضارة الإسلامية، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته.

و بعد سقوط بغداد و الخلافة العباسية تقدم التتار إلى بلاد الجزيرة، واستولوا على" حران" و"الرُّها" و"ديار بكر "في سنة 657 هجرية أي 1259م، ثم جاوزوا الفرات، ونزلوا على"حلب" في سنة 658 هجرية 1260م، واستولوا عليها.
ولم يكتفوا بذلك بل توجهت جيوشهم إلى" دمشق "و بهروب سلطانها الناصر يوسف بن أيوبدخلت جيوشهم دمشق، وتسلموها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وفتكوا بهم، ونهبوا وسلبوا ودمروا مما زادهم كبرياء فتوجهوا إلى "نابلس"، ثم إلى "الكرك" وبيت المقدس، وتقدموا إلى "غزة" دون أن يلقوا مقاومة تذكر.

أحداث المعركة :

أرسل هولاكو خان قائد الجيش التتري رسالة تهديد مع أربعين رسولًا إلى الملك المظفر قطز، هذا الأخير جمع الأمراء، واتفق معهم على قتل رُسُل هولاكو، كل مجموعة منهم أمام باب من أبواب القاهرة، وعُلقت رؤوسهم على باب "زويلة"، فالملك قرر محاربة التتار وكان قراره نهائيًا لا رجعة عنه خصوصًا بعد أن ترددت المعلومات الموثوق بها عن زحف التتار باتجاه مصر، كما علم المصريون باستيلاء التتار على سورية وفلسطين، كما وصل إلى القاهرة.
شرع الملك المظفر قطز في حض الأمراء على الاستعداد لحربهم وجمع المحاربين من مصر وعساكر الشام من التركمان، وأعلن الدعوة إلى الجهاد في سبيل نصرة دين الله ورسوله وأخذ يجمع المال وينفقه على تجهيز الجيش وقد أفتى العز بن عبد السلام بيع الحلي والجواهر في سبيل الجهاد ومحاربة المغول.
وأمر الملك المظفر أحد قواده الأمير ركن الدين بيبرس بالمسير بقطعة من الجيش ليستكشف تجمعات التتار، فسار إلى أن وجد طليعة لهم فأخذ في مناوشتها إلى أن لحق به السلطان في موقع عين جالوت.

وفي يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان عام 658 للهجرة جاء التتار بجموعهم الهائلة، والتحم الجيشان، وقرعت طبول الحرب حيث بلغ عدد جنود السلطان قطز وقائده الظاهر بيبرس حوالي 20,000، وبلغ عدد جند التتار حوالي 20,000 بقيادة كتيغا الذي خلف هولاكو بعد عودته إلى قراقورم.

قسم قطز الجيش إلى قسمين:القسم الأول الطلائع بقيادة بيبرس والقسم الثاني احتياطي يختبيء بين الوديان والتلال المجاورة لصد الهجوم أو قوات الدعم؛ فقام الظاهر بيبرس بهجوم سحب على إثره الخيالة من جند العدو إلى الكمين وانقض عليهم جيش قطز ،اعتقد كتبغا أن قواته انتصرت فتقدم فتم تطويق قواته أيضًا؛ إلا أن الجيش الإسلامي اضطرب؛ فتقدم القائد قطز نحو جنوده وألقى بخوذته على الأرض وصاح فيهم بأعلى صوته "واإسلاماه" وحمل بنفسه ومن معه حملة صادقة، وقتل"كتبغا" قائد التتار وعدد من الأمراء الذين كانوا معه، وانهزم الجيش التتري واندفعت الجيوش المسلمة تطاردهم أسرًا وقتلًا حتى
وصلوا إلى بيسان، وهناك التحمت باقي أفول الغزاة بجيش لهم في تلك البلدة فاشتد القتال مرة أخرى؛ إلا أن الجيش الإسلامي وأمراءهم استماتوا وكروا كرة عظيمة على التتار فكان النصر المؤزر من الله عز وجل وكان الدحر والهزيمة لجيش الغزاة، كان انتصارًا للعقيدة لا مراء.

عوامل انتصار المسلمين في المعركة:

التقارب في عدد المقاتلين من الطرفين.
الحنكة والخطة العسكرية المُحكمة فكانت كتلك التي قاتل بها المسلمون
في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي.
ربط المسلمين القتال بالجهاد والعقيدة والدين عكس التتار الذين لا دين لهم
ارتفاع معنويات جيش المسلمين بعد انتصارهم على التتار بقيادة بيبرس عند مدينة غزة قبيل المعركة.

قيام هولاكو بسحب أغلب جنده عندما ذهب لاختيار الخاكان الأعظم، ولولا ذلك لكان من الصعب تحقيق النصر فغياب هولاكو كان في صالح المسلمين.

ايمان الملك قطز بالنصر و ثقته في الله عز وجل و تثبيت جنده حيث أظهر لهم الفرق بين من يقاتل لأجل دين الله وبين المغول.

تحديد المسلمين موقع المعركة في عين جالوت حيث عين ماء، ومرتفعات.

مقتل قائد التتار كتبغا مما حطم معنويات الجيش التتاري و دب الرعب في قلوبهم مما أدى إلى هروب العديد منهم.

اقتناع المصريين بأن لا حل إلا بالانتصار؛ فالخسارة تعني احتلال مصر، و مسح حضارتها مثل فارس و العراق.

وتدور عجلة التاريخ؛ لنشهد اليوم جيشًا من التتار يحتل أراضينا، فما أشبه غزو التتار بغزو الصهاينة، وما أشبه دعم الصليبيين القدامى للتتار بدعم الصليبيين الجدد للصهاينة، وما أحوجنا اليوم إلى الملك المظفر قائدًا يتخذ الهجوم مبدأ، ولا يكتفي بالدفاع، ويتخذ العمل منهجًا ولا يكتفي بالكلام، ويقاتل العدو الصهيوني في الأرض المحتلة، ولا ينتظر أن يقاتله في أرضه، ويطلب الموت لتوهب له الحياة.

الفصل الخامس

الإسلام والغرب

الغرب جزء من أمة الدعوة:

الغرب جزء من أمة الدعوة، فقد علم من دين الإسلام بالضـرورة عموم بعثته ع ، فهو رحمة الله إلى العالمين، ورسوله إلى الناس أجمعين، الغرب والشرق في ذلك سواء، ولهذا شاع في المصطلحات الإسلامية تعابير: أمة الدعوة وأمة الإجابة، أمة الدعوة هي العالم بأسره، وأمة الإجابة هم من آمن به صلى الله عليه وسلم ، واتبع النور الذي أنزل معه، وللغرب في هذه المنظومة من الخصوصية ما ليس لغيرهم من بقية هذه الأمة، فجذورهم ترجع في الجملة إلى أهل الكتاب، ولأهل الكتاب من الخصوصية ما ليس لغيرهم، فقد أباحت الشـريعة طعامهم، وأحلت نكاح نسائهم، بما لم تجزه مع فئة أخرى من غير المسلمين، وعقدت لأهل الكتاب الأمان في مجتمعاتها، وأعطتهم على ذلك ذمة الله ورسوله، وللنصارى منهم اعتبار أخص ورد ذكره في كتاب الله عز وجل عندما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية 82]، وقد كانت دعوته ع صك تحرير للبشرية كل البشـرية، ووثيقة إعلان لحقوق الإنسان جنس الإنسان، تخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام وكانت الرسالة الأولى المنوطة بهذه الأمة هي حمل هذا النور النبوي إلى مختلف أرجاء الأرض، وفتح مغاليق القلوب لهذا الحق،

فالأمر إذن ليس خصوصية عداء للغرب، ولا خصوصية موالاة للشرق، فإن كلا من الغرب والشرق يتضمن البر والفاجر، وينتظم في سلكه المسلم والكافر، ولا يعقد ولاء ولا براء في الإسلام على غرب ولا شرق، وإنما يعقد على أساس الإيمان بالله ورسله، فقد حرر الإسلام بني البشر من التعصب للأعراق والألوان والألسنة، ومحض ولاءهم للحق الذي نزل من عند الله، وأمرهم أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، وهو بهذا لا يفرق بين من يقيم في دار الإسلام أو يقيم خارجها، فهذه شريعة عامة تخاطب المسلم أينما كان، فوق كل أرض وتحت كل سماء،

فالمسلم لا ينصر أحداً على باطل، مسلما كان أو غير مسلم، فردا كان أو كيانا سياسياً، غربياً كان أو شرقياً، قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المجادلة: الآية 22]

أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة: الآية 24] فأمر تعالى بمباينة من حاد عن الحق فطغى، واستحب العمى على الهدى، ولو كان من أقرب الأقربين ، فالقضية إذن ليست موقفا يقفه المسلم ضد الغرب عامة، ولا ضد دولة بعينها منه بصفة خاصة، وإنما هو منهج عام، الشرق والغرب فيه سواء، فلو أن أحداً من بني قومه تعدى وجار، فإن نصرته له أن يضرب على يده، وأن يمنعه من الظلم، لا أن يشاركه فيه، أو يعينه عليه، فإن من نصر قومه على الباطل،

فهو كالبعير الذي تردى، فهو ينزع بذنبه! كما قال صلى الله عليه وسلم، وليس لنا مثل السوء! وقد رأينا في تاريخ الإسلام من ذلك العجب، لقد رأينا كيف حرر الإسلام أتباعه من وصمة التعصب الأعمى للقبيلة أو العشيرة ، بل ولأواصر النسب والرحم والقربى، عندما لا تكون على الحق، ولقد كانت غزوة بدر امتحاناً لهذا المعنى في نفوس المؤمنين، فانتصر الولاء للإيمان على الولاء لكل ما سواه، ولن تنسى ذاكرة التاريخ ما وقع في فتح سمرقند عندما استعدى أهلها عمر بن عبد العزيز على القائد الفاتح، لأنه دخل عليهم ديارهم قبل دعوتهم إلى الإسلام، فأمر قاضيه أن ينصفهم، فقضى ببطلان الفتح، وإخراج الجيوش الفاتحة المنتصرة خارج سمرقند، حتى تستوفى إجراءات الفتح كافة، كما جاءت في النصوص الشرعية، وانسحبت القوات فعلاً، وكان ذلك سببا في إسلام أغلب أهل سمرقند!

ليسوا سواء:

هذا وإن أهل الملل الأخرى في الغرب أو غيره ليسوا سواء، فكما أن أهل البدع الموافقين لهذه الأمة في أصل الدين ولكنهم يخالفونهم في بعض الأصول الكلية القطعية ليسوا سواء: فمنهم الرؤوس والأئمة ومنهم العامة وأشباه العامة وبين هؤلاء وأولئك مراتب، ولكل فريق من المعاملة والأحكام ما يستحقه، ومن الظلم البين أن نسلك الجميع في نسق واحد.

قال ابن القيم –رحمه الله – في الطرق الحكمية: (فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم فهؤلاء أقسام: أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادراً على تعلم الهدى وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً.

القسم الثاني: المتمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق ولكن يترك ذلك اشتغالا بدنياه ورياسته ولذته ومعاشه وغير ذلك فهذا مفرط مستحق للوعيد آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى ردت شهادته وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قبلت شهادته.
القسم الثالث: أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويتركه تقليداً وتعصباً أو بغضاً أو معاداة لأصحابه فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقا وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل) الطرق الحكمية ص254.

نقول: إذا كان هذا التفصيل في أهل البدع على النحو الذي أحكمه يراع ابن القيم رحمه الله، فإن هذا المبدأ يرد في أهل الملل الأخرى، فإن أهل الملل الأخرى المخالفين لهذه الأمة في أصل الملة ليسوا سواء: فمنهم المسالمون ومنهم المعتدون، ومنهم الجهلاء ومنهم المعاندون، ولكل فريق حكمه، وما يناسبه من ألوان التعامل، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، ولم تأت شريعة الله عز وجل بالتسوية بين المختلفين ولا بالتفريق بين المتماثلين، وبالعدل قامت السماوات والأرض، وقد تفاوت هديه صلى الله عليه وسلم في معاملة أهل الملل الأخرى من القتال إلى الموادعة المطلقة أو المؤقتة حسب ما يستحقه كل فريق وحسبما تقتضيه المصلحة العامة لجماعة المسلمين، وهكذا ينبغي أن يكون مسلك من يرثونه ويقومون في الناس مقامه من بعده بأبي هو وأمي ع ، وفي سورة الممتحنة تأصيل لهذا الحكم الكلي حيث فرقت بين المسالمين والمعتدين، وجعلت ذلك قرآنا يتلى على مدى الزمان وعلى مدى المكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وينطفئ سراج الحياة! ولهذا فإن من الخطأ البين هذا التعميم الذي نلمسه من بعض المشتغلين بالعمل الإسلامي في بعض المواضع عندما يصنف أمة بأكملها أو قارة بأكملها في موقف المحارب بإطلاق أو المسالم بإطلاق، فلم يزل في كل أمة المسالمون والمعتدون والجهلاء والمعاندون، فالتسوية بين القادة والمقودين والتسوية بين الرؤساء والمرؤوسين، وإطلاق

القول بأن الجميع محارب والجميع في مقام التهييج على هذه الأمة من الإطلاقات الفاحشة التي تحتاج إلى مراجعة، وقد رأينا مظاهرات حاشدة في مجتمعات كثيرة تعلن رفضها لسياسات قادة بلادها وتأييدها لحق الشعوب المعتدى عليها في الانتصار والمقاومة، ومن هؤلاء من حوكم، وتعرض لعقوبات جائرة بسبب هذه المواقف، والذي يقتضيه العدل وتقتضيه المصلحة العامة للإسلام والمسلمين تثمين مواقف هؤلاء، والتمييز بينهم وبين المعتدين من بني جلدتهم، بل واستثمار مواقفهم في نصرة الحق الإسلامي، وإقامة الحجة على الذين ظلموا منهم!

البر والقسط هو أساس العلاقة في التعامل مع المسالم من غير المسلمين:
وقد جعل الله برهان ذلك قرناً يتلى إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة: الآية 8] والبر هو أعلى درجات حسن الخلق، ومنه برّ الإنسان لأمّه وأبيه، وقد ندبت إليه الآية الكريمة في التعامل مع المسالمين من غير المسلمين، وقال تعالى: ﴿.. فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: الآية 90] ومن ذلك كفالة حقوقهم، وحفظ عهودهم، ومواساتهم في مصابهم، وتهنئتهم فيما لم يكن من خصوصيات دينهم من مناسبات اجتماعية، وإقامة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتبادل الخبرات في مختلف مناحي الحياة، وغيره.

ومن صور البر والقسط وقوع التعاون المثمر والعادل معهم في كل ما يمثل مصلحة مشتركة للفريقين، وقد رأينا حديث النبي ع عن حلف الفضول وكان ذلك في الجاهلية، حيث اجتمع رؤساء قريش وزعماؤها وتعاهدوا فيما بينهم على: مساعدة الضعيف، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج، ولقد حضره رسول الله ع يومئذ وقال في الإسلام بعد ذلك: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أحبّ أنّ لي به حُمر النِّعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت".

وقد تنشأ بعض الوشائج النفسية مع فريق من غير المسلمين لاعتبارات اجتماعية كقرابة أو مصاهرة أو مصلحية كتجارة وتبادل منافع ونحوها وهي لا تزال في إطار العفو، ما لم تحمل على إبطال حق أو إحقاق باطل أو إسقاط واجب أو فعل محرم أو تزين مظاهرتهم على المسلمين، وكل ما جاء في القرآن من النهي عن موادة القوم إنما ينصرف إلى المحاربين منهم، وقد أجاز الإسلام الزواج بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، والمصاهرة تنشئ من الوشائج النفسية ما لا يجحد، ولكن هذه الوشائج ليست من جنس الحب في الله الذي جعله

الله تعالى وقفا على جماعة المسلمين، فالمسلم أخ المسلم، ولو لم يلقه في حياته، ولو لم يدخل معه في معاملة قط، ومحبته لله في الله لا تزيلها الخلافات الطارئة ولا الاختناقات العابرة، فهي رابطة وثق الله عراها بيده فلا يحل لأحد أن يفصمها كائنا من كان، أما محبة غير المسلم فهو التي تنشئها مثل هذه الاعتبارات ، توجد بوجودها وتنهي بانتهائها.

تعظيم عقود الأمان والوفاء بمقتضياته:

ومن معالم العلاقة مع الغرب خاصة أو مع غير المسلمين بصفة عامة تعظيم ما يعقد معهم من عقود الأمان والتي تمثلها المعاهدات والاتفاقات الدولية المعاصرة على مستوى الدول، أو تأشيرات الدخول والاستقدام على مستوى الأفراد والأمان عهد بالسلامة من الأذى، ويعرفه الفقهاء بأنه عقد بين المسلم وغير المسلم على الحصانة من لحوق الضرر من كل منهما إلى الآخر، سواء منه أو ممن وراءه، إلا بحقه، ومثله الجوار، وقد عنون البخاري في صحيحه فقال: (باب أمان النساء وجوارهن) فإذا أعطي الأمان أهل الحرب حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم.

والعقود التي تفيد الأمان ثلاثة: الأمان، والهدنة، والذمة.

فإن تعلق الأمان بعدد محصور فذلك الأمان.

وإن كان إلى غاية فتلك هدنة.

وإن كان مؤبدا فهذه هي الذمة.

والهدنة والذمة من أعمال السيادة التي تفوض إلى السلطة العامة، بخلاف الأمان فإنه حق لهذه السلطة ولكل مسلم بالغ عاقل.

دليل مشروعية الأمان:

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية 6]

قوله ع: (ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) (متفق عليه) يقول الحافظ بن حجر: (ذمة المسلمين واحدة) أي أمانهم صحيح، فإذا أمن الكافر واحد منهم حرم على غيره التعرض له.

حديث أم هانئ قالت: ذهبت إلى رسول الله ع عام الفتح ، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: من هذه ؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال : (مرحبا بأم هانئ)، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثمان ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابن أمي

أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ع: (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ) وقيل هما رجلان: جهدة بن هبيرة ورجل من بني مخزوم كانا فيمن قاتلا خالد بن الوليد ولم يقبلا الأمان، فأجارتهما أم هانئ وكانا من أحمائها.

من يمنح الأمان:

الأمان يصح من كل مسلم بالغ عاقل مختار، ذكراً كان أو أنثى، حراً كان أو عبداً، وفي أمان الصبي والعبد خلاف بين أهل العلم.

وقد جاء في المغني عن فضيل بن يزيد الرقاشي أن عمر بن الخطاب جهز جيشاً فكنت فيه فحاصرنا موضعاً فرأينا أنا سنفتحها اليوم، وجعلنا نقبل ونروح، فبقي عبد منا فراطنهم وراطنوه، فكتب لهم الأمان في صحيفة وشدها على سهم ورمى بها إليهم فأخذوها وخرجوا، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فقال: العبد المسلم رجل من المسلمين ذمته ذمتهم!

بم ينعقد الأمان؟

ينعقد الأمان بكل ما يدل عليه من لفظ سواء أكان صريحاً أم كان كناية، كما ينعقد بالكتابة أو الرسالة أو الإشارة المفهمة.

وشبهة الأمان في هذا الباب كالأمان، فكل إشارة يفهم منها العدو أنه قد أمن فهي أمان ولو قصد المسلون بها إلى نقيض ذلك، وقد جاء في فقه المالكية: (ثم الأمان يكون بلفظ أو إشارة مفهمة، أي شأنها فهم العدو الأمان منها، وإن قصد المسلمون بها ضره كفتحنا المصحف وحلفنا أن نقتلهم فظنوه تأمينا فهو تأمين) بل إذا أمن أحد من عامة المسلمين حربياً، ولم تمض السلطة العامة أمانه فلا يحل الإضرار بهذا المؤمن بل يجب أن يرد إلى مأمنه ، لأن له شبهة أمان وهي قائمة مقام الأمان في عصمة دمه وماله ووجوب رده إلى مأمنه.

جاء في شرح الزرقاني على مختصر خليل: (إذا نهى الإمام الناس عن التأمين فأمنوا، فإنه لا ينفذ إلا إذا أمضاه الإمام فإن لم يمضه رده إلى مأمنه) (شرح الزرقاني على مختصر خليل : 3 / 122)

ويقول الأوزاعي: (إن غزا الذمي مع المسلمين فأمن أحداً، فإن شاء الإمام أمضاه، وإلا فليرده إلى مأمنه) (فتح الباري 6 / 316)

وعلى هذا فيدخل في صور الأمان في واقعنا المعاصر تأشيرات الدخول المتداولة بين الدول، ودعوات الزيارة سواء من الأفراد أو من المؤسسات أو من قبل الدولة، وعقود العمل واستقدام الفنيين والخبراء ونحوه.

الآثار المترتبة على الأمان:

إذا انعقد الأمان ترتب عليه التزام المسلمين بعدم إلحاق الضرر بالمؤمن سواء أكان المؤمن هو الحربي في دار الإسلام، أم كان المؤمن هو المسلم في دار الحرب.

يقول ابن قدامة في المغني: (الأمان إذا أعطي أهل الحرب حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم) (المغني : 10 / 432).

ويقول الشافعي في الأم: (إذا دخل قوم من المسلمين بلاد الحرب بأمان فالعدو منهم آمنون إلى أن يفارقوهم، أو يبلغوا مدة أمانهم، وليس لهم ظلمهم ولا خيانتهم) (الأم للشافعي: 4 / 248)

ولا يحل لمسلم أن يخيس في عهده، فالغدر قبيح عند الأمم كلها، فضلاً عن هذه الأمة التي تتبوأ مقام الشهادة على الأمم قاطبة، ولكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته، وقد بين النبي ع أن من خصال المنافق : إذا عاهد غدر، و في حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ع: (من قتل نفساً معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً) رواه البخاري، فمن كان بينه وبين قوم ميثاق وجب عليه أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، ولا يحل له أن ينكث فيه بحال، وإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم على سواء، وأعلمهم بالمنابذة والمصارمة، والنصوص في ذلك صريحة وقاطعة! قال تعالى(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية 58] ومعنى قوله تعالى: فانبذ إليهم على سواء: أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك. (تفسير ابن كثير : 578)

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنوا منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر! وفاء لا غدرا! إن رسول الله ع وسلم قال: (ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عقدة، ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء، قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة.

ويقول النووي رحمه الله: (واتفق العلماء على جواز خداع الكفار كيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض لعهد أو أمان فلا يحل) (صحيح مسلم بشرح النووي: 7 / 320).

والذي نخلص إليه أن دخول المسلم إلى إحدى دول الغرب دخولاً رسمياً بموجب التأشيرة التي تمنح له يعتبر بمثابة عقد أمان موقت، يوجب عليه أن يأمنه هؤلاء على دمائهم و أموالهم وأعراضهم، وألا يخالف أنظمة بلادهم ما أقام بين أظهرهم، إلا ما تعارض منها مع دينه، لأنه عقده مع ربه أسبق و أوجب و أولى بالوفاء، لا سيما و أن دساتير هذه البلاد تكفل الحرية الدينية لكل من يقيم على أرضها، و تعتبر ذلك من المهام الأولية للدولة.

وقد رأينا شؤم الغدر في تاريخنا وكيف جر على الأمة ما جر من الويلات والنكبات، ولا تنسى ذاكرة التاريخ ما جرى للأمة من شنائع ومجازر على أيدي التتار وقد كان أول ذلك حماقة ارتكبها أحد ملوك المسلمين وغدراً ببعض رسل التتار وقد دفعت الأمة ثمن ذلك فادحاً فيما توالى بعد ذلك من أهوال جسام تقشعر لهولها الأبدان!

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: (وقد قتل جنكيز خان من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البداءة من خوارزم شاه) (فإنه لما أرسل جنكيز خان تجاراً من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده فانتهوا إلى إيران، فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه وأخذ جميع ما كان معهم) فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضىً منه، أم أنه لم يعلم به فأنكره؟) (وقال فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يُقتلون، لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذي يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك) كانوا مسلمين (فقتلهم نائبك، فإن كان أمراً أمرتَ به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتصُّ من نائبك.

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان، لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه(فأساء التدبير، وقد كان خرَّف، وكبرت سنه، وقد ورد في الحديث: اتركوا الترك ما تركوكم، فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع).

المحافظة على الحرمات خارج ديار الإسلام:

ومن معالم العلاقة مع الغرب أن تبذل لهم حقوقهم في الدعوة إلى الله عز وجل، وتألف قلوبهم على الإسلام خاصة ممن يقيم بين أظهرهم من المسلمين، فإن على المسلم المغترب خارج ديار الإسلام رسالة سامية تتمثل في حفظ الإسلام على أهله ودعوة غير المسلمين على الإسلام، وأول ذلك وآكده أن يحافظ المسلمون على هويتهم في هذه المجتمعات باجتماعهم على الإسلام وتحاكمهم إلى الشريعة، وإقامة ما يتسنى لهم إقامته من معالم الدين وأن لا يستيحوا شيئاً من المحرمات بحجة الإقامة خارج ديار الإسلام، فإن المسلم مطالب بتقوى الله حيثما كان، والدعوة بلسان الحال أبلغ من الدعوة بلسان المقال، فإن حال واحد

في ألف واحد أبلغ من مقالة ألف واحد في واحد، ونحن نؤكد على هذا المعلم نظراً لما شاع في بعض أوساط بعض الجاليات الإسلامية المقيمة في المجتمعات الغربية من الترخص في بعض المحرمات القطعية في الشريعة بدعوى أن المسلم ليس ملتزماً بإقامة أحكام الإسلام الاقتصادية والمالية خارج ديار الإسلام، وأنه يباح في دار الحرب من العقود الفاسدة ما لا يباح مثله داخل ديار الإسلام، وقد ترتب على ذلك استباحة كثير من هذه الحرمات مما يوشك أن تنتقض معه عرى الإسلام عروة عروة في هذه الأوساط وفي ذلك من الخطورة على حاضر الدعوة ومستقبلها في هذه المواقع مافيه الأمر الذي يقتضي ضرورة التنبيه والنكير، إذ لا شيء يحمل الناس على الإصغاء لدعوة الحق في هذه المجتمعات مثل أن يكون الدعاة إليه والمتبعون له ممن يقيمونه في حياتهم، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ولقد مضى على إقامتنا في هذه المجتمعات أكثر من خمسة عشر عاما وكل يوم ينقضي يزيدنا إيمانا بهذه الحقيقة، فلم نمل من تكرارها على مسامع الجاليات الإسلامية المقيمة في الغرب: أقيموا الإسلام في نفوسكم تفتح له أسماع الآخرين وأفئدتهم، وإن من آكد وسائل البلاغ في هذا المجتمع إقامة جالية مسلمة قوية تحل الحلال وتحرم الحرام وتقف حيث أوقفها الله ورسوله، وتقدم للناس في هذه المجتمعات شهادة الواقع بعد شهادة النصوص والأدلة أن الحياة في رحاب الإسلام نعمة لا تعدلها نعمة، وأنها ممكنة وليست ضربا من الخيال أو ضغثا من الأحلام! ولا يخفى أن انتشار الإسلام في كثير من بقاع العالم كان من خلال التجار الدعاة الذين حملوا أخلاق الإسلام إلى هذه المجتمعات ففتحوا بها قلوبهم واستنارت بها بصائرهم واستجابت لدعوة الحق.

هذا وإذا كانت المحافظة على الهوية الإسلامية في هذه المجتمعات تتمثل في الاجتماع على الإسلام بإقامة الشعائر واجتناب المحرمات، مع اعتبار الضرورات على أن تقدر بقدرها ويسعى في إزالتها. فكيف يتأتى دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أو حتى تعريفهم به في ظل جالية يتملك المسلمون فيها محلات لبيع الخمور والخنزير ويسهمون في إشاعتها في هذه المجتمعات، ثم يقولون للناس إننا أتباع دين يحل لأتباعه الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وإنه يحرم عليهم الاتجار في الميتة والخمر ولحم الخنزير، وينهى عن الزنى والربا وأكل أموال الناس بالباطل؟ أيا كانت المرتكزات الفقهية لهذا الترخص وأيا كان حظ القائمين عليه من النظر؟

وإن ما نسب إلى السادة الأحناف أو من غيرهم عن دار الحرب وعن جواز التعامل فيها بالعقود الفاسدة يجب أن يؤخذ في سياقاته الاجتماعية والسياسية والتاريخية، فلم يكن أهل الإسلام فيما مضى يتوطنون خارج ديار الإسلام بصورة دائمة، وينشئون في مهجرهم مراكزهم ومؤسساتهم الإسلامية، ويتاح لهم فيها من حرية الدعوة وحرية العمل وحرية الكلمة ما هو متاح لجالياتنا المسلمة المقيمة في الغرب، والتي يفوق تعداد بعضها عدد السكان الأصليين من بعض دول عالمنا الإسلامي! ويتحدثون فيها عن قضية توطين الدعوة وتحويلها من دعوة مهاجرة يحملها طلاب وافدون يقيمون فيها بصورة عارضة إلى متوطنين أصليين يحملون جنسية هذه المجتمعات ويوطنون لإقامتهم فيها بصورة نهائية أو شبه نهائية؟!! وفي إطار هذه النظرة تغير موقف فقهائنا من قضية التجنس فلم تعد تحمل ما كانت تحمله من دلالات أدت ببعض أهل الفتوى إلى القول بردة المتجنس عن الإسلام في وقت من الأوقات!

إن الإصرار على تسمية هذه المجتمعات دار حرب سوف يحمل من اللوازم ما لا يقول به ولا يلتزمه أشد الناس تحمساً لهذا الإطلاق من حرمة الإقامة فيها وعدم الاعتداد بدماء المقيمين فيها ولو كانوا من المسلمين وانفساخ عقود الزواج بين الزوجين إذا هاجر أحدهم إلى هذه الديار وغير ذلك مما هو مسطور في بعض كتب السادة الأحناف ولا يقول به من يتحمس لهذه التسميات!
لقد كان فقهاؤنا فيما مضى يتحدثون عن حرمة السفر بالمصحف إلى ديار الكفار وكانوا مصيبين في ذلك غاية الإصابة في ظل السياقات التاريخية والسياسية السائدة يومئذ، واليوم نفس هؤلاء الفقهاء يتنافسون في حث الأمة على طباعة المصاحف وترجمة معانيها ونقلها إلى هذه البلاد، ويعتبرونها قربة من أجل القربات، وهم اليوم مصيبون في ذلك أيضا غاية الإصابة، لتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والظروف والأحوال.

كيف يتأتى المحافظة على الهوية الإسلامية مع تبني هذا المذهب؟

أن فتح هذا الباب سيفتح باباً عريضاً واسعاً إلى خلع الربقة والتفلت من التكاليف، فسوف يمتد الأمر إلى الربا والميسر، وفي الولايات المتحدة ولاية يقوم اقتصادها كله على الميسر، ويؤمها المترفون والذين في قلوبهم مرض من بني جلدتنا وفضائحهم في هذا الشأن باتت تزكم الأنوف! وقد يتدرج الناس من استباحة العقود الفاسدة في باب الأموال إلى استباحتها في باب الأبضاع! ألم تر إلى ما يشيع في هذه المجتمعات من المراقص والأندية الليلية،وهي مشروعة من الناحية القانونية وتتم تحت سمع وبصر المسئولين في هذه المجتمعات، فهل
على المسلم من حرج إن هو عمل في هذه البارات والمراقص باعتبارها من العقود الفاسدة التي أجازها السادة الأحناف ليتذرع بها إلى اخذ أموالهم التي هي بناء على تخريجهم على أصل الحل؟ وهل يجرؤ على القول بذلك عالم أو غير عالم؟

وإذا أبيح الأمر أبيحت الوسائل المفضية إليه فإذا جاز بيع الخمر ولحم الخنزير جاز السعي إلى تملكها لبيعها فلا حرج على المسلم أن يتملك مزرعة لتربية الخنزير أو مصنعا لإنتاج الخمور فإنه إن فعل كان هذا أحظى له في باب المال، فمن مزارعه أو من مصانعه إلى المستهلك مباشرة! وذلك أحظ له وأكثر استجلابا لأموالهم التي هي على أصل الحل! بل لا حرج في فتح بعض المؤسسات التعليمية لتعليم أصول الميسر رجاء أن يتخرج فيها مقامرون محترفون يجيدون فنون هذه اللعبة ويتمكنون معها من استجلاب أموال القوم، ما دامت على اصل الحل، وما دامت الذريعة إلى الحلال حلالاً؟ لأن الأصول التي أجازت بيع الخمر والخنزير لغير المسلمين قد يعول عليها نفسها في إجازة السعي إلى امتلاك مشروعات اقتصادية تستثمر في هذا المجال بجامع استجلاب أموال القوم التي هي ابتداء على أصل الحل!

ومن ثم فلا أحسب عالما منصفا يقر مثل هذا المسلك الفقهي في ظل كل هذه المتغيرات في واقعنا المعاصر مهما كان حظ هذا المذهب من النظر؟

إعلان النكير على المعتدين:

وإذا كان هذا هو أساس المعاملة مع المسالم لأهل الإسلام من غير المسلمين فإن للذين ظلموا منهم منهجا آخر في التعامل يبدأ من إعلان النكير والاحتجاج بالكلمة والتظاهر والمقاطعة ونحوه، وينتهي بالمجالدة بالسيوف بحسب مدى تحقق القدرة وتوقع الظفر وغلبة المصلحة، ونظراً لمسيس الحاجة إلى شيء من البسط فيما يتعلق بالتظاهر والمقاطعة فقد رأيت أن أفردهما بكلمة مستقلة نظرا لشيوعها في واقعنا المعاصر.

التظاهر وسيلة من وسائل الإنكار التي ألفتها المجتمعات الغربية

التظاهر كما عرفه المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة هو إعلان رأي أو إظهار عاطفة في صورة مسيرة جماعية، وهو وسيلة معاصرة من وسائل التعبير عن الرأي، وتوجيه القرار السياسي في المجتمعات الديموقراطية، ويعد من الحقوق الدستورية المكفولة في معظم هذه الدول، وتنظم القوانين في العادة حدود ممارسة هذه الحق حيث تشترط له إذنا مسبقا وميقاتا محددا، وتحظر بطبيعة الحال المساس بالممتلكات والمرافق العامة.

والتظاهر كما لا يخفى مما تختلط فيه المصالح والمفاسد، وتتزاحم فيه المنافع والمضار، فهو يشتمل على جملة من المصالح كما يشتمل كذلك على جملة من المفاسد، وهذا هو الشأن في كثير الأمور في أزمنة الفتن وغربة الدين،

حيث تختلط المصالح والمفاسد، فلا تكاد تجد مصلحة محضة، ولا تكاد تجد مفسدة محضة، ويكون ذلك من أسباب الاختلاف والتفرق ، فمن الناس من ينظر إلى جانب المصلحة وحدها ويغفل النظر إلى المفاسد وقد تكون راجحة، ومن الناس من ينظر إلى جانب المفسدة وحدها ويضرب الذكر صفحا عن المصالح وقد لا تكون مرجوحة، ومنهم من يحاول الموازنة بينهما، وقد تنضبط الموازين في يده وقد تضطرب ، والمسدد من سدده الله عز وجل!

ولا يخفى أن الجهاد بالكلمة، وإنكار المنكر بالقول مما أحكم وجوبه في الشريعة، ويبقى النظر بعد ذلك في وسائله وأساليبه، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال. هذا. ويتمتع التظاهر في المجتمعات الغربية بالشرعية والحماية القانونية، وتنظم القوانين ممارسته كما تنظم ممارسة أي حق آخر من الحقوق المشروعة، وهو وسيلة من وسائل الضغط المشروعة للتعبير عن الرأي، وتشكيل الوعي السياسي لدى صناع القرار في هذه المجتمعات، وللناس في هذه المجتمعات دربة بممارسته، تحول دون أن يتحول إلى وسيلة من وسائل الفوضى أو التخريب للممتلكات والمرافق العامة.

وللمسلمين المقيمين في هذه المجتمعات رسالة لابد أن تبلغ، وفي أعناقهم أمانة يجب أن تؤدى، إن عليهم حماية عرض الإسلام وعرض الأمة المسلمة من سهام الشانئين والمبطلين، كما أن عليهم دعم القضايا الإسلامية في المعترك الدولي، بتصحيح الصورة المغلوطة التي تقدمها وسائل الإعلام في هذه المجتمعات، ثم بمحاولة الوصول إلى صناع القرار لعرض هذه القضايا وبسط بيناتها، ودحض أباطيل خصومها، وحملهم على شيء من العدل والإنصاف في التعامل معها، ولا يخفى أن القرارات التي تحاك في هذه المجتمعات ذات أثر بالغ ومباشر على المجتمعات الإسلامية، وكل ذلك إنما يتم من خلال الوسائل التي اعتمدتها هذه المجتمعات للتعبير عن الرأي، ولقياس توجهات الرأي العام، ولكل مجتمع آليته وأساليبه في ممارسة حقوقه وفرض إرادة مواطنيه.

وإذا أردنا أن نكيف هذا العمل بموازين الشريعة فنستطيع القول بأن التظاهر في الإطار الذي تقرره له المجتمعات الغربية يمكن أن يكون وسيلة من وسائل الصدع بالحق، وأسلوباً من أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبابا من أبواب الجهاد بالكلمة، ولا سيما إذا تعين في بعض المواقع وسيلة إلى تحقيق هذه المقاصد السابقة.

ولا يرد على هذا التكييف القول بأن بيننا وبين القوم بمقتضى الإقامة بين أظهرهم عهوداً وعقوداً تحتم عدم منابذتهم ومبادرتهم بالعصيان وإعلان التمرد، لأن التظاهر حق دستوري، تقرره دساتير هذه البلاد، وتنظمه قوانينها، وتكفل حرية التمتع به، وتحرس الممارسين له، ولا تحمل لهم هذه الحساسية التي تحملها الكيانات السياسية المتنفذة في المجتمعات الشرقية.

ولا يخفى من الناحية المقابلة أن التظاهر تكتنفه بعض المفاسد، منها:

إضعاف مفهوم الولاء والبراء، عندما يلتقي البر والفاجر، والمسلم وغير المسلم في فسطاط واحد، وفي خندق واحد، وعندما ترتبط مصلحة كل طرف بالآخر، فيحرص على استرضائه واستمالته، وعدم إثارة ما يسوؤه من الأقوال أو الأفعال أو المواقف.

ما يكتنف هذه التظاهرات من الاختلاط الفاحش بين الرجال والنساء، وتقديم الكاسيات العاريات في صورة الممثل للإسلام، والمتحدث عن الأمة، والمعبر عن همومها ومواقفها.

ما يؤدي إليه الاستغراق في هذا العمل من تراجع الجهود الدعوية والتربوية.

إضعاف مفهوم الجهاد والاستعلاء بالحق ومفاصلة أهل الباطل، ولفت القلوب عن التعلق بالله عز وجل، والتعويل في طلب النصـرة واستعادة حقوق الأمة على هذه الكيانات السياسية التي ما قامت ابتداء إلا لحربها، والتي أمعنت في النكاية في الإسلام والمسلمين.

ولا شك أن هذه المفاسد متفاوتة سواء في تحققها أو في جسامتها، ولكن أصلها موجود على كل حال، ومنها ما يمكن تطويقه وتقليل مفاسده، ومنها ما قد يعسر فيه ذلك، ولكن يبقى مقابلة ذلك بما يمكن أن يتحقق من المصالح، ومدى ما يبذل من الجهود للتقليل من هذه المفاسد.

محذور إضعاف مفهوم الولاء والبراء:

إن محذور إضعاف مفهوم الولاء والبراء وارد، والذريعة إليه قريبة، ولكن تعاظم هذا المحذور في بعض المواقع إنما يعكس هشاشة الجهود التربية التي يبذلها القائمون على العمل الإسلامي، والتي يفترض أنها تحصن السواد الأعظم من رجالهم من هذا المحذور، إن الولاء والبراء من حقائق التوحيد أو من مقتضياته، والتوحيد هو القضية التي يجب أن يعنى بها العاملون للإسلام في كل موقع، فوق كل أرض وتحت كل سماء، فإذا أحسن الدعاة القيام بهذا الواجب تراجع هذا المحذور، وفهمت هذه الأعمال في إطارها الصحيح، وأدرك الناس أن التعاون على عمل من أعمال البر العام لا يعني بالضرورة ولاء ولا قربى،

وأن التقاء المصالح في لحظة من اللحظات مع فريق من غير المسلمين، والسعي المشترك من أجل تحقيقها إنما هي تدابير مرحلية تمليها المصالح والحاجات أو الضرورات، ولا يعني بحال من الأحوال اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أو أن أولياء الشيطان قد صاروا أولياء للرحمن!
قضية الاختلاط بين الرجال والنساء:

أما قضية الاختلاط بين الرجال والنساء فهو مما عمت به البلوى في هذه المجتمعات، وليس هذا خاصاً بالتظاهرات وحدها، إن من ينكر هذه العمل بسبب الاختلاط يذهب في اليوم التالي إلى الجامعة، ويقضي السواد الأعظم من ليله ونهاره في مثل هذا الاختلاط أو أشد، وحيثما شرق أو غرب فالاختلاط يطارده، في الحافلة، وفي الطائرة، وفي المطعم، وفي السوق، وفي الشارع، وفي كل مكان، ومع هذا لم يقل أحد بتوقف الحياة بسبب هذا الاختلاط، وعلى الناس أن يلزموا بيوتهم، ويوقفوا مسيرة حياتهم بسبب هذا الاختلاط، وإنما يقال للناس: اتقوا الله ما استطعتم، واجتهدوا في تقليل هذه المفاسد ما استطعتم، وما يعجزكم فالتمسوا العفو عنه من الله عز وجل، والأصل إقامة المصالح الشرعية الكلية، وإن اعترض في طريقها بعض المناكر الجزئية.

ومن ناحية أخرى فإنه يتوسع في مقام الدفع العام بما لا يتوسع به في مقام التربية والبناء، أرأيت لو اشتعل حريق في بلد من البلاد، وتمثلت فريضة الوقت في تكاتف الجهود لإطفائه، هل يتسنى أن يصد عن المشاركة في ذلك أحد مهما كان له من القصور أو التقصير في بعض الجوانب؟ إن الجواب البدهي على ذلك هو النفي، وعندما تقيم المراكز الإسلامية عشاءً خيرياً لجمع التبرعات، يغشى هذه الاجتماعات البر والفاجر، وهي تفتح أبوابها للجميع، وتستقبل التبرعات من الجميع، بل لو جاءها تبرع غير مشروط من كافر قبلت به، ولا توقف قبول التبرع على تحقيق مستوى معين من التقوى لا تقبل الصدقة إلا به!

إن الأصل في خنادق الجهاد أنها تفتح لأهل الملة قاطبة برهم وفاجرهم ، بل إن الاستعانة بغير المسلم وإن كانت موضع نظر، فإن الراجح أن ما ورد من النهي عن ذلك منسوخ، وأن المسألة من مسائل السياسة الشرعية التي تفوض إلى نظر الإمام أو أهل الحل والعقد في جماعة المسلمين .

تراجع الجهود الدعوية:

أما تراجع الجهود الدعوية بسبب الاستغراق في هذا العمل، فلا يخفى أن هذه التظاهرات موسمية، وأنها ليست من الأعمال التي يستغرق فيها الناس ليل نهار، واشتغال الناس بها في إبان الإعداد لها لا يعني بالضرورة أنها تستغرق جل حياتهم بالكلية، أو أنها تصرفهم عن الجهود الدعوية والتربوية، اللهم إلا في فترات الإعداد وهي يسيرة ومحدودة. كما أنها ليست بديلا من الأعمال الدعوية أو التربوية بحيث يتعين على المسلم أن يختار إما أن يكون من المتظاهرين، أو مع الدعاة والمربين (!) وإنما هي محور آخر من محاور العمل الإسلامي يقف على التوازي مع بقية المجالات ليس بديلا منها ولا متعارضا معها، ومع هذا تبقى أهمية التذكير بهذه المحاذير وتنبيه الناس إليها ضرورة دعوية لا ينبغي أن يمل الناصحون من قولها، ولا أن يمل المشتغلون بهذه الأعمال من الاستماع إليها، فإنها تنبههم من غفلة، وتوقظهم من سنة، وتحول بينهم وبين أن تقتطعهم هذه الأعمال عن المسار الأصيل للحركة الإسلامية.

إضعاف مفهوم الجهاد:

أما ما ذكر من إضعاف مفهوم الجهاد والمفاصلة فهو موضع نظر بل قد يكون عكسه هو الصحيح، لأن هذه الدعوة لا تدعو إلى الانسحاب من ميادين القتال إلى ميادين التظاهر، وإنما تدعو المقيمين في هذه المجتمعات إلى أن يرفعوا أصواتهم بالإنكار على المظالم، وتعريف العالم بما يرتكب ضد إخوانهم من المجازر، وأنهم إن فاتهم شرف جهاد السيف لتقطع أسبابه فلا أقل من جهاد الكلمة، والتظاهر وفقا لآليات هذه المجتمعات من أقوى وأمضى صوره، وعلى هذا فلعل عكس ما ذكر في هذه المسألة هو الصحيح، إذ توقد هذه الأعمال جذوة الجهاد في النفس وتحرك فيها لواعج الشوق إليه!

صرف القلوب عن التعلق بالله عز وجل:

أما ما ذكر من لفت القلوب عن الله عز وجل والتعلق بغيره في طلب النصرة فهو محذور قائم في جميع الوسائل البشرية التي يسلكها المجاهدون، حتى في جهاد السيف نفسه، فإنه إذا وكل المجاهدون إلى أنفسهم، وأعجبتهم كثرتهم، وقالوا: لن نغلب اليوم عن قلة، فقد حبط العمل، وامتهد طريق إلى البوار والخيبة! نعم قد تكون الذريعة إلى هذا المحذور في باب التظاهر أبين وأقوى، ولكن المخرج لا يكون بإلغاء هذه الوسائل، وإنما بحسن التربية وحسن الإعداد، وإشاعة الربانية وتصحيح المفاهيم المغلوطة، ومرابطة الحراس للدين على هذه الثغور فلا تؤتى الامة من قبلهم! كون هذا العمل محدثا لم ترد الإشارة إليه في كتاب من كتب التراث.

أما ما ذكر من كون هذا العمل محدثا لم ترد الإشارة إليه في كتاب من كتب التراث، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، فلا يخفى أن الوسائل والأساليب الدعوية والجهادية لا تنحصر في صور معينة ، بل هي من مسائل الساسة الشرعية التي تدور في فلك الموازنة بين المصالح والمفاسد، إن إنشاء الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية واتخاذها منابر لاستفاضة البلاغ وإقامة الحجة لم يكن معروفا في عهد السلف ، فلا يحتج أحد بأن الصحف والمجلات لم تكن من هدي السلف، فهي رجس من عمل الشيطان، فيصادرها ويسعى في خرابها(!) وقل مثل ذلك في كل ما استحدث من آليات وأساليب، ولم يكن موضع نكير من أحد من علماء المسلمين، هذا بالإضافة إلى ما جاء في السيرة من اصطفاف المسلمين غداة الجهر بالدعوة في مسيرتهم التي خرجوا بها من دار الأرقم ليعلنوا على الملأ في مكة إسلامهم وبراءتهم مما يعبدون من دون الله، وخروج الناس يوم مؤتة للنكير على الجيش القادم لما قام به من مناورة وانسحاب يقولون لهم يافرار! فررتم في سبيل الله؟! فيقول لهم النبي ع: "بل هم الكرار إن شاء الله".

المقاطعة درءاً للصيال وكفاً للعدوان:

المقاطعة هي الامتناع عن معاملة الآخرين اقتصادياً أو اجتماعياً وفق نظام جماعي مدروس، وهي من وسائل المقاومة المشـروعة في واقعنا المعاصر، وقد قننتها المواثيق الدولية، وتتسع لها قواعد السياسة الشرعية.

وإذا كان الأصل هو حرية التعامل في الطيبات بيعاً وشراء، أيا كان المتعامل معه براً أو فاجراً، مسلماً أو كافراً، فإن المقاطعة عندما تتعين سبيلاً لدفع صيال أو كف عدوان فإنها تصبح من الوسائل المشروعة للمقاومة بل لا يبعد القول بأن تكون من الواجبات المحتومة، طبقا لما تمهد في الشـريعة من أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد حلا وحرمة.

وتطبيقاً لهذه القاعدة فإذا كان التعامل مع المعتدي يتضمن تقوية له وإعانة له على بغيه وعدوانه بما يصيبه من الربح، ووجد بديل من السلع التي تشترى من المعتدي سواء أكان من خلال استجلابها من مسلم أو من مسالم، فإن الأدلة الشرعية تتظاهر على حرمة هذا التعامل وتشدد النكير على فاعله.

ولقد كانت المقاطعة من أفعل الأسلحة في الحروب قديمًا وحديثًا، وقد استخدمه المشركون في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فآذاهم إيذاءً بليغًا.. واستخدمه المحاربون لهذه الأمة من المعاصرين فأحدث في المواضع التي استخدم فيها أضرارا فادحة، وما خبر العراق ببعيد!

والمقاطعة سلاح في أيدي الأمة دائماً فلا ينبغي أن تغلب عليه، لا سيما إذا أعوزتها الأسلحة الأخرى، وإذا ثبت مضاء هذه السلاح وشدة تأثيره! فلا تستطيع الحكومات مهما كانت مستبدة ومتسلطة أن تفرض على الناس أن يشتروا بضاعة من مصدر معين أو من دولة بعينها.

وعلى سبيل المثال لقد رأينا ما جرى في بعض الدول الغربية من اعتداء سافر على مقام خاتم الأنبياء، ومن صلف واستكبار من بعض القائمين على الأمر في حكومات هذه البلاد، ولما كانت هذه الدول تعتمد في جل اقتصادياتها على ما تصدره للعالم الإسلامي من منتجاتها الزراعية وغيرها فإن أدنى ما يمكن القيام به تعبيرا عن الاستياء والاستنكار لهذه الجريمة النكراء وصيانة لمقام النبوة من تطاول المعتدين هو الامتناع عن التعامل مع منتجات هذه الدول المعتدية وإشاعة هذا الأمر على مستوى الشعوب في مختلف أرجاء العالم الإسلامي باعتبار ذلك هو الصوت الوحيد الذي يتسنى الاستماع إليه في مثل هذه الأجواء والذي يمكن مع استمراره أن يضع حدا لهذه الجريمة التاريخية النكراء، وأن يمنع من امتدادها إلى ما جاورها من الدول.

ومن ناحية أخرى فإن في المقاطعة أبعادا تربوية ودعوية لا تقل في أهميتها عن الأبعاد الاقتصادية التي تتضمنها، فهي تتضمن فيما تتضمن ما يلي:

تربية الأمة على التحرر من العبودية والتبعية الاقتصادية لهذه السلع والمنتجات التي تستنزف بها مقدرات البلاد لصالح هؤلاء المعتدين.

إحياء مفهوم الولاء والبراء، وتجديد معاني الأخوة الإسلامية في صور واقعية ومحسوسة، وتأكيد معنى البراءة من المعتدين، وحمل حكوماتهم على القيام بدورها في الضرب على أيدي سفهائهم وكفهم عن عدوانهم .

وينبغي أن يصدر بهذه المقاطعة قرار من أولي الأمر، لتكون المقاطعة جماعية ولتكون آثارها فعالة وموجعة، فإذا تردد بعض الولاة في القيام بواجبهم لأي سبب من الأسباب انتقلت المسؤولية إلى العلماء، الذين يتعين عليهم أن يخاطبوا الأمة بذلك، فإن أولي الأمر في الأمة فريقان: أهل العلم وأهل القدرة: العلماء والأمراء، فإذا تباطأ الأمراء عن دورهم في حمل الأمة على ما يقتضيه النظر الشرعي فإن الأمور موكولة إلى العلماء، وقد أخذ الله عليهم الميثاق بالبيان، وتوعدهم أبلغ وعيد على الكتمان.

هذا وإن وجوب المقاطعة يشمل المستهلكين كما يشمل التجار المستوردين لهذه السلع حتى تتكامل الأدوار في تفعيل هذا السلاح ليكون منتجا لآثاره ومفضيا إلى مقصوده.

القتال في الإسلام إنما يكون لدرء الحرابة وكف العدوان، وليس للإكراه على الدين سواء أكانت الحرابة واقعة بالفعل، وهو ما يسمى بجهاد الدفع،أو متوقعة ولاحت نذرها بدلائل قوية وبينات يقينية وهذا هو جهاد الطلب، ولم تخرج حروبه كلها ع عن ذلك لمن تدبر السيرة وأمعن النظر في حروبه وغزواته ع. وهذا هو الذي عليه جمهور الفقهاء في هذه المسألة؛ والأدلة على ذلك كثيرة:

منه: قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية 256]

ومنها: ما شرع من تخيير الكفار بين الإسلام وبذل الجزية والقتال.

ومنها: النهي عن قتل من لا شأن له بالقتال، كالنساء والصبيان وكبار السن والمنقطعين للعبادة الذين لا يشاركون المقاتلين بالفعل أو الرأي.

وفي تقرير هذا الأصل يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-:"وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزَّمِن (الضعيف) ونحوهم، فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان –والأول هو الصواب- وذلك أن الله أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ [سورة البقرة: الآية 191] أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر" [السياسة الشرعية صـ (132) وما بعدها].

وصفوة القول في ذلك أن هذه الأمة أمة هداية، وليست أمة بغي وحرابة، وحيثما أمكن استحياء النفوس بالإيمان أو بالأمان فلا ينبغي العدول عن ذلك فإن الله تعالى لم يبح من قتل النفوس إلا ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، ولعل الله أن يخرج من أصلابها من يعبد الله تعالى ويوحده.

تعظيم أمر الدماء، وتغليظ العقوبة عليها:

أيها السادة: إن تعظيم أمر الدماء، وتغليظ العقوبة عليها، واشتداد غضب الله على المجترئين عليها بغير حق، مما استفاض تقريره في الشريعة المطهرة، وأكدت عليه نصوص الوحيين قرآناً وسنة، فلا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً، وكل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو مؤمناً يقتل مؤمناً متعمداً، ومن هنا كانت عقوبة القصاص في الشريعة، صيانة لدماء البشر، وحماية لها من المفسدين في الأرض! وكانت عقوبة الحرابة - وهي أشد وأغلظ - حماية للمجتمع من غوائل المارقين عليه، وتأكيد لحرمة الأمن العام في الشريعة المطهرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ

جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية 93] وقال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية 179] .

وهذا التعظيم للدماء في الإسلام شريعة عامة، لا يفرق فيها في الأصل بين مسلم وغيره، فلا تستباح الدماء في دار الإسلام إلا بإحدى ثلاث: القتل العمد العدوان، أو الزنا بعد الإحصان، أو الردة بعد الإيمان، قال ع: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة) ولا تستباح خارج دار الإسلام إلا في الحرب المشروعة التي تكون لدفع العدوان: العدوان على بلاد الإسلام، أو العدوان على الإسلام نفسه، بفتنة الناس عنه، أو صدهم عن سبيله، ووضع المعوقات في طريقه، ومصادرة حق البشر في اختياره، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية 190] وقال تعالى: ﴿ ﴾ [سورة النساء: الآية 75] وفرق بين الحرب المشروعة كما عرفتها مواريثنا الفقهية والتاريخية، والحرب المقدسة كما شاعت في الأوساط الغربية، والتي يراد بها إكراه أهل ملة على الدخول في ملة أخرى عنوة وتحت بارقة السيوف! فإن هذا ما لا يعرف له نظير في ملة الإسلام، انطلاقاً من هذا المبدأ القرآني الخالد﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [سورة البقرة: الآية 256]

ولهذه الحرب المشروعة شرائط وآداب لا تتحقق المشروعية إلا باستيفائها، منها على سبيل المثال: تجنب الغدر، فمن كان بينه وبين قوم ميثاق وجب عليه أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم، ولا يحل له أن ينكث فيه بحال، وإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم على سواء، وأعلمهم بالمنابذة والمصارمة، والنصوص في ذلك صريحة وقاطعة! قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية 58] ومعنى قوله تعالى:. فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ. عَلَى سَوَاءٍ ﴾: أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك) (تفسير ابن كثير : 578) وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد،

فأراد أن يدنوا منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر ! وفاءً لا غدراً! إن رسول الله ع قال: (ومن كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلن عقدة، ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء، قال: فبلغ ذلك معاوية ، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة.
ومنها تحريم القصد بالعدوان إلى غير المقاتلين، فإن من شريعته صلى الله عليه وسلم أن لا يقصد بالعدوان إلى غير المقاتلين، سواء أكانوا من النساء أو الأطفال أو الشيوخ أو الأجراء أو المنقطعين للعبادة في الصوامع والأديرة ونحوه. والنصوص في ذلك صحيحة وصريحة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ع فنهى رسول الله ع عن قتل النساء والصبيان (متفق عليه) وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن رباح بن الربيع رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ع فرأى الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلاً فقال: انظر علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء فقال: على امرأة قتيل! فقال: ما كانت هذه لتقاتل! قال وعلى المقدمة خالد بن الوليد قال: فبعث رجلاً فقال: (قل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفاً) ، وفي رواية عند ابن ماجه: انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله ع: يأمرك يقول : (لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً)، لا يستثنى من ذلك إلا حالة الاختلاط وانعدام القدرة على التمييز، كما لو تترس المقاتلون ببعض هؤلاء وجعلوا منهم دروعاً بشرية ونحوه.

ومن معالم العلاقة مع غير المسلمين إقامة العدل والقسط، وتحريم الانتقام بالظنة والتوزيع الجزافي للتهم، فالعدل في الإسلام شريعة عامة، لا تتفاوت بتفاوت الأديان أو الأوطان، وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة النساء: الآية 135] وقال تعالى: ﴿.. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المائدة: الآية 8]

ونحن بهذا لا ننكر حق البشر في دفع الصائل ورد العدوان، وملاحقة مرتكبي الجرائم والضرب على أيديهم، لكن هذا لابد أن يتم في إطار ضوابط الحق والعدل، التي اتفقت عليها الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية على حد سواء.

تحريم مظاهرة المشركين على المسلمين:

ومن معالم العلاقة مع غير المسلمين عامة تحريم مظاهرتهم على المسلمين، فالمسلم أخ المسلم، مهما اختلفت الألسنة والألوان والبلدان، فلا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره، ولا يظاهر عليه أحدا من المشـركين، ومثل هذه البدهيات لا تحتاج إلى حشد أدلة وسوق

براهين ، وحسبنا قول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [سورة الممتحنة: الآية 1] وقد نزلت هذه الآية وما بعدها في كتاب كتبه حاطب بن أبي بلتعة في لحظة من لحظات الضعف البشـري إلى أهل مكة يخبرهم فيه بما اعتزم عليه رسول الله ع من قتالهم، فكيف بمن يظاهر على فريق من أمته بالسلاح، ويشارك مشاركة فعلية فيما يشن عليه من حروب إبادة شاملة؟!

ولقد نعى الله على اليهود في كتابه اقتتالهم تحت رايتي الأوس والخزرج، فقد والى فريق منهم الأوس، ووالى فريق منهم الخزرج، فكان يقع القتال بين المعسكري، فيقاتل اليهودي المحالف للأوس اليهودي المحالف للخزرج، فإذا انتهى القتال كانون يفادون الأسارى من الفريقين، فنعى الله عليهم ذلك وجعله إيمانا ببعض الكتاب وكفراً ببعض، لأنهم يقتلونهم على خلاف حكم التوراة،

ففي حكم التوراة أن لا يقتل، ولا يخرج من داره، ولا يظاهر عليه من يشـرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا، ثم ويفتكون أساراهم ويدون قتلاهم نزولاً على حكمها وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية 84-85]

فقد نعى الله على اليهود اقتتالهم تحت رايتي الأوس والخزرج، ولم يجعل من وجودهم تحت هذه الرايات عذراً لهم، ومانعاً يمنعمن لحوق الإثم لهم، واستحقاقهم العقوبة في الدنيا والآخرة! ولقد رويعن ابن عباس ب أنه قال: (أنبهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنوا قينقاع مع الخزرج، وخرج النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم ولهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنةً، ولا ناراً، ولا بعثاً، ولا قيامةً، ولا كتاباً، ولا حلالاً، ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم - تصديقاً لما في التوراة، وأخذا به - بعضهم من بعض: يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلى من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره حيث أنبهم على ذلك: ﴿ ..ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ .. ﴾ أي تفادوهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل، ولا يخرج من داره، ولا يظاهر عليه من يشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة) (تفسير ابن كثير: 85).

وحدة الأمة سلماً وحرباً:

والمسلمون أمة واحدة، حربهم واحدة، وسلمهم واحدة، وليس لأحد أن ينحاز عن الأمة وأن يعقد دونها حرباً أو سلماً منفرداً بمعزل عن بقية المسلمين، فلا حرب ولا سلم من فريق من المسلمين إلا برضى وتشاور مع بقية المسلمين، فإن آثار هذه المواقف المصيرية لا يختص بها القائمون بها أو المباشرون لها وحدهم بل تمتد لتطال بقية المسلمين، وقد رأينا كيف أن عملاً غير مسؤول وقع منذ عام جر الأمة كلها إلى سلسلة من الكوارث والفجائع، ولهذا يفرق أهل العلم بين جهاد الدفع وجهاد الطلب، ويجعلون الثاني وهو الذي تحدد الأمة ميقاته زمانا ومكانا إلى القيادة العامة في جماعة المسلمين، ولا يستقل به أصحاب الولايات الإقليمية أو القطرية، أما جهاد الدفع فهو الذي يفوض إلى القيادات القطرية في إطار النظر العام لإمام المسلمين.

بقي شيء لابد من ذكره في نهاية التعقيب على هذه النقطة: أنه قد يسع المسلم في بعض الأحوال أن لا ينصر أخاه المسلم، إذا لم يهاجر إلى جماعة المسلمين، وكانت خصومته مع قوم بينه وبينهم ميثاق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: الآية 72] الذين لم يهاجروا إلى جماعة المسلمين، يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، بيد أن لهم حق النصرة إذا استنصرونا في الدين على قتال عدو لهم ليس بيننا وبينه ميثاق، أما إذا استنصرونا على قوم من الكفار، بيننا وبينهم ميثاق، فلا نصرة لهم في هذه الحالة، لقوله تعالى: ﴿. وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .﴾، يقول ابن كثير (أي مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم ، مع الذين عاهدتم). لكن الذي لا يسعه بحال من الأحوال أن يظاهر عليه المشركين، وأن ينحاز مع الكفار المحاربين لقتاله معهم، فإننا لا نعرف أحد من علماء الأمة أباحه، ولا سطر قط في ديوان من دواوين الإسلام !

هذا ما تيسر جمعه في هذه العجالة على ضيق من الوقت وشح في المصادر، والله أسأل أن يوفقنا لمزيد من التحرير لهذه المسائل في المستقبل بإذن الله، وأن يجعل ما نقوله أو نكتبه حجة لنا لا علينا، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومستمعه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم اللهم آمين.

الفصل السادس

تحويل المعنويات الإسلامية من القوة إلى الفعل

الاستفادة من الروح المعنوية:

كيف يمكن أن نحول القوة المعنوية والقوة الإسلامية الكامنة في قلوب المسلمين إلى الفعلية.

وهذه القوة أخذت من سيرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وخاصّة من نهضة الإمام الحسين(عليه السلام) ضد الظلم والطغيان والتي تتجدد كل عام وتعطي من المعنويات الكثير الكثير[1] فكيف نستفيد من هذه القوة الخلاقة في عملية: تغيير المسلمين وانتشالهم من واقعهم المزري وجعلهم حكومة إسلامية عالمية واحدة ذات ألف مليون مسلم[2] واسترجاع قوانين الإسلام التي فيها سعادة المسلمين ورفاههم.

إنقاذ غير المسلمين من مضطهدي العالم من الظلمات الى النور حتى لا يكونوا مستعمَرين، وحتى يستنيروا بقوانين الإسلام ولو بقدر ما، كما أنار الإسلام حتى واقع الكفار في أول بزوغه، واستفادوا من الإسلام: العلم والنظام والنظافة والشورى والعدالة الاجتماعية والأخلاق وغيرها ولو بقدر ما، حتى وصل العالم الى هذا التقدم الذي نشاهده الآن[3] قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية 107]لا للمسلمين أو المؤمنين فقط. وبكلمة أخرى، يمكن لنا أن نتساءل كيف تتحول القوة المعنوية الكامنة، الى قوة خارجية: لإنقاذ المسلمين، ولإنقاذ غير المسلمين ـ ولو بالقدر الممكن ـ؟.

الجواب:

إن ذلك ممكن بأمرين:

---

1 - وقد سمع مكرراً من الذين قدموا من جمهورية آذربايجان وغيرها، التي كانت تحت سيطرة الشيوعيين انهم يقولون: إننا كنا نعرف الإسلام في هذه الفترة من خلال الإمام الحسين وشعائره.

2 - بلغ عدد المسلمين حسب بعض الإحصاءات الأخيرة: المليارين، راجع كتاب (عند ما يحكم الإسلام) لعبد الله فهد النفيسي، الصفحة الأخيرة.

3 - راجع كتاب (موجز تاريخ الإسلام) للإمام المؤلف. وكتاب (حضارة العرب) للدكتورغوستاف لوبون.

الأول: التعريف الواقعي والحقيقي للإسلام وقادته[1]، حتى لا يكون هناك غموض في مواقفهم وأهدافهم وطريقة معالجتهم للحياة، وللقوانين التي جاءوا بها عن الله سبحانه لإنقاذ البشر، حيث قال سبحانه: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية 24]

الثاني: إيجاد تيار إسلامي عالمي يكون كفوءاً لذينك الأمرين (نهوض المسلمين)[2] و(إنقاذ غير المسلمين)[3] بالقدر المستطاع.

أسئلة هناك:

عندما تكون الصورة غير واضحة عند البعض، ويشوبها بعض الغيوم، من الطبيعي ان يقع اللبس والغموض حول مجموعة حقائق ومواقف مهمة، ترتبط بقادة الإسلام الذين رسموا لنا الطريق الأقوم للتحرك الإسلامي.

فإذا أردنا التعريف (بقادة الإسلام) و(بالإسلام كنظام للحياة) لابد لنا من رفع الحاجز الضبابي الذي جعل البعض يثير قسماً من الأسئلة والإشكالات حول الصورة الإسلامية الواقعية.

ومن هذه:

سياسة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم):

س1: لماذا لم يميز الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين ولم يفرز صحيحهم عن سقيمهم، ولقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) أعرف بهم، حتى لا تقع تلك المشاكل التي وقعت بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم)؟.

الإمام أمير المؤمنين س والحكومة الإسلامية:

س2: ولماذا لم يصل الإمام علي س الى الحكم بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

اضطراب الأوضاع في حكومة علي س:

---

1 - أما ما يشاهد اليوم من تشويه سمعة الإسلام وقادته الكرام فليس بصحيح، فالإسلام دين السلم لا العنف، وقد تقدم بالأخلاق لا بالسيف، راجع كتاب (ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين) للإمام الشيرازي.

2 - أعطى الإمام الشيرازي لهذا الموضوع الاهتمام الكامل وخصص له جانباً كبيراً من العناية والتوجه، وقد أشار إليه بصورة مجملة ومسهبة في اغلب كتاباته الأخيرة، غير أنه تشعب في هذه المسالة اكثر في كتابه القيّم (السبيل الى إنهاض المسلمين) وهو بمثابة برنامج شامل لكل أبعاد التحرك الإسلامي ومنهاج متكامل الجوانب والأبعاد يرسم للإنسان الحركي الطريق الأسلم والأكمل لإنهاض المسلمين.

3 - يراجع في هذا المجال كتاب (الوصول الى حكومة واحدة إسلامية) و(الفقه: السياسة) و(السبيل الى إنهاض المسلمين) و(الفقه: طريق النجاة) وغيرها من كتب الإمام الشيرازي (دام ظله).

س3: ولماذا اضطربت الأوضاع لما وصل الحكم إليه س حتى قتل، وكان صلى الله عليه وسلم يتألم من أصحابه ويقول: (لقد ملأتم قلبي قيحاً)[1] مع انا نرى اليوم كيف أن الجيوش تتحرك بإشارات من رؤساء الدول، فهل لم تكن للإمام س سياسة حتى بقدر سياسة رئيس دولة عادية؟.

العلم بالشهادة:

س4: واذا كان الإمام س يعلم بأن (ابن ملجم) يقتله، لماذا لم يق نفسه ولو بعدم الخروج تلك الليلة[2] للصلاة، أو باستصحاب حماية معه حتى يقفوا دون تنفيذ المؤامرة؟

فهل أن كل ذلك[3] كان بسبب ضعف الإدارة والسياسة، عند الإمام س؟ أو لعدم قابلية الناس؟ أو لأن المثالية لا تلائم الحكم؟ أو أن بشر اليوم اكثر قابلية من بشر ذلك اليوم، فتكون النتيجة عدم قابلية الإسلام للتطبيق؟

صلح الإمام الحسن س:

س5: ثم هل كان الإمام الحسن س اضعف إدارة وسياسة من معاوية[4]؟

وإلا فلماذا لم يصل الى الحكم؟

ولماذا صالح معاوية وقبل الذلة، فيما نرى ان الإمام الحسين س حارب يزيد[5] ورجّح السلّة على الذلّة[6]؟.

ثورة الإمام الحسين س:

س6 : وهل كان الإمام الحسين س أضعف سياسة وإدارة من الحكومات الثورية الحالية التي وصلت الى الحكم؟

---

1 - نهج البلاغة : الخطبة 27/ 14.

2 - ليلة 19 شهر رمضان المبارك سنة40 هجرية.

3 - أي ما ذكر في السؤال الثاني والثالث والرابع.

4 - معاوية بن أبي سفيان (19 قبل الهجرة ـــ 59هـــ) أول سلاطين الأمويين (40-59هـــ)، قاتل الإمام علي عليه السلام في معركة صفـين (عام 56هـــ 657م) ونقل عاصمة الحكم الى دمشق وجعل الحكومة وراثية من ذريته وخلف من بعده يزيد قاتل الحسين س.

5 - يزيد بن معاوية (23-62هـــ) الحاكم الأموي الثاني (59-62هـــ) خلف أباه معاوية على العرش وبذلك جعل الحكومة الإسلامية ملكاً متوارثاً، عرف بالاستهتار واللهو والعبث وارتكاب المحرمات وقتل الابرياء، وقد أمر بقتل الإمام الحسين س في مأساة كربلاء التي صرع فيها كثير من خيار أهل البيت وبعض الصحابة والتابعين وذلك في العاشر من محرم سنة 61 هجرية.

6 - حيث قال س: ان الدعي ابن الدعي قد تركني بين السلة والذلة وهيهات له ذلك هيهات مني الذلة... احتجاج الطبرسي ج 2 ص 24 في احتجاج الإمام الحسين س على أهل الكوفة بكربلاء، وبحار الأنوار ج 45 ص 83 ب 37 ح10.

وهل كان س اقل سياسة من المختار [1] ـ كمثال ـ الذي وصل الى الحكم في نفس الكوفة التي قصدها الإمام الحسين في حركته من الحجاز؟.

الأئمة الأطهار والحكومات الجائرة:

س7: وبعد ذلك يأتي دور السؤال عن الأئمة الآخرين لماذا لم ينهضوا؟

فهل كانوا اقل كفاءة من بني العباس[2] الذين نهضوا في وجه بني أميّة[3] ونالوا ذلك الحكم العريض؟

بل لماذا تمكن الرسول ع من جمع الناس حول نفسه وإقامة الحكم الذي أراده ، ولم يتمكن الأئمة ش من ذلك، وهل كان ذلك بسبب اختلاف الزمان وعدم قابلية زمانهم وقابلية زمان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)؟.

عدد المعصومين:

س8: ثم لماذا عدد المعصومين أربعة عشر، وفيهم امرأة هي فاطمة رضى الله عنه، والائمة إثنى عشر منهم فقط؟.

س9: وإذا كانوا كلهم ش في الحكم ألم تكن الدنيا تسير سيرة حسنة ليس فيها مشاكل، وإذا لم يكونوا يعرفوا طرق الوصول الى الحكم فكيف يقال: إنهم كانوا عالمين بكل شيء بإذن الله تعالى، وكانوا قادرين على التغيير[4]؟.

---

1 - المختار الثقفي: (40-94هـــ) ثائر تمرد على سلطان بني أمية بعد قتل سيد الشهداء الحسين بن علي س وقتل كثيراً من قتلته، وقاتله مصعب بن الزبير وقتله.

2 - بنو العباس: أسرة من السلاطين الذين حكموا البلاد الإسلامية، تنتسب الى العباس عم الرسول ع.. وقد أطاح العباسيون بالخلافة الأموية، عام 131هـــ 750م، ومن ثم تولوا زمام الحكم الإسلامي حتى عام655 هـــ 1258م، حين أطاح بهم المغول، نقلوا عاصمة الحكم من دمشق الى بغداد ونظراً لتصرفاتهم غير الإسلامية انفصلت عن جسم الحكومة العباسية انفصالاً كلياً أو جزئياً، دول كثيرة، كالدولة الحمدانية في حلب، والدولة الإخشيدية، والدولة الفاطمية في مصر والدولة البويهية في مصر، والدولة السامانية في خراسان وماوراء النهر.

3 - بنو أمية: أسرة من الحكام العرب سيطروا على الحكم الإسلامي وحكموا باسم الإسلام قهراً من عام (40-131هـ 661-750م) وجعلوا لأنفسهم إمبراطورية واسعة عاصمتها دمشق، امتدت من شواطئ المحيط الأطلسي والجبال البرانس غرباً الى نهر السند وتخوم الصين شرقاً، واشهر حكام الأمويين مؤسس الدولة معاوية ابن ابي سفيان (40-59هـــ)، ومنهم عبد الملك بن المروان (64-85هـ) والوليد بن عبد الملك (85-95هـ) وعمر بن عبد العزيز (97-100هـ) وهشام بن عبد الملك (104-124هـ). وقد جهد الأمويون في طلب الدنيا والابتعاد عن الدين وشوهوا سمعة الإسلام وقتلوا الإمام الحسين س سبط الرسول ع في كربلاء ظلماً وعدواناً سنة 61 هجرية كما قتلوا كثيراً من العلويين والمؤمنين.

4 - إشارة الى ولايتهم التشريعية والتكوينية، راجع مقدمة كتاب (من فقه الزهراء عليها السلام ج1) و(موسوعة الفقه: كتاب البيع) ج4و5 للإمام المؤلف.

حكومة الشيعة:

س10: وأخيراً.. هل كان للشيعة في التاريخ حكم؟

وإذا لم يكن لهم حكم ألا يدل ذلك على نقص في منهج التشيع بذاته أو في الشيعة أنفسهم، وهما يوجبان اليأس عن تمكنهم من الحكم في المستقبل؟.

الإسلام وإدارة الحياة:

أما بشأن التعريف بالإسلام كنظام للحياة، فقد ورد التساؤل بأنه هل هنالك للإسلام نظام باستطاعته أن ينهض بالمسلمين في العصر الحاضر، بحيث يكون أفضل من الأنظمة المعاصرة: الغربية والشرقية، في إعطاء (الحرية) و(الرفاه) و(التقدم) و(السلام) للمسلمين بما يجعلهم قادة العالم في عصر الفضاء، كما جعل الإسلام المسلمين قادة العالم إبان ظهوره؟.

وإذا كان ذلك، فما هو النظام الإسلامي في سياسته واقتصاده واجتماعه وفي بقية جوانب ومناحي الحياة؟.

التيار الإسلامي:

وبعد الانتهاء عن الأسئلة التي تثار حول الأمر الاول، يأتي السؤال عن الأمر الثاني، وهو كيف يمكن إيجاد تيار إسلامي عالمي يكون كفوءاً لـ (النهوض بالمسلمين) و(إنقاذ غير المسلمين) لا إنقاذ العالم الثالث فحسب، بل إنقاذ العالمين: الغربي والشرقي، من انحطاط أنظمتهم وجور حكامهم ؟.

وأجوبة هنا

والجواب: بإيجاز عن الأمر الأول[1]:

معرفة الرسول ع بالمنافقين:

ج1: إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعرف المنافقين جيداً، لكن كون الإسلام ناشئاً قبال دولتي الفرس والروم وعملائهما لم يكن الظرف يسمح بأية خطوة من شأنها إضعاف المسلمين وتشقيقهم، وإلقاء الخلاف في صفوفهم وإسالة دمائهم، وقد كانت الدولتان ـ وسائر أعداء الإسلام ـ ينتهزون الفرصة للهجوم على الإسلام وإبادة المسلمين، وبهذا أجاب الإمام علي أمير المؤمنين س الصديقة الطاهرة ل حين قال لها: إن حملت سيفي لم ترين لهذا الإسم أثراً، أي اسم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

1 - أي: الأسئلة والشبهات حول قادة الإسلام.

وأيهما خير: إن يذهب الإسلام كله، أو يبقى المخلص الى جنب غيره إلى حين؟.

ج2: وبما ذكرناه يظهر الجواب عن السؤال الثاني، فإبقاء الإمام علي (عليه السلام) على نفسه وأهل بيته والثلة المؤمنة التي وقفت بجانبه خير من التمزق بالمحاربة

التي تنتهي الى هدم الإسلام بسبب الدولتين العظيمتين وغيرهما.

حكومة أمير المؤمنين ا:

ج3: واضطراب الأحوال في زمن الإمام علي أمير المؤمنين ا كان طبيعياً، اذ الأمر كان دائراً بين ان يسير في الخط المنحرف الذي سبقه، مما يجعل الإسلام كاليهودية والمسيحية، او أن يسير في الخط المستقيم الذي يحرك ضده الآخرين من:

1: الخط الديني المختلط بالدنيا (والذي قاده أصحاب الجمل)[1].

2: او الديني المنحرف (الذي قاده أهل النهروان)[2].

3: أو الدنيا البحتة (التي قادها أهل صفين)[3].

هذا وقد اتبع الإمام علي ا خطى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في انه لم يهاجم أحداً ولم يبدأ بالحرب وانما كانت حروبه دفاعية، فكما أن كل جهة حاربت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دفعها الرسول دون أن يهاجم أحداً، كذلك فعل علي ا.

---

1 - أصحاب الجمل هم أصحاب عائشة: وحرب الجمل معركة نشبت بين الإمام علي بن أبي طالب ا من ناحية وعائشة وأنصارها من ناحية ثانية عام 35 هـــ، قرب البصرة.. انتصر فيها الإمام علي ا وأسرت عائشة ولكن أمير المؤمنين ا لم يتعرض لها وأمر بإرجاعها الى المدينة معززة.

2 - أهل النهروان هم الخوارج.. ولما عاد أمير المؤمنين ا من صـــفين الى الكوفة، بعد الذي جرى من أمر الحكمين، انعزل طائفة من أهل العراق وكان عددهم 4000 نفر وخرجوا من الكوفة وخالفوا أمير المؤمنين وقالوا: لا حكم إلا لله ولا طاعة لمن عصى الله، وأمّروا عليهم عبد الله بن الكوى. وقد بلغ أمير المؤمنين ان الخوارج خرجوا على الناس، وانهم قتلوا عبد الله بن خباب صاحب النبي ع وبقروا بطن امرأته وهي حامل، وقتلوا ثلاث نسوة من طي، وقتلوا أم سنان الصيداوية، فلما بلغه ذلك بعث اليهم الحرث بن مرة العبدي ليأتيهم وينظر صـــحة الخبر فيما بلغه عنهم، فلما دنا منهم قتلوه.. واتى أمير المؤمنين ا الخبر وهو في معســكره فأرســل إليهم ان ادفعوا إلينا قتلة إخواننا نقتلهم بهم، أتركم وأكف عنكم، فقالوا: كلنا قتلناهم وكلنامســتحلّون لدمائكم ودمائهم.

..ثم إن أمير المؤمنين خرج اليهم بنفســه واخذ ينصـــحهم فلم تؤثر فيهم فرجع عنهم الى أصـــحابه ثم عبأهم للقتال. وأعطى أمير المؤمنين عليه السلام لأبي أيوب الأنصاري راية أمان فناداهم أبو أيوب: من جاء الى هذه الراية فهوآمن .. وتفرق أكثرهم بعد أن كانوا اثني عشر ألفاً، فلم يبق منهم غير أربعة آلاف وشن الحرب فلم يفلت منهم إلا تسعة أنفس لا غير. راجع كتاب غزوات أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب ص 170-173 حرب النهروان.

3 - وهم أصحاب معاوية: ومعركة صفين وقعت في عام 36هـــ ودارت رحاها في صفين على نهر الفرات، غير بعيد عن الحدود السورية العراقية الحالية، بين قوات الإمام أمير المؤمنين علي ا، وقوات عامل الشام معاوية .. وقد رجحت كفة قوات علي ا على كفه قوات معاوية.. فاقترح عمرو بن عاص على معاوية ان يأمر قواته برفع المصــاحف على رؤوس الرماح، إشــارة إلى أن هذه القوات تحكم كلمة الله.. لا كلمة السيف، وكانت هذه خدعة منه ومن ثم دارت المفاوضات بين الفريقين وجبروا الإمام علي ا على قبول الحكمين للفصل في الـــنـــزاع وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن عاص وقد اقنع عمرو بن عاص أبا موسى بخلع الرجلين، حتى إذا تم له ذلك، خلع هو عليا وأثبت معاوية.. فأعلن معاوية نفسه خليفة في الشام.

وكان رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا غلب، عفى وصفح[1]، وهكذا فعل علي ا في حروبه الثلاثة[2].ولقد كان بإمكان الإمام علي ا أن يحرك الجيش بإشارة كما كان يفعل الأكاسرة والقياصرة والحكام الذين نشاهدهم اليوم، لكن الإمام ا كان يريد ان يكون في وسط الأمة يناقش ويحاور ويرشد، حتى تبقى مواقفه وخطواته وكل ممارساته مرشدة للأمم الى الأبد، وحتى يكون أسوة حسنة للجميع، ولذا بقيت آثاره علماً ونوراً، بينما ذهبت آثار الأكاسرة والقياصرة هباءاً منثوراً.

---

1 - ولمزيد الاطلاع في هذا المضمار يراجع كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج 1-2 للإمام المؤلف، الكتاب صدر حديثاً وهو دراسة جميلة لحياة منقذ البشرية الرسول الأكرم (ص) ويركز على جوانب عظيمة من حياته الشريفة وبالخصوص سياسة اللاعنف والعفو عند المقدرة التي اتخذها مع أعدائه ومخالفيه.

2 - فمثلاً: الإمام عليا بعد ما انتصر في حرب الجمل نصراً ساحقاً وبعد ان وضعت الحرب أوزارها.. بدأ بسلسلة زيارات لبيوت ومراكز كبار ورؤوس حرب الجمل الذين أثاروها ضده.. والإمام كان يستطيع ان يأسرهم جميعاً لكنه لم يفعل ذلك.. وحين كان يزور أحد مراكزهم صاحت في وجهه نساؤهم وواجهنه ببذيء الكلام.. فقالت صفية بنت عبد الله بن خلف الخزاعي: (يا قاتل الأحبة.. يا مفرق الجماعة.. أيمّ الله نساءك منك كما أيمت [رملت] نساءنا، وايتم الله بنيك منك كما أيتمت أبناءنا من آبائهم) فوثب الناس إليها [أي ليؤدبوها] فقال ا: كفوا عن المرأة . فكفوا عنها..وقال ا لها: لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه البيوت، ففتش فكان فيها مروان وعبد الله بن الزبير. راجع كتاب (الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين ا ص67-68. وراجع أيضا بحار الأنوار ج41 ص 39 ب 114 ح 39.

وقد روى الشيخ المفيد: ان الإمام أمير المؤمنين ا كتب كتاباً الى أهل الكوفة بعد واقعة الجمل فلما علم الناس بوصول كتاب من أمير المؤمنين ا كبر الحاضرون تكبيرة عالية سمعها عامة الناس، فاجتمعوا على أثرها في المسجد ونودي بالصلاة الجامعة جامعة، فلم يتخلف أحد وقرء الكتاب فكان فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين الى قرظة بن كعب ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو، أما بعد فإنا لقينا قوماً ناكثين _ الى أن قال ا ـــ فلما هزمهم الله أمرت أن لا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا يكشف عورة ولا يهتك ستر ولا يدخل دار الا بإذن وأمنت الناس. الجمل للمفيد ص 215.

وروى موسى بن طلحة بن عبد الله وكان فيمن أسر يوم الجمل وحبس مع من حبس من الأسارى بالبصرة فقال: كنت في سجن علي ا بالبصرة حتى سمعت المنادي ينادي أين موسى بن طلحة بن عبيد الله، قال: فاسترجعت واسترجع معي أهل السجن وقالوا: يقتلك، فلما أخرجت اليه ومثلت بين يديه، قال لي: يا موسى، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قل استغفر الله، قلت: استغفر الله وأتوب إليه، ثلاث مرات، فقال: لمن كان معي من رسله: خلوا عنه، ثم التفت إليّ وقال: اذهب حيث شئت وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع فخذه واتق الله فيما تستقبله من أمرك واجلس في بيتك، فشكرت وانصرفت، انظر البحار ج 41 ص 49 ب 104 ح 2.

وقد روي عن الباقر عليه السلام انه قال: سار علي ا بالمن والعفو لأنه كان يعلم أنه سيظهر عليهم عدوهم من بعده فأحب ان يقتدي من جاء من بعده به فيسير في شيعته بسيرته ولا يجاوز فعله، فيرى الناس انه تعدى وظلم، وهكذا سار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على منهاج رسول الله ع واقتدى به في عفوه عن أهل الجمل وكان ذلك منه مقدمة لهدف أسمى وهو نشر الوئام والمحبة، والتعاطف والتسامح بين المسلمين، وقلع جذور الشحناء والبغضاء والنـــزاع والحرب من بينهم، ولأجل أنه لو غلبت إحدى الطائفتين الأخرى لا تتجاوز الحدود الإسلامية فتقتل أسارى الحرب، وتسبي نساء وذراري الطائفة المغلوبة، وتنهب أموالها، فتعود الجاهلية وشحناؤها من جديد وتذهب أتعاب الرسول ا وتعاليم الإسلام الأخلاقية أدراج الرياح. راجع بحار ج33 ص 441 ب 28 ح 650 .

وذات ليلة في حرب صفين .. أصبح ماء الفرات بأيدي معسكر معاوية.. أمر بمنع الماء عن معسكر علي ا فوصل النبأ الى أسماع علي ا فاصدر امراً عسكرياً ووضع جيشه في حالة إنذار.. وقال لهم ضمن خطبة ساخنة: (الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين).. ثم أمر ا الجيش بالهجوم لغرض تحرير نهر الفرات من أيدي العدو.. وتمكن جيشه ضمن حملة قوية ومنظمة ان يحرر الماء ويسيطر عليه.. فأراد جيشه ان يعامل جيش معاوية بالمثل ويمنع عنه الماء وقالوا له: (امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة واقتلهم بسيوف العطش وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك الى الحرب) فقال ا: (لا والله لا أكافيهم بمثل فعلهم. افسحوا لهم عن بعض الشريعة ففي حد السيف ما يغني عن ذلك ..) راجع كتاب (الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين) ص11، وبحار الأنوار ج 41 ص146 ب 107 ح 45.

كما ان رجلا من اصحاب الامام ا اسمه (عبيد الله بن الحر الجعفي) خان الامام والتحق بجيش معاوية في جوف الليل.. ذلك حين كانت نيران حرب صفين مشتعلة.. وفي قوانين الحروب يعاقب مثل هذا الخائن بالاعدام.. واستطاع ان يقدم عبيد الله خدمات كبيرة لمعاوية.. اما زوجته فكانت في الكوفة وسمعت بهلاك عبيد الله في المعركة.. فاعتدت عدة الوفاة وبعد ذلك تزوجت برجل من أهل الكوفة في الوقت الذي كان عبيد الله حياً في الشام.. وحين اخبر بزواج زوجته.. خرج من الشام ليلاً .. وقطع المسافات الشاسعة ووصل الى الكوفة ودخلها ليلاً.. وتوجه فوراً الى بيت زوجته، فأخبرته بزواجها من رجل غيره.. رأى عبيد الله ان أبواب العودة الى زوجته مغلقة في وجهه.. ورأى ان افضل حل ان يتشرف بلقاء مولانا أمير المؤمنين ا ويخبره بقصته.. وأمير المؤمنين ا رجل العدالة والحق.. ولا يعدل عن الحق وان كان المحق خائناً.. التقى عبيد الله بأمير المؤمنين ا منكساً رأسه خجولاً لكونه يعلم انه خائن.. سلم على الإمام ا.. أجابه الإمام وتساءل مستنكراً: أعبيد الله انت؟ عبيد الله قال: هل ان خيانتي تمنعك من العدل يا أمير المؤمنين؟ أجابه الإمام كيف ..؟ وطلب منه ان يسرد قصته ...فالإمام أمر بإحضار زوجته وزوجها الثاني وقال: على المرأة ان تنفصل من زوجها الثاني وتبدأ بالعدة من الآن وبعد انتهاء عدتها تعود الى زوجها الأول ان لم تكن حاملاً.. ولو كانت حاملاً لا يعود اليها الزوج الأول حتى تضع ما في بطنها.. وولدها حلال طاهر وتابع لأبيه: الزوج الثاني. راجع كتاب (الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين) ص69-71.

بين الاستبداد والاستشارية:

والحاصل ان الإمام عليه السلام طبق الاستشارية الإسلامية ومبدأ الشورى أحسن تطبيق وتجنب الاستبداد والدكتاتورية بصورة كاملة، أما الملوك والزعماء فإنهم ـ عادة ـ لا يستطيعون أن يحركوا الجيش بإشارة دون ان يكون وراء عصيان الجيش حبس وغرامة وإعدام...، بينما لم يكن كذلك في حكومة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحكومة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

والى هذا يشير أمير المؤمنين علي ا عند ما يقول: (جمال السياسة: العدل في الإمرة والعفو مع القدرة)[1].

لذا لما خالف بعض الأصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورفضوا الذهاب الى الحرب تركهم (صلى الله عليه وآله وسلم)[2]، وكذا سار خليفته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على سيرته في حروبه الثلاثة.. حتى أنه اذا ظفر بجندي من جنود الشام، حلفه ان لا يساعد معاوية، وتركه وشأنه، كما عفى عن أهل الجمل والنهروان[3].

الإمام أمير المؤمنين أسوة:

ج4: وكان من الضروري ان يعمل الإمام ا حسب علمه الظاهر وحسب قدرته الظاهرة كسائر الأنبياء والائمة ـ إلا في باب المعجزات ـ وذلك حتى يكونوا أسوة للناس، ومن سنة الله تعالى ان لا يعطي العلم الخارق والقدرة الخارقة إلا لمن لا يستعملهما عادة[4]،وإلا فلماذا دفع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحمزة وعبيدة وجعفر لأن يخوضوا الحروب مع علمه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنهم سيقتلون؟.

---

1 -غرر الحكم ودرر الكلم ج 1 ص 335 ح 76.

2 - وقد تخلف عن رسول الله ع قوم من المنافقين وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق، منهم: كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي ... فلما تاب الله عليهم قال كعب: ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج رسول الله الى تبوك، وما اجتمعت لي راحلتان قط إلا في ذلك اليوم، فكنت أقول: أخرج غداً.. أخرج غداً.. وتوانيت وبقيت بعد خروج النبي ع أياماً أدخل السوق ولا اقضى حاجة، فلقيت هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقد كانا تخلفا أيضا، فتوافقنا ان نبكر الى السوق فلم تقض لنا حاجة، فمازلنا نقول: نخرج غداً وبعد غد، حتى بلغنا إقبال رسول الله ع فندمنا. راجع كتاب (لأول مرة في تاريخ العالم) ج 2 ص169 للإمام المؤلف.

3 - يراجع في هذا المجال كتاب (الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عليه السلام) و(السبيل الى إنهاض المسلمين) فصل السلام و (الوصول الى حكومة واحدة إسلامية) و(الصياغة الجديدة) و(الى حكم الإسلام) و(ممارسة التغير لإنقاذ المسلمين)للإمام المؤلف. فان مسألة (اللاعنف) من المسائل الأساسية التي يركز عليها الإمام الشيرازي بقوة حيث تميز عن غيره في التأكيد عليها والأخذ بها في مختلف مجالات الحياة .

4 -إلا في موارد الضرورة والضرورات تقدر بقدرها.

ولماذا لم يهرب عيسى عليه السلام مع علمه بأن القوم في طلبه ؟.
وكذلك سائر الأنبياء (عليهم السلام) بقوا حتى قتلوا، قال سبحانه(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية 91]
فالإمام أمير المؤمنين كان في قمة السياسة والإدارة وحسن التدبير، إلا ان الأمر كان دائراً بين (حفظ المدرسة) التي ستخرج ـ على المدى البعيد ـ أجيالاً من البشرية المؤمنة الواعية، وبين (حفظ سلطته) التي تسبب سقوط المدرسة، كما فعل ذلك معاوية فصار لعنة التاريخ بالإضافة الى إضاعة البشر، وكما يفعله اليوم حكام الشرق والغرب حيث أنهم يحفظون سلطتهم بإشعال الحروب والفتن وقتل الملايين وتجويع عشرات الملايين من الناس.
فرأى عليه السلام بان الأمر دائر بين ربح سلطته وسقوط البشرية، وبين خسارة سلطته وانتشال البشرية (فرأيت ان الصبر على هاتا أحجى) كما يقول عليه السلام[1].
الإمام الحسن رضى الله عنه وتربية الأجيال:
ج5: أما الإمام الحسن رضى الله عنه فرأى أمره دائراً بين الانتقال من الواجهة الى المؤخرة، ليربي الثوار الذين يهدمون عرش الطغاة، وبين ان يبقى في المقدمة حتى يقتل بلا اثر، أو ان يمارس ما مارسه معاوية من الغدر والمكر وحرق الناس، وأخيراً تحطيم نفسه طول التاريخ وتحطيم البشرية المعاصرة له ومن يأتي بعد ذلك، كما فعله معاوية حيث جعل نفسه وعامة بني أمية لعنة التاريخ، بالإضافة الى ان منهجهم أضحى عنوان انحطاط وتحطم الإنسان.
وأي عاقل ـ فضلاً عن أمام معصوم ـ يقدّم الأخيرين على الأول؟.
وفي زمانه رضى الله عنه لم يكن الأمر دائراً بين السلة والذلة، وانما كان دائراً بين السلة وبين التعقل والحزم.

1 - نهج البلاغة : الخطبة 3/3.

الإمام الحسين والشهادة

ج6: أما الإمام الحسين رضى الله عنه فقد كان قادراً على ان يجمع الأحزاب[1] والعشائر والقبائل ومختلف الشخصيات وينجح في السلطة والاستيلاء على الحكم، ولكن كان يضطر الى المكر والخداع وقتل الأبرياء وتحطيم سمعة الإسلام على طول الخط وجعل هذا الخط المنحرف منهاجاً للحكام للإقتداء به، بأن يسير في الخط الذي سار فيه يزيد والحجاج[2] وستالين[3] وهتلر[4] ونيرون[5] واصبحوا لعنةالتاريخ.

لكن الإمام الحسين عندما خرج، خرج لطلب الإصلاح في أمة جده[6]، وأراد إنقاذ الأمة ووضعها في الطريق القويم، بعد ان سارت بها سياسات بني أمية في متاهات وأودية سحيقة، وهكذا حفظ نفسه.

كذب الموت فالحسين مخلد كلما اخلق الزمان تجدد وحفظ مدرسة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).. وهذا يفسر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (حسين مني وأنا من حسين)[7].

فالخط والمدرسة الإسلامية الحقيقية حفظها الإمام الحسين ، وحفظ من خلالها البشرية، هذا ما يقتضيه العقل، إذا رأى دوران الأمر بين الخطين، يقول غاندي[(8)]: (تعلمت من الحسين عليه السلام كيف أكون مظلوماً فانتصر).

---

1 - بمعنى التجمعات المختلفة، فيكون ما بعده عطفاً تفسيرياً له.

2 - الحجاج بن يوسف الثقفي (40-94هـــ) عامل من أسوء عمال بني أمية وأصلبهم عودا، بدأ حياته معلم صبيان في الطائف مسقط رأسه. قاتل عبد الله ابن الزبير وهزمه، فولاه عبد الملك بن مروان على العراق عام 74هـــ، وطد دعائم الدولة الأموية بكثير من القسوة وبسجن الأبرياء وقتلهم.

3 - جوزف استالين (1879-1953م) الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (1922-1953م) حكم الاتحاد السوفيتي حكماً ديكتاتورياً وجعل منه دولة عالمية كبرى، تعرض في عهد خورشـــف لحملة عنيفة كشـــفت عن عورات حكمه وأدت الى تحطيم تماثيله التذكارية.

4 - آدلف هيتلر (1889-1945م) زعيم ألمانيا النازية.. وضـــع ما بين عام 1926/1924م كتاب (كفاحي) الذي اعتبر في ما بعد انجيل النازيين، اصبح عام 1933م سيد ألمانيا المطلق، سببت سياسته الخارجية التوسعية الى نشوب الحرب العالمية الثانية، وقد أحرز في مستهلها انتصارات ساحقة فاحتلت قواته بولندا والدانمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا.. حتى إذا هاجم الاتحاد السوفيتي، فخسر معركة ستالين غراد عام 1943م، وتوالت عليه الهزائم وانتحر في 30/ اوريل/ 1945م أثناء حصر برلين.

5 - نيرون (37-68م) إمبراطور روماني 54-68 ميلادي تميز عهده بالطغيان والوحشية، كان مضطرب الشخصية، قتل أمه عام 59 ميلادي واحرق رومتة عام 64م واتهم المسـيحيين بذلك، فاضـطهدهم، انتحر بعد ان ثار عليه القادة العسـكريون في أفريقيا وإسبانيا وبلاد الغال.

6 - قال الإمام الحسين: (إني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت أطلب الصلاح في أمة جدي محمد وأريد آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر أسير بسيرة جدي وسيرة أبي علي بن أبي طالب) المناقب ج4 ص89.

7 - كشـــف الغمة في معرفة الأئمة ج 2 ص 218 باب في إمامته وما ورد في حقه من النبي قولاً وفعلاً، وعنه في بحار الأنوار ج 43 ص 261 ب 12 ح1، والترمذي بسنده عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ع: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً حسين سبط من الأسباط. وأيضاً في البحار ج 43 ص 270 ب 12 ح 35 وكشف الغمة ج 2 ص222. واعلام الورى بأعلام الهدى ص 217 الفصل الثالث في ذكر بعض خصائصه ومناقبه وفضائله..

8 - غاندي (1869-1948م) الزعيم السياسي والروحي الهندي. لقب بـــ الماهاتما ـــ أي النفس الكبيرة ـــ نادى باللاعنف والمقاومة السلبية، وعمل على تحرير الهند من نير الاستعمار البريطاني، ودعى الى إزلة الحواجز بين الطبقات الاجتماعية والى الوحدة بين الهندوس والمسـلمين والسـيخ.. اشـهر آثاره: سـيرته الذاتية الى دعاها (تجاربي مع الحقيقة) عام 1927م، قتله هندوس متعصب.

ثم إن الزمان لم يكن كزمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي جمع بين السلطة والمدرسة والبشرية والسمعة، حتى يجمع الإمام الحسين عليه السلام بينها، اذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان في أمة بدائية غير ملوثة بالمكر والخداع وتعاريج حضارة الروم والفرس، بينما الإمام الحسين عليه السلام عاش في زمان كان الأمر دائراً بين السلطة الملتوية المحطمة وبين حفظ السمعة والمدرسة والبشرية على طول الخط...

كما أن استشهاده بتلك الكيفية كان محطماً لخط الانحراف، بينما لو كان الإمام الحسن عليه السلام يقدم على قتل نفسه في محاربة معاوية كان معناه تحطم سمعة الإمام والمدرسة والبشرية، لما كان ينطوي عليه معاوية من المكر وجعل الأحاديث والدعاية السوداء.

وعادةً الذين صنعوا الانقلابات في زماننا، إنما أرادوا السلطة فقط دون النظر الى المدرسة والسمعة وانتشال البشرية، ولذا نراهم تحطموا وذهبوا لعنة التاريخ[1].

أما المختار فقد بنى أمره على قاعدة متينة وضعها الإمام الحسين عليه السلام، ولولا الإمام الحسين عليه السلام لم يكن توابون، ولا مختار، ولا سقوط بنى أمية، ولا ... والمراد بتحطم البشرية وعدم تحطمها، ان المدرسة الصحيحة توجب رفاه البشر، والمدرسة المنحرفة توجب تحطم البشر، مثلاً الرأسمالية والشيوعية[2] أوجبتا جوع ربع البشر بل أكثر من الربع[3] وسلب البشر حرياتهم، بينما المدرسة الإسلامية الصحيحة أوجبت رفاه البشر وحرياتهم سواء في زمان سيادة الإسلام أو بعده (بقدر العمل بالمدرسة)[4] وما نجده الآن في العالم من التقدم فهو رهين مدرسة الإسلام، وإلا لكانت بلاد العالم تغوص في دياجير القرون الوسطى، ولذا يسمي الغربيون المسلمين: آباء العلم[5].

---

1 - لقد بحث الإمام الشيرازي هذا الموضوع (الانقلابات العسكرية) في اكثر من كتاب، ودرس أسبابها بعناية كاملة أعطى لها العلاج الناجع بدقة فائقة، راجع هذه الكتب: (الحكم في الإسلام) و(ممارسة التغير لإنقاذ المسلمين) و(الفقه: السياسة) و(الصياغة الجديدة) و(السبيل الى إنهاض المسلمين).

2 - التي تحطمت أخيراً.

3 - أنظر التقرير الصادر عن التنمية في العالم الذي أصدره البنك الدولي(1996م) والذي أشار الى وجود 1.350.000.000 فقير في العالم.

4 - راجع كتاب: (بقايا حضارة الإسلام كما رأيت) للإمام المؤلف.

5 - راجع كتاب (موجز تاريخ الإسلام) للإمام المؤلف وكتاب (حضارة العرب) للدكتور غوستاف لوبون.

والبشرية في تقدم مطرد، حيث تتسع مدرسة الإسلام الصحيح بأمواجها التي أحدثها رسول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة الطاهرون .

وانتكاسة المسلمين في هذا القرن لا تعد مهمة إذا لوحظت بالنسبة إلى حياة الأمم الطويلة، ونرى الآن بوادر نهضة جديدة للمسلمين، يتقدم المسلمون بسببها الى الأمام بصورة مستمرة بإذنه تعالى.

الأئمة وحفظ المدرسة:

ج7: وبما تقدم يظهر الجواب عن السؤال السابع، فإن الأئمة عليهم السلام حفظوا المدرسة، وحفظوا أنفسهم، وحفظوا البشرية، ولذا لم يحتلوا سدة الحكم مع إمكانهم الكامل ان يجمعوا القوى ويتقدموا، إلا أنهم رجحوا حفظ الأمور الثلاثة، على حفظ الحكم الذي كان يسبب تحطم الثلاثة.

وقد ذكرنا ان الزمان كان مختلفا، فلم يكن ليسمح بوصول أنفسهم إلى الحكم وفي نفس الوقت حفظ الثلاثة، وأي بشر عاقل ـ فضلاً عن إمام معصوم ـ لا يقدم الأهم على المهم[1]، ولم يكن زمانهم كزمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ولذا نجد كيف ذهبت حكومات الأمويين والعباسيين والعثمانيين إدراج التاريخ.. بينما بقي الأئمة عليهم السلام شموس هداية تنير مسير البشر، وبقوا هم أنفسهم ي عظماء في الأنفس، وبقي المنهاج الصحيح للسير والتكامل بسبب ما خلفوه من التراث الضخم، الذي لا يشبهه أي تراث آخر من الأديان والقوانين السابقة.

وقد قسموا يالدور، فحفظوا لأنفسهم دور الريادة والمدرسة، وحفظوا الشخصية وسمعة الإسلام الى الأبد، بما يحرك البشرية الى الأمام على طول التاريخ، بينما أوكلوا الى شيعتهم وذويهم دور الثورة في كل العالم الإسلامي.

1 - راجع حول قاعدة (الأهم والمهم) موسوعة الفقه كتاب القواعد الفقهية للإمام المؤلف (دام ظله).

وذلك لان ما احتفظوا به من الدور ما كان يتأتى من غيرهم .

وقد أثمر الجهدان، فحفظت المدرسة، كما أنير طريق البشر على طول الأزمان الى الأبد، وبقوا هم عليهم السلام أعلاماً الى الأبد، وفي نفس الوقت قام التوابون، والمختار، وزيد[1]، ويحيى، والحسين شهيد فخ[2] وغيرهم بالثورات المحطمة لعروش الظالمين.

حتى لم يمر قرن إلا وقد اخذوا بزمام جزء من العالم الإسلامي، حيث حكم المختار، وحكم الطباطبائيون[3]...

وحكم الأدراسة[4]، وهكذا امتد الحكم ـ الذي استنار بهم ـ الى هذا اليوم.

المعصومون وعددهم:

ج 8: أما المعصومون فأحدهم الرسول ع قائد النهضة العالمية والفاتح للطريق أمام البشرية، وأحدهم سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ل قدوة نساء العالم، والبقية عليهم السلام قاموا بدور توضيح البرنامج قولاً وعملاً[5] فإنه لا يتقدم أحدهم بدون الآخر، إذ لو كان البرنامج المكتوب بدون أمثلة حية تحمله، وأسوة صالحة يقتدى بها، لا يكون البرنامج مؤثراً في الناس.

---

1 - زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) (79-121هـــ) علم من أعلام بني هاشم، أعلن الثورة على الحاكم الأموي: هشام بن عبد الملك، فنبشت بين أنصاره وقوات الحكومة معارك، انتهت بمقتله ا في الكوفة عام 121هـ، يعرف بـ (زيد الشهيد) واليه ينسب الزيدية.

2 - الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ا صاحب (فخ) أمه زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ا خرج في أيام موسى الهادي بن المهدي بن ابي جعفر المنصور العباسي مع جماعة كثيرة من العلويين بالمدينة في ذي القعدة سنة 169هـــ وصلى بالناس الصبح ولم يتخلف عنه أحد من الطالبيين إلا الحسن بن جعفر ابن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وموسى بن جعفر ا وخطب على منبر رسول الله ع وخرج الى الحج في تلك السنة وحج أيضا العباس ابن محمد وسليمان بن أبي جعفر وموسى بن عيسى، فلما صاروا بفخ (بئر بينه وبين مكة فرسخ تقريباً) وقع بينهم الحرب فالتقوا يوم التروية وقت صلاة الصبح حتى قتل اكثر أصحاب الحسين ثم قتل الحسين وجاء الجند بالرؤوس والأسرى الى موسى الهادي فأمر بقتلهم. راجع (الكنى والألقاب) للشيخ عباس القمي ج 2 ص 391-392.

3 - ظهر في سنة 199هجري بالكوفة أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل ابن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ابي طالب، يدعو الى الرضا من آل محمد صلوات الله علهم أجمعين، وكان القيم بأمره في الحرب أبو السرايا السري بن المنصور، وبعد أشهر مات محمد فجأة وقد اختلفوا في موته هل كان بدس السم اليه كما نسب الى أبي السرايا، لانه علم أنه لا حكم له معه، أو بدس السم اليه من غيره، او مات بإذن الله سبحانه وتعالى بغير سبب ظاهر من مرض او او نحوه، وبايع محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب أرسل عمالاً الى الحجاز واليمن وانتشر الطالبيون في البلاد وفي سنة 200من الهجرة قتل ابو السرايا، وفي سنة 201هـ مات محمد صاحبه.

وقد ذكر في بعض التواريخ انه قام من هذه السلسلة بالخلافة ابو عبد الله محمد ابن ابراهيم طباطبا سنة 199هـــ، وقام باليمن في هذا العصر الهادي يحيي بن الحسين بن القاسم بن طباطبا ومات سنة 208هـــ وقام ابنه المرتضى محمد ومن بعده قام أخوه الناصر، ومن بعده قام ابنه المنتجب الحسين، ثم قام أخوه المختار القاسم، ثم قام أخوه الهادي محمد، ثم الرشيد العباس، ثم استمرت هذه الدولة التي قامت على المذهب الزيدي الى عصرنا حيث أطيح بها بسبب مؤامرات الشرقيين والغربيين. راجع كتاب (ممارسة التغيير) ص 269 للإمام المؤلف.

4 - أسرة عربية شيعية حكمت المغرب الأقصى من عام (172 الى عام 313هـ) أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بتأييد من قبائل البرابر، ثم وسع رقعتها من بعده ابنه إدريس الثاني.. حتى إذا توفي هذا الأخير (عام 212هـ) أصابها الانحلال بعد ان وزع أبناؤه ارث أبيهم واستقل كل منهم بجزء من البلاد وسرعان ما استولى الأمويون في الأندلس على بعضهم أراضيها واستولى الفاطميون على البعض الآخر.

5 - وتقريراً، ويمكن درجه ضمن (العمل).

ولو كان العكس (أناس طيبون) بدون برنامج معلوم، لا يتمكن الناس من السير الحسن، مثل ان يكون كتاب طب بدون طبيب، أو طبيب بدون كتاب طب، فكان وجودهم عليهم السلام بياناً وشرحاً للبرنامج السماوي، وفي نفس الوقت كانوا هم نماذج حيّة لذلك البرنامج، وكان من قوتهم أنه كلما حاول الأعداء، تحريف المنهج أو تحريف شخصياتهم ، لم يتمكنوا، حيث ان الله سبحانه حفظهما، قال سبحانه: ﴿ :إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1]. الذكر) هو (القرآن والأئمة) ولذا قال علي ا: (انا الكتاب الناطق)[2].

بينما نرى أن الأمم السابقة تمكنوا من تحريف كتابهم وحملته، كما حرفوا التوراة والانجيل، قال سبحانه: ﴿. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ. ﴾ [سورة النساء: الآية 46]

وحرفوا شخصية الأنبياء عليهم السلام، مثلاً أنهم قالوا: (هابيل ﷺ تزوج بأخته) و:(إبراهيم عليه السلام قدم زوجته الى الملك العاتي فزنى بها) . و:(يعقوب ﷺ صارع مع الله). و:(داود علية السلام زنا بزوجة اوريا). و:(لوط عليه السلام زنا ببنتيه). و:(عيسى علية السلام صنع الخمر، وهو ابن الله تارة، وشريك مع الهين آخرين تارة). و:(عزير عليه السلام ابن الله).

الى غير ذلك، وحيث لم يكن دين أولئك الأنبياء العظام (عليهم السلام) إلا لزمن محدود، ترك الله سبحانه الناس وما يفعلون بالمنهج والشخصية[3].

أما دين الإسلام فحيث هو أبدي قال تعالى: ﴿.. وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآية 40] وقال سبحانه تعالى: ﴿ . الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. ﴾ [سورة التوبة: الآية 33] لذلك لم يتمكن الأعداء لا من تحريف المنهج أو اغتياله ولا من اغتيال حملة المنهج[4]، وكلما حاول أو يحاول الأعداء طمس معالم المنهج، يقيظ الله سبحانه في كل قرن من يجدد الدين، حتى يأتي دور المصلح الأعظم عجل الله تعالى فرجه الشريف ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً قال سبحانه تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [سورة القصص: الآية 5]

---

1 - الحجر / 9.
2 -راجع بحارالأنوار ج 39 ص 271 ب 87 ح 48.
3 - وذلك امتحاناً لهم.
4 - أي شخصيتهم وسمعتهم وإلا فقد قالا: (ما منا إلا مقتول أو مسموم)، بحار الأنوار ج 27 ص 216 ب 9 ح 216 عن كفاية الأثر. وعن ابي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي قال سمعت الرضا ا يقول: (والله ما منا الا مقتول شهيد ...) الوسائل ج 10ب 87 ص 445 ح 5.

أما لماذا هم اثنا عشر؟

فلأن أزمان البشر وأحواله مختلفة، فاللازم لكل زمان ولكل حال أسوة يقتدي بها البشر في ذلك الزمان وتلك الحال، وهم عليهم السلام أدوا تلك الأدوار المختلفة، ولذا ورد في الأحاديث ان لكل نبي اثني عش ر وصياً[1] وقال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [سورة المائدة: الآية 12] ولعل هناك ربطاً بين ما نحن فيه وبين البروج الاثني عشر والأشهر الاثني عشر، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿. إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا..﴾ [سورة التوبة: الآية 36]

وأحوال البشر الاثنتي عشرة، وأزمنتهم كذلك، فإنا نجد زمان الرخاء النفسي والشدة، والصحة والمرض، والعلم والجهل، والأمن والفوضى، والظلم والعدل، والغنى والفقر.

كما نجد فيهم عليهم السلام: الرجل والمرأة، والمبدأ والمنتهى والوسط، والقائم بالحكم وغيره، والطفل والشاب والشيخ، والذي أتهم في نفسه وغيره، والظاهر والغائب، والمطلق والمحبوس، والمحارب والمسالم، والقائم والقاعد، (إمامان إن قاما وان قعدا)[2] وناشر العلم وناشر الدعاء، ومن في شدة الفقر حسب الظاهر ومن في سعة الغنى، والمطلق والمأسور، والمستشار والمستشير، والجد والأب، والأخ والحفيد، والزوج والزوجة والأم، ومن له ولد او زوجة او اخ و...

---

1 - فعن محمد بن عبد الله الشيباني، عن هاشم بن مالك الخزاعي، عن العباس بن الفرج الرياحي، عن شرجيل بن ابي عون، عن يزيد بن عبد الملك، عن سعيد المعبري، عن ابي هريرة .. عن رسول الله (ص): (فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين ووصيي خير الوصيين وسبطي خير الأسباط الحسن والحسين سبطا هذه الأمة وان الأسباط كانوا من ولد يعقوب وكانوا اثني عشر رجلاً وان الأئمة بعدي اثنا عشر رجلاً من أهل بيتي علي أولهم أوسطهم محمد وآخرهم محمد وهو مهدي هذه الأمة الذي يصلي عيسى خلفه، الا من تمسك بهم بعدي فقد تمسك بحبل الله ومن تخلى منهم فقد تخلا من حبل الله). بحار الأنوار ج36 ص312 ب41 ح157.

2 - حدثنا علي بن احمد بن محمد، عن محمد بن موسى بن داود الدقاق، عن الحسن بن احمد بن الليث، عن محمد بن حميد، عن يحيي بن ابي بكير قال حدثنا ابو العلاء الخفاف، عن ابي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن ابي طالب: يا ابن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت ان الحق لك دونه؟ فقال: يا با سعيد ألست حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم بعد أبي قلت: بلى، قال: ألست الذي قال رسول الله (ص) لي ولأخي: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، قلت: بلى، قال: فأنا إذن إمام لو قمت وأنا إمام اذا قعدت، يا با سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله (ص) لبني ضمرة وبنى أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، يا باسعيد إذا كنت إماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة او محاربة وان كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبسا، ألا ترى الخضر لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى اخبره، فرضي هكذا انا سخطتم بوجه الحكمة فيه ولو لا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل. بحار الأنوار ج 44 ص 1 ب 18 ح 2.

إلى غير ذلك من الأحوال التي مرت بهم عليهم السلام ليكونوا أسوة لكل الناس في كل حال، وقد مارسوا عليهم السلام في كل الأزمان والأحوال مدة قرنين ونصف اكبر قدر من الاستقامة والهداية والإرشاد ونشر العلم والفضيلة و... بما لا مثيل لذلك في مثل تلك المدة، منذ حفظ التاريخ الى اليوم، فلم يجد التاريخ عائلة ممتدة بهذا القدر الطويل من الزمان، تشبه هذه العائلة وبهذه المواصفات العالية، قال تعالى: ﴿.. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآية 33]

ج 9: وبعد ذلك فهل يبقى مجال للسؤال التاسع؟.
ان الأزمنة مختلفة والأحوال مختلفة، وكل زمان وكل حال، بحاجة الى اسوة، فهل إذا كان كلهم عليهم السلام في الحكم، كانوا أسوة للبشرية ـ مدى الأحقاب الى انقضاء الدنيا ـ في أحواله المختلفة وأزمانه المتشتتة؟.
وقد ورد ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أعطى لكل إمام كتاباً، وهو بمثابة برنامج ومنهاج لكل إمام يعمل به وفق زمانه، حيث نزل اثنا عشر كتاباً (كحديث قدسي) من الله سبحانه الى الرسول (صلى الله عليه وآله) لهم عليهم السلام.
فقد كانوا عارفين بطرق الوصول الى الحكم، وكانوا اقدر الناس على ذلك، لكنهم أرادوا غير ذلك ـ حسب أمر الله سبحانه ـ لينقذوا عباده من الجهالة وحيرة الضلالة[1].
صحيح أن الرسول ع وأهل بيته عليهم السلام وشيعتهم تحملوا اكبر قدر من الضغط والمكاره، لكن كل ذلك كان ثمن إنقاذ البشرية بالتبليغ وحفظ مدرسة فريدة في العالم منذ الخلقة والى انقضاء العالم، فإن الجنة ـ حتى الجنة والسعادة في الدنيا ـ حفت بالمكاره[2].

1 - إشارة الى ما ورد في الزيارة: (حتى استنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة) مفاتيح الجنان (المعرب) ص 448 زيارة الحسين ا في العيدين. وفي زيارة الإمام الحسين ا في يوم الأربعين: (بذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة)، الدعاء والزيارة ص 749 ط مؤسسة الفكر الإسلامي.
2 - كما قال علي ا: ان رسول الله (ص) كان يقول: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات). نهج البلاغة : 2/176. والبحار ج 67 ص 78 ب46 ح 12عن النهج. والكافي ج 2 ص 89 ح 7 عن ابي جعفر أقال: (الجنة محفوفة بالمكاره). والمستدرك ج 8 ب 93 ص 435 ح10022 عن موسى ابن جعفر: (ان الجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات).

الشيعة والحكم:

ج10: أما الشيعة.. فقد حكموا في التاريخ منذ قيام علي ا بالكوفة، والى اليوم، ولم يكن نقص في التشيع ولا في الشيعة، وقبل قيام علي ا بالحكم في زمن الخلفاء الثلاثة، كان عليه السلام المستشار والموجه، لبعض الأمور المهمة جداً.

صحيح أن بعض حكام الشيعة كانوا منحرفين بأشخاصهم، وبكيفية وصولهم الى الحكم، إلا أن المدرسة كانت قائمة، والعلماء كانوا مسيطرين، وكان حكم البلاد حسب الكتاب والسنة، فالقضاء والمعاملات والأحوال الشخصية والحدود وغيرها كانت إسلامية (إلا ما شذ) ومن الواضح أن الشذوذ حالة موجودة بشكل طبيعي في الأمم، كما ان المرض حالة موجودة في الأفراد.

النظام الإسلامي:

الإسلام هو النظام الأفضل للحياة، فهو يلبي حاجات الإنسان المختلفة، الأساسية والهامشية، صغيرها وكبيرها، ولا يترك أدنى مجال إلا وأعطى له الحل الأمثل والأسلوب الأفضل والعناية الفائقة.

من هذا المنطلق يؤكد الإسلام على مسألة (القيادة) باعتبارها الرائدة في ترجمة النظام الإسلامي الى واقع الحياة، فهي المسؤولة قبل غيرها، ومراقبة من مختلف الجهات، ولأهمية القيادة في الإسلام حددت المهام بدقة ووضعت الشروط والمواصفات لكل قائد.

فالإسلام له قادة وأسلوب في القيادة، لم يعرفهما بالصورة الصحيحة، العالم من قبل.. والى العصر الحاضر:

من صفات القائد:

فقادة الإسلام من ضمن الناس (أنفسكم في النفوس، وآثاركم في الآثار، وقبوركم في القبور)[1]، لا استعلاء لهم ولا كبرياء.. ولا امتياز في ملبس أو مشرب او منكح او مركب او ما أشبه..

وقد ضرب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي ا إبان حكمهما هذا المثال، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مكة غير الرسول في المدينة... ولا الإمام علي ا في الكوفة غير علي ا في المدينة.. كلاهما كانا شعبيين .. متواضعين .. في متناول أيدي الجميع .. بدون حاجب .. ولا بواب.. ولا قصور.. ولا استغلال .. ولا غرور[2].

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)لما آمن به سبعة ملايين إنسان وكان مستولياً على تسع دول في خارطة اليوم[3] كان نفس الرسول ع في مكة يوم وحدته وغربته واضطهاد المشركين له.

والإمام علي أمير المؤمنين كان في الكوفة مسيطراً على أكبر دولة في عالم ذلك اليوم، حيث كان يحكم زهاء خمسين دولة حسب خارطة اليوم[4]، كان نفس

علي رضى الله عنه إبان اعتزاله عن الحكم في المدينة مشغولاً بالزراعة.

وهكذا يجب ان يكون قادة الإسلام، إذا اخذ الإسلام بالزمام في المستقبل[5] بإذن الله، فلا دكتاتورية .. ولا استبداد .. ولا استغلال.. ولا استعباد.. ولا ترفع، كما يفعل بعض حكام اليوم في البلاد الإسلامية، ولا كحكام الدول المستعمرة والدول التي تظلم شعبها أو شعوب العالم.

وقد اثر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (أشيروا علي أيها الناس)[6] وعن علي ا انه قال للامة: (لكم علي المشورة)[7].

---

1 - فقد ورد: (بابي انتم وأمي ونفسي وأهلي ومالي ذكركم في الذاكرين وأسماءكم في الأسماء وأجسادكم في الأجساد وأرواحكم في الأرواح وأنفسكم في النفوس وآثاركم في الآثار وقبوركم في القبور..) راجع عيون أخبار الرضا (عليه السلام) ج2 ص 176 باب ما يجزي من القول عند الزيارة جميع الأئمة ا، وبحار الأنوار ج 99 ص 132 ب 8 ح 4، ومفاتيح الجنان (المعرب) ص548 الزيارة الجامعة الكبيرة، والدعاء والزيارة ص 828 ط مؤسسة الفكر الإسلامي.

2 - راجع كتاب حكومة الرسول ع والإمام أمير المؤمنين ا للإمام المؤلف (دام ظله).

3 - وهي: الكويت وقطر والبحرين والإمارات المتحدة ومسقط واليمن الشمالي واليمن الجنوبي و الحجاز والأردن. راجع كتاب ممارسة التغيير ص 25 للإمام المؤلف.

4 - وكانت من ليبيا الى داغستان طولاً. راجع كتاب (ممارسة التغيير) ص 25.

5 - راجع حول الحكومة الإسلامية المترقبة ومختلف جوانبها كتاب (إذا قام الإسلام في العراق) و(الفقه: طريق النجاة) للإمام المؤلف.

6 - بحار الأنوار ج 19 ب 10 ص 218.

7 - راجع في هذا المضمار كتاب (الفقه السياسة) للإمام المؤلف فصل صفات القائد، وكتاب (السبيل الى إنهاض المسلمين) باب كيفية عمل الحاكم الإسلامي، وكتاب (الفقه: الدولة الإسلامية) الجزء الاول، وكتاب (الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عليه السلام).

الأسلوب الأمثل:

أما أسلوب القيادة فهو:

ان يكون للمرجع الأعلى أو (شورى الفقهاء) [1]في الدولة الإسلامية صفة الاجتهاد والعدالة، وصفة اختيار أكثرية الأمة له في أجواء حرة، وعلامة الأجواء الحرة وجود الأحزاب الحرة[2] ووسائل الإعلام الحقيقية الحرة[3] والمؤسسات الدستورية الفاعلة.

ويشرف (شورى الفقهاء المراجع) على السلطات التقنينية (التشريعية)، والتنفيذية، والقضائية، وكذلك الأحزاب الحرة.

تطبيق قوانين الإسلام في كافة شؤون الحياة: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها، ومهمة السلطة التشريعية هي في الحقيقة تطبيق العصر على قوانين الإسلام، لا كالبرلمانات في الدول الديمقراطية، وقد ذكرنا في كتب (الفقه: السياسة) و(الفقه: الاقتصاد) و(الفقه: الاجتماع) و(الحكم في الإسلام) و(الى حكم الإسلام) بعض تفاصيل هذه الأمور.

حيث، لا استغلال.. ولا استعباد في الطبقة الحاكمة، وأحزاب حرة وحريات متوفرة في الاقتصاد.. والزراعة.. والعمارة.. والصناعة.. والتجارة.. وإبداء الرأي .. والثقافة.. وغيرها،والمال كل حسب سعيه والحكم والعلم مباح للجميع حسب الكفاءات.

فهذا يمنع ـ عادة ـ الاضطرابات والاغتيالات، ولا يمكن للمستعمرين من تصنيع الأحزاب العميلة بالشكل الذي يطلبونه، وذلك لعدم وجود نقاط ضعف في الحكومة الإسلامية حتى يستغلوها ويدخل منها الاستعمار وعملاؤه.

الحكومة العالمية:

بعد ان انتهينا من الإجابة الإجمالية على الأسئلة المتعلقة بالأمر الأول، وأوضحنا صورة النظام الحياتي الذي يؤكد عليه الإسلام بشكل مختصر..

نعود الى الأمر الثاني وهو: كيف يمكن إيجاد تيار إسلامي عالمي، او حكومة إسلامية عالمية واحدة، تأخذ بيدها زمام المسؤولية (للنهوض بالمسلمين أولاً) وإنقاذ غير المسلمين بالقدر الممكن ثانيا؟.

1 - إذا كان المراجع متعددين.

2 - ما يعبر عنه بالتعددية الحزبية.

3 -كالصحف والمجلات والإذاعات والتلفزيونات وما أشبه.

يتأتى هذا عن طريق عدة أمور، منها:

جمع الكلمة:

جمع كل الأحزاب والتيارات والنشاطات الإسلامية في وحدة واحدة، لها مجلس أعلى (منظمة عالمية) تأخذ على عاتقها تنظيم المسلمين في الدولة الإسلامية.

الوعي:

إعطاء الوعي بمختلف أشكاله وألوانه للمسلمين، بما لا يقل من ألف مليون كتاب، حتى يصبح التطلع الى الحكومة الواحدة جزءاً حيوياً من فكر كل فرد مسلم، وكلما استطعنا ان نبين هذه الفكرة استطعنا ان نخطو خطوات الى الأمام.

مواصفات القادة:

اتصاف القادة بأخلاقيات عالية توجب التفاف الناس حولهم، والقائد المتميز هو الذي يبتعد عن أدق الصغائر، ويراعي ويحترم عادات الناس وقيمهم ويشاركهم في أمورهم، كما ورد بالنسبة الى أمير المؤمنين علي س: (كان فينا كأحدنا)[1].

الاكتفاء الذاتي:

الاكتفاء الذاتي عن الدول الاستعمارية، فقد قال أمير المؤمنين س: (احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره)[2]. ثم إن الكرامة الاقتصادية توجب الكرامة السياسية.

المؤتمرات:

ومن أوليات إقامة الحكومة الإسلامية الواحدة، و التيار الإسلامي العالمي: إقامة المؤتمرات الدورية الكبيرة، والمؤتمرات الإقليمية الصغيرة[3].

الأطراف المناوأة:

السعي لجعل الأطراف المناوئة والدول المعادية تأخذ موقف حيادي في قبال الحركات الإسلامية، وذلك بالاعتماد على سياسة عدم الإثارة، او التحرك الهادئ، أو ما أشبه من الحكمة والتعقل.

تجنب الأمور الجانبية:

---

1 - عن صعصعة بن صوحان وغيره من شيعته وأصحابه: (كان فينا كأحدنا) بحار الأنوار ج41 ص147 ب107 ح45. وسفينة البحار ج2 ص17 الطبعة الجديدة.

2 - راجع غرر الحكم ج1 ص 128 ح90 ط بيروت، وفيه: (وكن أسيره). وبحار الأنوار ج 71 ص 411 ب 30 ح 21.

3 - راجع كتاب (مؤتمرات الإنقاذ) للإمام المؤلف (دام ظله).

الابتعاد عن الأمور الجانبية الفرعية غير المهمة، والتفكير بالقضايا الأساسية البعيدة المدى التي توصلنا الى الهدف والغاية المنشودة، ولا مانع لأجل ذلك من تحمل المصاعب والآلام والغصص في سبيل الغد المشرق.

اللاعنف:

وأخيراً اتباع سياسة اللاعنف في كل تحرك، سواء كان قبل الوصول إلى الحكومة الإسلامية الواحدة أم بعدها.

وبذلك يمكن القيام بإذن الله تعالى والله الموفق المستعان.

المشاكل التي تواجه النهضة:

هذا ولا يخفى أن هناك مشاكل للنهضة الجديدة لا بأس بالتطرق إليها، فإن النهضات الشعبية مهما كانت أسبابها؛ من دينية أو وطنية أو اقتصادية. أو غيرها، لابد وأن تأتي بمفاهيم جديدة قد لا يألفها الشعب في الزمان السابق.

فإن الشعب إنما ينهض لأجل الظلم والطغيان الذي يجدهما في الحكام السابقين وبرجاء تحسين الأوضاع، لكن النهضة لا تقف عند هذا الحد، بل تتعداه إلى تطبيق مفاهيم خاصة، والآن يرى الشعب أشياء أخر قد لا يألفها فيقوم ضد التطبيقات الجديدة، وتقع المحاربة بين الشعب والناهضين مرة أخرى، تنتهي الى أحد أمرين:

سقوط النهضة، لأن الشعب أقوى من النهضة والقائمين بها.

الديكتاتورية المطلقة عند الناهضين الحكام، بالقتل والمصادرة والسجن والكبت والإرهاب، فالأمر ينتهي لا محالة إما بسقوط النهضة أو سقوط الناهضين.

وإذا انضم الى الشعب أناس من الخارج ينصرونه ضد الناهضين الحكام، كان سقوط أحد الأمرين أقرب، كما انه إذا انضم إلى الناهضين استعمار من الخارج كان السقوط أيضاً أقرب، لكن إذا انضم الخارج إلى الناهضين كانت

الديكتاتورية أشد، أما إذا انضم الخارج إلى الشعب كان سقوط النهضة أقرب.

وفي هذا يكمن سقوط ثورة الدستور في إيران[1]، وثورة العشرين

في العراق[2]، كما ان في عكس ذلك يكمن نجاح ثورة التنباك (التبغ)، فثورة التنباك، قام بها الميرزا المجدد الكبير[3] رحمه الله، لأجل قضية مهمة، وهي إخراج البريطانيين من إيران، الذين أرادوا استعماره تحت واجهة التنباك، وقد وفق لذلك اكبر توفيق، ولما تمكن رحمه الله من إخراجهم لم تكن هناك قضية أخرى، وتبديل البنى والمفاهيم، فلم يقع بين الشعب والنهضة تصادم، بل انتهى الأمر بسلام.

أما ثورة الدستور، فقد كانت موجهة ضد النظام القائم بتبديل الملكية الى الدستورية، فلما ان أزيل الاستبداد، وجاء أهل المجلس الى الحكم، وقع التصادم، لإن الشعب اعتادوا الملكية، والدستور كان له مفاهيم جديدة لم يتحملها الشعب، فوقع التصادم، وسم قائد الثورة الآخوند[4] رحمه الله، فلم يكن هناك ربان يوصل سفينة الثورة إلى الشاطئ بسلام وبقي التصادم، وتدخل الأجنبي، فأسقط النظام الجديد، وأتي بالديكتاتور البهلوي الذي كان عبداً مخلصاً للأجنبي،

وانتهى الأمر بالأسوأ، مما سبب أن يظن الناس أن الملكية افضل من الدستورية، لإن الملكية ظلم فقط، أما الدستورية فظلم واستعباد معاً ـ في نظرهم ـ.

---

1 - في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر الهجري تزايد الظلم والاستبداد والجور في إيران في عهد الملك القاجاري ناصر الدين شاه، وبلغ هذا الظلم والاستبداد ذروتهما في عهد الملك القاجاري محمد علي شاه ابن الملك مظفر الدين شاه، حيث تردّت الأوضاع الاجتماعية في ظل هؤلاء الملوك وتفشت الأمراض وانتشر الفقر حتى آل الأمر الى هجرة أعداد كبيرة من الناس الى البلاد الروسية والعثمانية طلباً للنجاة او بحثاً عن لقمة العيش، هذا الى جانب تصاعد الصراع الروسي البريطاني على النفوذ في إيران من جهة وتطور العلاقات الإيرانية الروسية في اتجاه خطير بحيث أصبحت روسيا القيصرية الممول الرئيسي وصاحب القروض الأولى للحكومة الإيرانية من جهة أخرى.

عند ذلك قام الآخوند الخراساني (قده) مع جمع من العلماء بتقديم نصح للملك القاجاري محمد علي شاه بالعدول عن سياساته الخاطئة والظالمة، ولمالم يأبه الشاه بنصائحه واستمر في استبداده وتجاهله لحقوق الشعب، أيد الآخوند الخراساني ما اصطلح عليه يومئذ بالمشروطة (أي الملكية المقيدة بالمجلس النيابي أو الملكية الدستورية) بهدف تحديد سلطات الشاه ولأجل خضوع هذا المجلس للشريعة الإسلامية، وانطباق مقرراته على الموازين الدينية بعث الآخوند خمسة فقهاء الى هذا المجلس أبرزهم السيد حسن المدرس بهدف النظارة على نشاطه التشريعي، باعتبار ان هذا النمط من الحكم هو البديل الممكن لا البديل الحقيقي . راجع (كفاية الأصول) ص 13-14 ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة.

2 - الثورة التي قام بها آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الشيرازي (قده) وجمع من العلماء في العراق وطردوا الاستعمار البريطاني منها.

3 - آية الله مجدد المذهب الحاج ميرزا محمد حسن بن السيد ميرزا محمود ابن ميرزا إسماعيل الحسيني الشيرازي، راجع ترجمته في كتاب (الكنى والألقاب) ج 3 ص222-223.

4 - هو الشيخ محمد كاظم ابن المولى حسين الهروي الخراساني المعروف بـــ (الآخوند الخراساني) ونسب الى هراة، ولد عام 1255هـ، ووافته منيته قبيل صباح يوم الثلاثاء في العشرين من شهر ذي الحجة عام 1329هـ. راجع (كفاية الأصول) ص5-17 ط مؤسسة النشر الإسلامي قم المقدسة. وراجع كتاب (الصياغة الجديدة) ص 706.

وأما ثورة العشرين (الستين الهجرية) فقد ابتليت بنفس المشكلة حيث سم القائد الإمام (الشيخ محمد تقي) الشيرازي رحمه الله، ولم يتمكن إخلافه من القيادة المنتجة، للسير بالأمة الى الأمام بسلام..

إن القائد تمكن من أن ينتزع العراق ذات بضع ملايين، مع عدم جيش منظم، ولا سلاح ولا عتاد، من أنياب بريطانيا، وقد كان وراء بريطانيا أكثر. من ألف مليون (الهند، الصين، مصر، و..) بأحدث جيش منظم مسلح، لكن القائد عمل في:

تحريك الحافز الديني بسبب العلماء.

تحريك عشائر العراق، بإيجاد النخوة الإسلامية فيهم، وصبّ المال المتوفر للمرجع الأعلى عليهم صباً ، وجعل رؤساء العشائر في حكومته التي شكلها في كربلاء المقدسة.

تحريك الهند، وهي درة تاج بريطانيا.. وسائر بلاد الإسلام كإيران وأفريقيا، فان بريطانيا رأت نفسها بين ان تسحق العراق سحقاً كاملاً (وكان بإمكانها ذلك) لكن الاضطرابات تقع في الهند بما لا يحمد عواقبها، وبين أن تخرج من العراق، حتى تتمكن في فرصة أخرى من أن تدخلها، فرأت أن الثاني أفضل، ولذا خرجت.

تحريك (عصبة الأمم) لنفع العراق واستقلاله، وبهذه الأمور الأربعة تمكن القائد من فعل شبه المعجز.

لكن لما استشهد القائد (رحمه الله)، سقطت الثورة وعاد البريطانيون إلى العراق، لإن الشعب لم يتمكن من تكوين قيادة جديدة كفوءة، والثوار لم يتمكنوا من استقطاب الشعب، حيث كان التصادم بين الثوار وبعض الشعب ـ على ما ذكرناه ـ.

وهكذا سقطت الثورتان (الدستورية والاستقلالية).

التقدم حسب الزمن:

ثم أنه حيث أن الزمان يتبدل، والمفاهيم تتغير، فالحكام القدامى،إذا لم يتمكنوا من التوفيق بين أنفسهم وبين المفاهيم العالمية الجديدة، ابتدأ التصادم، فالقدامى يتمسكون بالمفاهيم السابقة، بينما الطلائع الجديدة، يتمسكون بـ (العدالة الاجتماعية) و(الاشتراك في الرأي) و(الحرية) و(كون العلم والمال والحكم،

مباحاً للجميع، حسب الكفاءات) إلى غير ذلك من المفاهيم الكامنة في نفس كل إنسان بالفطرة.

وإذا وقع التصادم، لابد وان ينتهي إلى النهضة، وإسقاط الحكام، ومجيء حكام جدد الى سدة الحكم، ويشرع التصادم من جديد، لما ذكرناه آنفاً، حيث مفاهيم الثوار غير المفاهيم القديمة السائدة والتي اعتادها الشعب.

الحوار الحر

والمهم على الناهضين ان شاءوا البقاء، ولم تأخذهم نشوة النصر، ان يفتحوا الحوار المتواضع مع الناس دائماً، حتى ينتهي الى الحلول الوسطى.. فانه لا شك في كون بعض الحق مع الناهضين، في المفاهيم الجديدة وكيفية التطبيق، كما أنه لا شك في كون الحق مع الشعب في جملة من الأمور، فـ :

1 : فإذا فتح الناهضون الحوار المفتوح بكل تواضع.

2 : وجنحوا الى الواقعية، لا التزوير والمؤامرة والخداع.

3 : واستمروا بالسلم والرفق.

انتهى الأمر ولو بعد عقد من الزمن الى سيادة المفاهيم الجديدة الواقعية، وتقبل الأمة لها، ومرور النهضة من المشكلة بسلام.

أما إذا لم يفتحوا الحوار المفتوح والتفاهم الدائم، وجنحوا إلى العنف والديكتاتورية والمؤامرة ضد الشعب (والثلاثة متلازمة عادة) وقع الثوار والشعب في شقاق، فالثوار لا يستعدون لسماع النقد من الشعب، ومن إصلاح الفاسد، والشعب لا يستعد لتقبل الصحيح من الثوار، لأنهم ينظرون الى الثوار بنظر الحقد والإزدراء، فان صحيح الثوار يطمس بسبب ما أتوه من الباطل، وقد قال ﴿عليه السلام﴾: (ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)[1] وهنا تكن المشكلة.. فالكارثة.

ثم أنه في البلاد الإسلامية مشكلة عند السنة ومشكلة عند الشيعة، وقد استفاد الاستعمار منها لغزو بلاد الإسلام.

---

1 - بحار الأنوار ج 2 ب 10 ص 41 ح2. والكافي ج 1 ص 36 ح1 والمستدرك ص 303 ح 13098: ابن المتوكل عن الحميري عن أبي الخطاب عن ابن محبوب عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: (اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن تعلمونه العلم وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم).

أما مشكلة السنة: فهي أنهم يرون إطاعة الحاكم (مهما كان) في عداد طاعة الله ورسوله، لإن الحاكم حسب نظرهم من (أولي الأمر) ولذا فالمصلحون والناهضون لا يجدون آذاناً صاغية من الجماهير المتأثرة بهذه الفكرة.

وأما المشكلة لدى الشيعة: فهي إن عند الفقهاء رأيين، رأي يقول بولاية الفقيه في شؤون الحكم، ورأي يقول بعدم ولاية الفقيه كذلك، والتابعون للرأي الأول يميلون الى النهضة وأخذ الفقهاء بأزمة الأمور، والتابعون للرأي الثاني يقولون بعدمها، ومن الطبيعي أنه مع انقسام الأمة لا يمكن الوصول الى نتيجة مطلوبة.

وإني.. وإن كنت أرى ولاية الفقيه[1]، تبعاً لجماعة من الفقهاء، إلا أن من الضروري أن يقع حوار مفتوح بين الجانبين، لعله ينتهي الى توحيد الآراء أو تقريبها، بإذن الله تعالى.

كما إني أرى أنه من الضروري انتزاع فكرة إطاعة الحاكم، مهما كان، عن أذهان السنة، كي لا يقتطف الاستعمار ثماره.

اتصاف الحركة والدولة بالواقعية:

يلزم على الحركة الإسلامية، التي تريد الوصول الى دولة إسلامية ذات ألف مليون مسلم[2]، وتريد إنقاذ البلاد والعباد (حتى الكفار) عن أيدي الظالمين، إن تتصف بالواقعية، وكذلك في الحكومة الإسلامية التي هي ثمرة الحركة الإسلامية العالمية، فان عدم الواقعية لا ينتهي الى نتيجة مطلوبة، فان النتيجة دائماً تكون من سنخ المقدمات[3]، وعلى قول المنطقيين (النتيجة تابعة لأخس المقدمتين).

وفي الشعر:

لا يجتني الجاني من الشوك العنب		ولا من الحنظل يجتنى الرطب

1 - راجع موسوعة الفقه كتاب البيع ج4-5 فصل في ولاية الفقيه، للإمام المؤلف.

2 - عدد المسلمين حالياً مليارا مسلم (2,000,000,000)حسب الإحصاءات الأخيرة 1997 م. راجع كتاب (عند ما يحكم الإسلام) لعبد الله فهد النفيسي الصفحة الأخيرة.

3 - حسب قاعدة السنخية المذكورة في الحكمة.

ولذا ورد في الحديث: (لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به)[1].

وفي القرآن الحكيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الصف: الآية 2-3] إلى غيرهما من الآيات والروايات.

ثم إن الإتصاف بغير الواقعية، وان كان فيه مسرة وقتية، إلا أنها تأتي بالثمرة المرة، لأن الأمر ينكشف بعد قليل، وبذلك ينقلب الأمر على الإنسان غير

الواقعي، قال سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية 105] وتحمل الإنسان مشكلة الواقع في الحاضر أسهل من تحمله مشكلة غير الواقع في المستقبل، لأن المشكلة التي تتولد في المستقبل من غير الواقع أضعاف مشكلة الواقع في الحاضر.

ففرعون وهامان، ومعاوية وهارون، وستالين وهتلر، واضرابهم، أرادوا ان يحفظوا ماء وجههم، أرادوا الكبرياء بغير حق، فانقلب الأمر عليهم حيث صاروا لعنة التاريخ.

أهذا كان افضل؟.

أو كان الأفضل الاتصاف بالحقيقة والواقعية ـ ولو بقدر ـ حتى لا يصلوا الى هذا المصير الأسود؟.

وعدم الواقعية يتجلى في أمور:

إخفاء الحق: وإظهار ما ليس بحق حقاً، فان الحق لجميع أهل الحق، لا لفئة خاصة، فإذا أرادت فئة خاصة الاستئثار بأنها حق، وما عداها باطل، كان ذلك في ضررها في الخط البعيد، وإن كان العاجل لها.

1 - نهج البلاغة: الخطبة 129 / 8 . وبحار الأنوار ج 100 ب 2 ص 108ح.

السباب: وهذا ما يعتاده من خف وزنه، بينما الله سبحانه يقول: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108 ﴾ [سورة الأنعام: الآية 108] وقال علي رضى الله عنه: (إني أكره لكم ان تكونوا سبابين)[1].

أليس يمكن أن يقول الإنسان حقائق الأمر بدون سباب، وألا يكون ذلك أنفذ في القلوب، وأقرب الى العقول؟.

التهريج: وجمع الأضغاث في قبال الحقائق، وهذا أيضاً عادة من خفت موازينه، أراد هضم حق الآخرين، فانه حيث لا تبر عنده لا بد ان ينفق من التبن، وقد قال المسيح علية السلام : (كل ينفق مما عنده).

والمهرج يريد النفوذ في القلوب بقدر حجم التهريج، بينما لا ينفذ حتى بقدر واقعه الضيئل ـ إن كان له واقع ـ وفي الحديث: (ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)[2] كما سبق.

الاستهزاء بالطرف الآخر: وهو من شيمة ضعفاء النفس، فإن الاستهزاء. لا يولد إلا الاستهزاء، فلكل فعل رد فعل، وإذا كان لإنسان الحقائق فلماذا يتمسك بذيل الاستهزاء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية14- 15]

إطلاق الشعارات وقطع الوعود: فإنهما مما يضران أبلغ الضرر، فالشعار والوعد سهل لكن العمل بما تحت الشعار وبالموعود صعب، فإذا لم يعمل الإنسان بذلك، حمل كل أقواله وحركاته على السخف والهراء والباطل.

إن ضغط عدم الشعار والوعد بقدر الإمكان، كبير على النفس حالاً، لكن ضغط عدم العمل بالشعار وبالمواعيد أكبر في المستقبل، وما عاقل فر من المطر إلى الميزاب، ومن الرمضاء الى النار.

---

1 - نهج البلاغة الخطبة 2/206 وبحار الأنوار ج32 ص 561 ب 12 ح 466: ومن كلام له (ع) وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين: إني اكره لكم ان تكونوا سبابين.

2 - بحار الأنوار ج 2 ب 10 ص 41 ح2. والكافي ج 1 ص 36 ح1. ومستدرك الوسائل ص 303 ح 13098.

الفصل السابع

حاضر العالم الإسلامي

(الواقع والطموح)

إن أقصى ما يطمح إليه العالم الإسلامي إقامة بناء الوحدة الإسلامية وعيش أهله بأمن وسلام، ومن الصعوبة بمكان إن تشاد الوحدة الإسلامية دون المرور بالوحدة العربية، ومن هنا كان الربط بين العالم الإسلامي والعالم العربي من جهة، والعالم العربي ما هوجزء إلا من العالم الإسلامي الكبير إذا كان هذا الطموح للعالم الإسلامي فهل واقع هذا العالم يرتقي ومستوى الطموح الذي يرنوا إليه؟ إنه من المفيد جداً إن لا نخوض في حاضر هذا العالم لكون البحث فيه يحتاج إلي مراكز أبحاث، وقد حددنا هذا النموذج بدراسة العالم العربي لنعمم هذا الواقع على العالم الإسلامي ككل، على اعتبار الوحدة العربية بمثابة الركيزة والانطلاقة الأولى الأعم والأشمل للوحدة الإسلامية، فالعالم العربي هو الأخر يطمح إلى بناء هذه الوحدة، إلا أن واقعة ربما لا يرتقي إلى مستوى إشادة صرحها، وخصوصاً في عالم يحتكم لشريعة الغاب القوي يأكل فيه الضعيف، عالم النظام العالمي الجديد.. هذا النظام الذي ظهر في أول أيام الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب في شباط من عام 1991 في لباس استعراضي رسمت عليه خارطة العالم ليعلن في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي أنه أصبح زعيماً للنظام العالمي الجديد، الذي لم يقم على أي مبدأ من مبادئْ العدل، أو أي صفة من صفات الأنصاف ولم يهدف في بدايته إلا لاحتواء العالم الإسلامي والسيطرة على مقدراته وثرواته وتمزيق كيانه والحيلولة بين المسلمين وبين ظهور أي قوة لهم في أي بقعة من بقاع الدنيا، كما يهدف إلى تشجيع كل الدول والأنظمة والحكومات والعصابات التي تقوم باضطهاد المسلمين وقمعهم وتصفية وجودهم في كل مكان تمارس فيه الجرائم ضدهم، واستغل في ذلك غطاء الشرعية الدولية المتمثلة في الأمم المتحدة ومجلس الأمن والتي أصبحت ألعوبة بيد صناع القرار في الولايات المتحدة قائدة النظام العالمي الجديد، ولعل أبرز الأمثلة في ذلك ما قام به المجرمون الصرب ضد مسلمي البوسنة، وما يقوم به الصهاينة في فلسطين و الروس ضد مسلمي آسيا الوسطى وما يقوم به الهندوس ضد مسلمي الهند، وما يحدث لمسلمي الصومال وكمبوديا و الصين وأفغانستان، وما يتجرعه أهل العراق من المحتلين الأمريكان هذه الأيام.

أن كل هذا يجعل الخاطر يسبح في عالم الخيال لنسأل أنفسنا ما الخلاص؟؟! أن الجواب يكمن في أقامه الوحدة الإسلامية ليحيا المسلمين بأمن وسلام في ظل قانون شرع الله والمتبصر في هذا يجده طموحاً، والدارس لواقع هذا العالم ليعي مقدار الفجوة بين الواقع والطموح.

لذا سنركز في دراستنا على العالم العربي من خلال دراستنا للعلاقة بين أمنه القومي والتنمية التي تعتبر من أهم وسائل النهوض في هذا العالم وفي مختلف المجالات ليرتقى هذا و مستوى طموح هذا العالم و المتمثل بالوحدة العربية التي تعتبر المقدمة الأولى للوحدة الإسلامية، وخصوصاً إذا طالعنا التاريخ، فإننا نجد أن الوحدة عبر مسيرة التاريخ العربي والإسلامي هي الأصل والقطرية والتجزئة هي الاستثناء ، فعودة للتاريخ نجد أن العرب أقاموا دولة عربية إسلامية في صدر الاسلام، بعد أن قاد رسول البشرية محمد ع ثورة في عالم المثل قائمة على الكتاب والسنه النبوية المطهرة،

وشكلت هذه الدولة مداً حقيقياً على أساس العدل والمساواة والشورى والحرية والسماحة وحقوق الانسان، لم تعرف تلك الدولة العربية الاسلامية الموحدة أنذاك حدوداً سياسية مرسومة حتى. في أوج توسعها، ونشير إلى أيام العباسين كمثال، والتي كان فيها رئيس الدولة يخاطب حتى السحاب في سماه بالقول المأثور: "(امطري حيث شئت فإن خراجك عائداً إلي)

ولم تعرف الدولة أيضاً نظاماً إدارياً ومركزياً كالذي تعرفه الدولة القطرية العربية اليوم. والمعروف أن أقطار الوطن العربي اليوم سواء تلك الكائنة في افريقيا أو أسيا كانت أجزاء من إمبرطورية عربية اسلامية واسعة الأرجاء ممتدت الاطراف، حيث يمكننا القول أن تاريخ هذا القطر يلتقي مع تاريخ ذاك، بل اصطحبنا التاريخ مع الأقطار مدة تزيد على ما يقارب أثني عشر قرناً من الزمان، وهذا يكفي كدليل على أن نظام الحكم الذي رسمه العرب المسلمين تجاوب مع متطلبات الواقع، وادى الاستحقاقات لكل السكان على مدى تلك القرون،

فعاشوا في ظل ذلك النظام أخوة متحابين يشد أزر بعضهم بعضاً لايفرق بينهم عدو ولايوقع بينهم منافق، فالدولة التي تعيش هذا الردح الطويل من الزمان بالتأكيد أن أمنها القومي غاية في الصلابة وهذا لايختلف علية اثنان، إلا أن العالم العربي ومنذ مدة تقارب القرن والنصف ابتليت أجزاءه تباعاً بالاحتلال والاستعمار الاوروبي، ثم تلا هذه الهجمة الاستعمارية قيام حركات تحرير لا على أساس تحرير كل العرب (تحرير قومي)، بل قامت على أساس التحرير الوطني، وقد انتهت بإجلاء المستعمر التقليدي فقد وكانت المحصلة النهائية تفتيت العالم العربي إلى عدة دول قطرية بعد أن كان في مجمله دولة واحدة مهابة الجانب

يخشى صولتها الأعداء، وهذا التفتيت أدى إلى خلخلة جوانب الأمن القومي العربي وبسبب الضغوط الخارجية، مما أدى الى تصديع تلك الجوانب ثم مع الزمن آلت تلك الجوانب وتهدمت، وقد ترتب علية عجز الدولة القطرية عن تحقيق التنمية الاقتصادية، واقرار العدالة الاجتماعية وهذا ما يعرضها اليوم إلى مزيد من التفتيت والتشرذم، وهذا في حد ذاته هو مطمع الطامعين بخيرات الوطن العربي واستراتيجية عملهم في المنطقة العربية، ومن المسلم به أن الأقطار العربية موحدة اللغة والدين والدم والتقاليد بالإضافة. إلى وحدة المصالح، وهذه العناصر التي ذكرت قادرة على جعل الأقطار العربية نموذجاً وحدوياً قائماً على أساس وثوابت طبيعية عنوانها القومية العربية بكل. ما يعنيه هذا المصطلح من معنى، إن الإثبات التاريخي على أن المجتمع البشري ومنذ وجود الدولة، وعبر كل أشكال تكويناتها السياسية، كان حريصاً على أمنه وسلامتة، واستقراره وبقائه، بل وعلى امتداد وجوده وعبر ما كان يتخذه وبواسطة الدولة من التدابير والأوضاع التنظيمية والعملية التي يكون مؤداها قمع التمردات في الداخل، وردع القوى الطامعة به من الخارج أما بإدماجه أو إلحاقها به وإما بإزالتها، من هنا كانت عناية الدول تاريخياً بالجانب العسكري والذي هو عنوان مفهوم القوى عبر نظرية الردع، والتي تعني أنه كلما ازدادت الموثوقية بالسلاح كلما قلت فرص الخصم لتعريض الأمن للخطر، وبهذا اصبح هاجس الدول جميعاً، طواعية أو قسراً امتلاك أشد الأسلحة فتكاً لبلوغ الأمن وضمان الاستقرار.

أهمية الدراسة:

إن أهمية البحث نبعث من كون الأمن للشعوب العربية ضرورة من ضرورات وجودها، ففي الوقت الذي فقد هذا الأمن العربي مقوماته المتمثلة بالإمكانيات العربية الذاتية الطبيعية والبشرية والأسلوب الذي تدار به هذه اللإمكانيات من أجل تخديم الهدف الأعلى للمجتمع العربي في الأمن والسلامة والبقاء. إن هذا بات علينا من الضروري دراسة بعض جوانب الأمن القومي العربي، والذي يعتبر نواة الأمن الإسلامي، مع التركيز على العوامل التي أدت إلى استباحة هذا الأمن وجعلتة مشرع الأبواب تنتهك حرمته أقل الأعداء قوة وشكيمة، الأمر الذي اضفى أهمية خاصة تستميل هوى الباحثين لكون الأمن ومقوماتة مطلب الفرد العربي والجماعة الإسلامية في آن واحد.

أهداف الدراسة :

إن هذه الدراسة تسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

بيان مفهوم الأمن القومي بشكل عام ومفهومه عربياً بشكل خاص.

بيان مقومات التنمية الاقتصادية العربية.

توضيح العلاقة القائمة بين الأمن القومي العربي والتنمية العربية.

التعرف على أهمية الأمن القومي العربي لكونه عاملاً لنجاح التنمية العربية.

فرضيات الدراسة :

وأما فرضيات الدراسة فإنها تقوم على أساس فرضية رئيسية وهي: أن الأمن القومي العربي مفقود، وهذا ناجم عن عدم وجود حكومة واحدة للعرب تضع سياسة واحدة للأمن القومي العربي، والحكومات المتعددة اليوم ونتيجة تعددها واختلاف مصالحها وتعدد برامجها السياسية وسيادتها القطرية وعدم التزامها بالارادة الشعبية فهي غير قادرة على وضع برنامج أمن قومي عربي، بالإضافة إلى عدد من الفرضيات الثانوية ذات الصلة بالفرضية الرئيسية والتي سنشير لها في ثنايا البحث وتأتي على صيغة سؤال.

محددات الدراسة:

وأما محددات الدراسة فإننا سنقتصر على دراسة الشأن العربي في مجالي الأمن القومي العربي والتنمية العربية، والتركيز على العلاقة القائمة بينها، في الحدود التي تبلغنا الأهداف التي أشرنا إليها أيضاً.

منهجية الدراسة :

لقد اعتمدت هذه الدراسة على عدد من المناهج الأكاديمية التي تستخدم عادة في العلوم السياسية، وعلى رأسها المنهج التحليلي لبيان مدى الوزن النسبي لكل موضوع من مواضيع الدراسة، والمنهج التاريخي لتحسس ثقل الأحداث على الواقع العربي وانعكاساته على التنمية الاقتصادية العربية، وللوفاء بمتطلبات البحث فإننا سنتناوله من خلال المطالب التالية:
الأمن القومي العربي "النشأة والمعنى".

العناصر القومية للمقومات التنموية العربية.

الأمن القومي العربي الضائع "الضياع وأسبابه والتنمية واخفاقاتها". الأمن القومي العربي "النشأة والمعنى":
لقد اقتبست معظم الدراسات التي تحدثت عن الأمن القومي العربي مصطلحاتها ومفاهيمها ومضموناتها من الدراسات الأجنبية المتعلقة بالأمن القومي، وبخاصة باللغتين الفرنسية والإنجليزية، لقد أخذت الدراسات العربية باستعمال مصطلح "الآمن القومي" في مقابل المصطلح بالإنجليزية

(National security) وبالفرنسية (Securete Nationale)، وتنطبق الدراسات والمصطلحات الفرنسية والانجليزية هذه على مجتمعات شكلت ما يسمى "الدولة ـ الأمة" أي أن الدولة تضم، ضمن حدودها، الأمة كلها، كمثل ما هي علية الحال في فرنسا وانجلترا وايطاليا واسبانيا والولايات المتحدة وغيرها كثير، وهذا واقع يخالفة الوضع العربي لكون الوطن العربي مقسم إلى عدة كيانات سياسية مستقلة هي الدول العربية، والأمة التي تسكن هذا الوطن أمة واحدة معروفة الخصائص والمقومات واللغة والتاريخ والحضارة والتاريخ ولكنها هي الأخرى موزعه على تلك الكيانات السياسية الأمر الذي يضع في عرف البعض الأمن القطري أو الوطني في مواجهة الأمن القومي.

وهذا الأمن الذي نحن بصدد التحدث عنه لابد إذا أردنا معرفة نشأته، من الإشارة إلى أن هذا المصطلح والدراسات المرتبطة به تبلور أول ما تبلور في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي جاء تطور دراسات الأمن القومي فيها جزءاً من تطور أكبر شمل جميع حقول العلوم الاجتماعية بصفة عامة، وعلم العلاقات الدولية بصفة خاصة، ولم يقتصر تطور هذا المفهوم في الولايات المتحدة على الجانب النظري المرتبط بالممارسات العلمية، بل شمل كذلك الجانب العلمي المتمثل في إنشاء مؤسسات مختصة بالحفاظ على الأمن القومي، بل لعل الجانب النظري والدراسي جاء كنتيجة للإهتمام الذي أولاه المسؤولون السياسيون لظاهرة الأمن القومي.

أن ظروف الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي دعت الولايات المتحدة لتكون سباقه في الاهتمام بشأن الأمن القومي حيث صدر عام 1947 قانون الأمن القومي، وتأسيس بمقتضى القانون مجلس الأمن القومي، واستحداث منصب مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، زاد في الاهتمام ما أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية من استقطاب دولي صارم، وبروز أسلحة الدمار الشامل، الأمرالذي جعل من قضية الأمن القومي أكثر من مجرد هواجس سياسية وأمنية بل جعلت منها قضية وجود أولاً وجود، وهذا ما أرق أذهان المسؤولين السياسين في كل بقعة من بقاع العالم، فاحتذت حذو الولايات المتحدة بالاهتمام،

ومن هنا جاءت فكرة الامن القومي العربي والاهتمام بالشأن العربي كقضية ان نكون أولانكون نحن العرب ويتوجب علينا قبل تحديد مفهوم الأمن القومي والوقوف على معناه، وقبل ذلك فعلينا أن نعلم ان هذا المصطلح "مصطلح الأمن القومي"يعاني من الغموض والتشوية الذي تعاني منه جل مصطلحات العلوم الاجتماعية، وأسباب ذلك كثيرة منها:

الاستخدام المكثف لهذا المفهوم وتداوله عبر مختلف قنوات وسائل الاتصال،

بصورة تجعلة يحمل الكثير من المضامين والدلالات المتضاربة والمتناقضة، والتي تحمل في الأصل هموم وتطلعات مستخدمي هذا المصطلح.

يحمل هذا المصطلح كما يرى البعض ميراث الهيمنة الامبريالية، ويكاد أن يكون سيئ السمعة لارتباطه تاريخياً بتبرير الحروب الاستعمارية، والقمع الداخلي باسم الأمن القومي.

حاجة المصطلح المتجددة إلى التحديد المستمر حتى تستطيع دراسات الأمن القومي، أن تستجيب إلى الخصوصات المتعلقة بأمن الدول والشعوب.

تعقد وتشابك العناصر المشكلة للأمن القومية، تجعل من متابعتها ورصدها أمراً بالغ الصعوبة.

افتقار مصطلح الامن القومي إلى مفهوم محدد ومتفق عليه بسبب اللجوء إلى التقدير والبعد الذاتي للأمن القومي.

أن هذا الغموض والصعوبات التي تكتنف محاولة تحديد مفهوم الأمن القومي، لا تعني الوقوف عند حدود المصطلح دون محاولة تعريفة، فالمدرسة القيمية الاستراتيجية التي تنظر إلى الأمن كقيمة مجردة وتربطه بقضايا الاستقلال وسيادة الدولة تعرفه على أنه: "قدرة الأمة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية"، وأما المدرسة الاقتصادية فترى في تعريفها الأمن القومي واقع في اتجاهين: الأول ويرى أن الامن القومي مرتبط بالموارد الحيوية الاستراتيجية(تأمين موارد الطاقة مثلاً)، الاتجاة الثاني يرى أن التنمية الاقتصادية تشكل جوهر الأمن،

وهو ما ذهب إليه روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ورئيس البنك الدولي في كتاب ألفه عام 1968 اسماه"جوهرالأمن"، وهو يرى أن الأمن لا يكمن فقط في القوة العسكرية بل وبصورة مماثلة في تنمية نماذج مستقرة من النمو الاقتصادي والسياسي من الداخل، وفي الدول النامية في العالم أجمع، ويخلص إلى أن الأمن يعني التنمية ، وفضلاً عن تعريف المدرستين القيمية الاستراتيجية والاقتصادية، فقد أدلى علماء الاجتماع والسياسة وخبراء العلاقات الدولية بأفكارهم وأوردوا عدة تعريفات للأمن القومي محاولة منهم إعطاء معنى واضح لمفهوم المصطلح منها:

وقد عرف الأمن القومي بأنه: (قدرة المجتمع على مواجهة جميع المظاهر المتعلقة بالطبيعة الحادة والمركبة للعنف)، وقال آخرون: أنه تأمين كيان الدولة والتجمع ضد الأخطار التي تشهدها داخلياً وخارجياً، وتأمين مصالحها، وتهيئة الظروف المناسبة اقتصادياً واجتماعياً لتحقيق أهدافها والغاية التي تعبر عن الرضا العام في المجتمع، وقد ذهب البعض إلى تعريف الأمن القومي: (بأنه الاجراءات التي تتخذها الدولة للحفاظ على كيانها ومصالحها في الحاضر والمستقبل مع مراعاة المتغيرات الدولية)، كما عرف أيضاً بأنه: (مجموعة الوسائل الناجعة، والقوى المادية والمعنوية، التي تتوفر لدولة ما لحماية كيانها ونظامها ومجتمها من الأخطار الداخلية والخارجية التي تطالها أو تهددها).

هذه التعاريف عامة للأمن القومي، وأما ما قيل في تعريف الأمن القومي العربي: (فهو قدرة الأمة العربية على حماية كيانها الذاتي ضد الأخطار الخارجية من أجل ضمان بقائها).

وقد اشترط التعريف لتحقيق هذا الأمن شرطين هما:

الأول: وجود نظم ديمقراطية حقيقية موحدة أومتحدة أومتضامنة أوحتى متفقة على خطة عمل أمنية لحدودها الجغرافية.

الثاني: وجود تنمية شاملة واقتصاد متكافئ ومتكامل تحت قيادة قومية مؤمنة بحق شعوب الوطن العربي بوحدته أوباتحاده.

ونحن بدورنا نعرف الأمن القومي العربي بأنه: (امتلاك أسباب القوة القومية المؤهلة قيادة وكفاءة، والقادرة على تحقيق الرضا لكافة قطاعات الامة العربية، وتضمن لهذه الامة البقاء دون هواجس أو الشعور بالخوف)

إن الأمن القومي في الفكر السياسي العربي له مفاهيم متعددة ومشتتة ومتناقضة، وهذا له أسبابه وفي مقدمتها تأثير السياسة الاستعمارية، تلك السياسة التي حكمت كل تصرف للنخبة في الوطن العربي ووجهتها وجهة سياستها لتدور مع سياستها حيث تدور متوافقة لا متعارضة وبتأثير قوى الاستقطاب الدولي وخصوصاً تلك الفترة التي احتكمت إليها الكرة الأرضية إلى قطبين رئسيين شرقي وأخر غربي، وهذا الاستقطاب رافق عهد الاستقلال للدولة القطرية العربية، وتحديداً بعد الحرب العالمية الثانية والمتغيرات الواقعية الداخلية كسبب ثالث والمرتبط معظم هذه المتغيرات بالتخبط الغربي بعد الانفكاك عن الدولة التي كانت ترعى شؤونها، وإدارة مؤسساتها التي كان يديرها موظفين من الدولة المستعمرة ذاتها.

إن مفاهيم الأمن القومي المتعددة وإن كانت غير محددة الملامح نظرياً وعملياً ومفهومياً واستراتيجياً إلا أنها تشترك في كونها مفاهيم استلابية داخلياً وخارجياً، ولا تعبر عن طموح دولي للسيادة أو المنافسة مع القوى المتصارعة في العالم أياً كانت أسباب الصراع بل تعبر عن مفهوم أمني ضيق غالباً ما يكون ضمن حدود القطر ولا يتجاوزه إلى مفهوم أمن إقليمي جزئي إلى بدواعي الظروف المؤقتة، وهنا نجد نقطة الاختراق الأولي للأمن القطري والقومي معاً

إذ يتحول مفهوم الأمن إلى أمن النظام وأمن السلطة القائمة وليس أمن المجتمع والأمة، وإلا كيف تفسر الأخطار تهدد أطراف الوطن العربي كالخليج العربي والعراق والصومال واليمن وأي دولة أخرى تحاول الخروج عن الخط الأمريكي دون حراك عربي، وكيف تفسر العالم وخاصة أوربا تتخذ قرارات لصالح العربي والعرب في غفلتهم، إنها حقيقه القول الذي ذهب مثلاً نتمثل به نحن العرب في دولنا القطرية "حايدعن ظهري بسيطة" ونتناسى المثل الذي قال (أكلت يوم أكل الثور الأبيض).

العناصر القومية والمقومات التنموية العربية:

أولاً: العناصر القومية:

تعرف القوة القومية اللازمه للأمن القومي العربي بأنها هي: مجموعة من العناصر تستوحي مقوماتها من ذات الإقليم والإقليم ها هنا هو الوطن العربي بأكملة واستناد إلى التحديد الذي وضعة العالم الجغرافي (سبيكمان) لعناصر قوة الدولة أو (القوة القومية)؛ فإننا نجدها ـ العناصر ـ متمثلة في:

مساحة الوطن العربي.

طبيعة حدود الوطن العربي (أو الأمة العربية) وشكلها.

حجم سكان الوطن العربي.

وجود الموارد الأولية في الوطن العربي أو عدم وجودها.

التطور الاقتصادي والتكنولوجي للدولة أوالأمة.

القوة المالية للامة العربية.

التجانس البشري لسكان الوطن العربي.

التكامل الاجتماعي لسكان الوطن العربي أو الأمة العربية.

الاستقرار السياسي في ربوع الوطن العربي.

الروح القومية ومدى تأصلها في نفوس أبناء الوطن العربي أوالامة العربية.

وبعد أن أشرنا إلى مجموعة عناصر القوة القومية العربية فإننا نبدي الملاحظات التالية:

إن الأرض العربية مخترقة بالاحتلال والاغتصاب فهذه دولة الكيان الصهيوني محتلة ومغتصبة لفلسطين، واسبانيا لسبته ومليلة في مراكش والاسكندرونة من قبل تركيا وبقية الأقطار العربية واقعة تحت التهديد في كل وقت وحين وعلى حدود الوطن العربي وتخومه تتربص به قوميات في حكم الإسلام ما هي الاعصيات ليست من الإسلام بشيء

وهي: القومية الفارسية في الشرق والطورانية التركية في الشمال وتدعيان الإسلام، والقومية الأثيوبية ـ غير أسلامية ـ المتعصبة في الجنوب، ناهيك عن تمركز قوات غربية في شرقه وشماله وجنوبه سواء تلك التي في شبة الجزيرة العربية وهم من الأغراب من الغرب الطامع أو في القواعد الأطلسية في تركيا وبقية الجزر التي تحف بالوطن العربي.

وأما بالنسبة للموارد العربية فالوطن العربي يمتلك الكثير إلا أن زمام الأمر بيد الغرب الذي وضع يدة كلياً على بترول الخليج، وتحكم بالباقي بعد حرب الخليج الثانية التي خرج بها منتصراً والأمة العربية خرجت مهزومة، أضف إلى أن الموارد العربية غير مستغلة لعدم توافر عنصر التكنولوجيا لأسباب عدم توطينة في الوطن العربي، واعتماد الوطن العربي على ما يستورد من التكنولوجيا من الخارج، ولا يعطي مصدروها إلا الذي أصبح بحكم الزمن خارج الخدمة لديهم.

وأما التطور الاقتصادي والتكنولوجي والقوى المالية فهذة العناصر بحكم الغائبة عن الوطن، وذلك لوقوع معظم الأقطار العربية تحت طائلة المديونية والفوائد المترتبة على الدين وهذا بدوره يعود إلى هجرة المال العربي إلى أسواق المال الغربية، وفشل خطط التنمية العربية لأسباب ربما تعود إلىعدم الاستقرار، ورأس المال لا بدلا من الاستقرار الكامل ليتوطن.

وأما بالنسبة للتجانس البشري والتكامل الاجتماعي ففي اعتقادنا أن الوطن العربي يمتلك من مقومات التجانس والتكامل ما يجعلة يتفوق على غيرة من الأقطار إلا أن الاستعمار أفسد هذة الخاصية وخوّف الأقليات وبث الرعب في نفوس الأثنيات حتى أخذت تطلب حماية الغرب، وأصبحت الأنظمة العربية مرعوبة اتخذت من عنصر التهدئة سياسة لا تحيد عنها من أجل التوصل الى الوحدة الوطنية والحفاظ عليها.

وأما الاستقرار السياسي فالوطن العربي غير مستقر؛ لأن الدول الأجنبية تتدخل في شؤونها صباح مساء ولا تستطيع الدولة القطرية كف يد التلاعب الخارجية في شؤونها الداخلية وأما الروح القومية فقد انكفأت وذلك لصعود موجة الروح الوطنية؛ فالحديث عن القومية كلام لا يتعدى الفعل؛ لأن هناك تناقض في المصالح بين ما هو قومي وما هو وطني.

نخلص إلى نتيجة أن الأمة العربية تمتلك من القوة القومية الكثير، ولكنهاغير قادرة على تفعيل هذة القوى في معركة الحياة الأمر الذي يجعلنا في مركز نستطيع القول فيه: أن عناصر القوة القومية العربية غائبة عن مسرح الحياة العربية رغم امتلاكها، وهذا ما يجعل الأمن القومي أبوابه مشرعة للداخل والخارج دون سؤال أو طلب التعرف على الهوية.

ثانياً: المقومات التنموية:

يمكننا بداية تعريف التنمية بأنها: (أحداث انقلاب اقتصادي يهدف إلى زيادة الصادرات العربية وذلك بتطوير الانتاج والتوسع والتنويع فية مقابل التقليل من الواردات بسبب انتاجها في الداخل" وبمعنى آخر هي : زيادة قيمة فاتورة الصادرات وانخفاض قيمة فاتورة الواردات)" وهذا يتطلب أرضية لإنجاح الخطط التنموية وهي متوفرة في وطنناالعربي، فبالاضافة إلى عناصر القوة القومية الأنفة الذكر والتي تعتبر مقومات تنموية هامة هي الأخرى وتسهم إسهاماً كثيراً في إنجاح الخطط التنموية العربية فيمكننا الأشارة إلى أهم الموارد الخام اللازمة للخطط التنموية بالنسب المئوية وعلى النحو التالي:

إن مساحة الوطن العربي تقدر بـ (14) مليون كم^2 أي مايعادل (10/1) من مساحة العالم وحتى الصحراء العربية تشكل(62%) من مساحتة الكلية تعتبر مصدراً للأمان بالنسبة للنمو البشري في المستقبل بما يمكن أن توفرة من الطاقة النظيفة المولدة عن الشمس والرياح، وأما الثروات الباطنية فهي من الأهمية بمكان فالوطن العربي يعتبر مخزن للطاقة حيث يحتوي (52%) من الاحتياط النفطي العالمي، ويمكن ان يكون الاحتياط الوحيد في العالم ولمدة خمسين عام قادمة، وأما الموارد المعدنية فنجد في الفوسفات. البشرية يعتبر سكان الوطن العربي من العنصر الشاب وهذا له دلالتة في عالم التنمية.

الأمن القومي العربي الضائع "الضياع وأسبابه والتنمية واخفاقاتـها "

بعد ان تطرقنا إلى مفهوم الامن القومي بشكل عام وما يخص الأمن القومي العربي من معنى وأهداف وعناصر ولطالما حكمنا مسبقاً على الأمن القومي العربي أنه مفقود، فلا بد والحالة هذة من أدراك وتحديد أسباب فقدانه، وهذة في اعتقادنا الخطوة الاولى نحو صياغة استراتيجية هادفه هدفها البعيد اعادة بناء الأمن القومي العربي المهاجر، ولايكتب لهذة الاستراتيجية النجاح الااذا تعادلت قدرة العرب بشكل عام مع قوة التهديد المستمر للكيانات العربيه، وإذا رجحت كفة قددرة العرب على قوة التهديد المستعمرشاع الأمن القومي في ربوع الوطن العربي لا نخشى نحن العرب عندها الأخرين، ويكون بوسعنا بناء خطط تنمويه ناجحة قادرة على ايجاد حالة من الاكتفاء الذاتي أقتصادياً" ولكل العرب.

وأما أسباب هجرة الأمن القومي عن أرض العرب ورحيله مفقود إلى أسباب رئيسية أربع: سياسية وايديولوجية ولاعقلانية واقتصادية، وسنبدأ بأولها:

أولاً: الأسباب السياسية:

تجزئة الوطن العربي:

مما لاشك فيه ان العالم العربي التحق بركب الإمبراطوريه العثمانية لمدة أربعة قرون ونصف كان قبلها يعيش في حالة من التفكك والاحتلال- فالعراق كان يخضع للدوله الشيعية الصفوية، وبلاد الشام ومصـر للأسرة المملوكية، وفي الحجاز أشراف مكه، وبقية الجزيرة العربية كانت أسيرة التنظيمات القبلية، في حين حكمت السودان دولة الفونج، التي كانت تنظر إلى إقامة دولةعربية أسلاميه ابتداء من توحيد وادي النيل، أن هذا يعني واقع عربي مجزء وكيانات عربية متضارية المصالح، شجع ذلك كله الطموحات العثمانية إلى ضم العالم إلى العربي إلى الدولة، ولم تجد الامبراطورية العثمانية مقاومة بمعنى المقاومة المرافقة للضم، كون الامبرطورية برزت الى حيز الوجود كدولة إسلامية وريثة للدول الإسلامية السابقة كالأموية والعباسية ...

وخاصة بعد أن أولت الدين أهتماماً كبيراً، وأظهرت ندية للإمبراطوريةالبيزنطية المسيحية واعتمادها على ايديولوجية الجهادالمقدس في حروبها جميعاً، هذه الايديولوجية شجعت العرب أصحاب الرسالة الأوائل الانخراط في صفوف جسم الدولة، ودان لها الولاء من قبل الجميع عرب وسلاجقة وتركمان ،ولتفوا حول رايتها، وخصوصا بعد أنتصارهم الكبير على الامبراطورية البيزنطية، وفتحهم لعاصمتها القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام 1453م، والتي غيروا اسمها الى (اسلام بول)، وكان الفتح أعظم ثمرة لايدلوجية الجهاد التي اعتمدها العثمانيون والذي تحقق به قول رسول ع حيث قا ل:(لتفتحن القصطنطينية ونعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها)، وفي أواخر عهد الامراطورية وضعفها طمعت باالوطن العربي قوى أوروبية وزادت الاطماع في نهاية القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، وخاصة بعد أن آل الحكم الى جمعية الاتحاد والترقي التركية، فعلى أثرها بدأ مشوار التجزئة العربية يغزو العالم العربي ليترجم في نهاية الامر الى تبعية عربية كل جزء للدولة التي طمعت فيه، وهذا المسلسل بدا فعليا عام 1897م في بازل حيث عقد دهاقنة اليهود مؤتمرهم الأول وقرروا فيه أن تكون فلسطين وطنهم القومي المقبل، وفي زمن متقارب لزمن المؤتمر اليهودي هذا، عقد مؤتمر في لندن عام (1905– 1907) ودعا الية السير كامبل بنرمان رئيس وزراء بريطانيا، حيث تعانقت الاماني اليهودية مع التطلعات الاستعمارية الغربية في ذلك المؤتمر، حيث دعا بنرمان الدول ذات المصالح الاستعماريةوهي: (بريطانيا وفرنسا وبلجيكيا وهولندا وايطاليا واسبانيا) إلى مؤتمر لأهل الفكر يعقد في العاصمه البريطانية، فبعثت بخيرة
علمائها ومشاهيرها في علم الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ والنفط والزراعة والآداب والاستعمار، وخلصت لجنة المؤتمر إلى التوجهات التالية:

على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة المنطقة العربية الواقعة من المحيط الى الخليج، لأنها منطقة إذا اتحدت أصبحت أوروبا في خطر منها.
إبقاء شعب هذة المنطقة على ما هو عليه من الجهل والتخلف.

إقامة حاجز بشري قوي وغريب، يحتل الجسر الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، يربطها معا بالبحر المتوسط بحيث يشكل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوه للسكان المنطقة، وبذالك يتم الفصل بين افريقيا وأسيا.

لتاتي اتفاقية سايكس بيكو فصلاً جديداً لتجسيد فكرة التجزئة على أرض الواقع وذلك بتجزئة بلاد الشام الطبيعية بين شريكين استعماريين فرنسا وبريطانيا وجعل فلسطين دولية، وبذلك تهيأت أجواء التجزئة على الأرض بفصل جديد أخر ترجم بوعد بلفور عام 1917م، تبع الوعد خطوة فعلية ترجمت وتم حياكتها في مكاتب وزارات الخارجية الاستعمارية ليأخذ واقع التجزئة التطبيقي على أرض الواقع دوره، وذلك بموافقة عصبة الأمم المتحدة على صك الانتداب في 24 تموز عام 1922 لتعطي الشرعية الدولية لصيغة التجزئة، وقيام دولة الكيان الصهيوني، وتجيز ما فعله اللنبي البريطاني وغور الفرنسي من احتلال لبلاد العرب الشامية، وبوقت ليس ببعيد أقرت الحكومة التركية بانسلاخ الولايات العربية عنها على أثر معاهدة لوزان التي عقدت بين تركيا والحلفاء عام 1923، لينتهي الأمر للغرب المستعمر لفعل ما يحلو له فعله في أرض العرب، فاذا كان هذا ما حدث في الجزء المشرقي من العالم العربي، كان الاستعمار ذاته يدخل المغرب العربي ويحتل أرضه ويجزء الرقعة الواحدة إلى أقطار فكان للفرنسيين إقليم مراكش والجزائر وتونس وللأسبان الصحراء وإقليمي وسبتة ومليلة، ولايطاليا الإقليم الليبي ولبريطانيا اقليم وادي النيل مصر والسودان، فعملت الدول الاستعمارية على مد الاسلاك الشائكة بين هذه الأقاليم واعتبرتها حدوداً فاصلة بين هذا الإقليم وذاك، وتضع القوات المسلحة على جانبيها وقوانين للعبور والخروج من كل قطر الى الأخر، ومحاكم بيدها صلاحية ايقاع العقوبة لكل من يخالف ويقطع الحدود دون مأذونية، لقد أدى سقوط الوطن العربي في براثين الهيمنة الغربية الى عدة نتائج خطيرة وطويلة الأمد منها: تفتيت طاقة النضال الموحد الى حركات مبعثرة انشغلت بالكفاح ضد الاحتلال الأجنبي في كل إقليم من الأقاليم المصطنعة كمنطقة نفوذ لهذة الدولة الاستعمارية أوتلك، زاد الأمر بله تخلف الفكر العربي نتيجة عدم مقدرتة على احتواء الخلافات بين صفوف هذة الحركات

والتي برزت على هيئة اتجاهات متضاربة اعتنقتها هذه الحركات وتمحورت حول الطائفية والمذهبية والعنصرية والجهوية، لتذهب كل حركة تستعين بأي جهة تشد عضدها ضد الحركة الأخرى، مما سنح للمستعمر فرصة ترسيخ ما فعلة على أرض الواقع من تجزئة وتقسيم، فقرب إليه بعض الحركات وأيدها على غيرها، وبعد خروج المستعمر من الاقليم سلم قيادتة للحركة التي إلتجئت إليه، واخذت الحركة وبرعاية من الاستعمار نفسة تؤدي دوراً أكثر تحقيقاً للأهداف الاستعمارية مما لو بقي المستعمر بثوبة الاستعماري على أرض ذلك الإقليم، وهذا انعكس سلبياً على العالم العربي وذلك بارتباط كل إقليم من أقاليمه بالعالم الخارجي وتحديداً بالدول التي استعمرت ذلك الاقليم، وهذا الارتباط أدى إلى علاقة تبعية اقتصادية وثقافية ونفسية وعضوية، أقوى من تلقائية تكاملها بين بعضها البعض اقتصادياً أو توحدها سياسياً، وهذا يعني اعطاء مساحة أوسع للدول المستعمرة للتدخل في شؤون كل إقليم توجيها وإرشاداً وتصميماً وبناء والدخول إلى أي بيت من بيوت سكان ذلك الإقليم وترتيبه بالصورة التي تريد لنأتي إلى السؤال التالي:

هل هناك أساسيات سليمة للبناء الذي سيشاد ويطلق عليه بناء الأمن القومي العربي؟ فاذا كانت أساسيات هذا البناء صاغها الاستعمار ووضع كل جزئية من جزيئاته، فهل يصلح البناء لخدمة أغراض غير الاستعمار؟ وخاصة ونحن نعلم أن الاستعمار خلق في كل إقليم سلسلة من المتناقضات الإقليمية التي تبعث على الكراهية والحقد يكنها أبناء الإقليم العربي هذا لأبناء الإقليم العربي الذي يجاوره، لقد أدت التجزئة بلا شك إلى ولادة مولود سياسي مشوه في الوطن العربي بعد مخاض طويل كلف كثير من الأرواح ذلك هو المولود القطري، الذي ولد في بيوت المستعمرين وبعناية حثيثة من خلال طاقم سياسي متمرس وخبير، إن التجزئة التي قطعت أوصال جسم عالمنا العربي انعكست سلبيا على التنمية الشاملة لهذا العالم؛ وتبرز انعكاساتها على النحو التالي:

تاثر الوطن العربي سلبياً من ناحية الاكتفاء الذاتي حيث خلقت التجزئة واقعا مجزئاً لا يستطيع أي جزء منة الاكتفاء ذاتياً غذائياً وصناعياً فأدى هذا إلى تكريس التبعية لأسواق الغذاء الغربية.
ولادة سلسلة من التناقضات داخل الوطن العربي تكمن في التفاوت في المساحة والسكان والثروة، وطول الإطلالة على البحار (حيث تجد بعض الأجزاء لا
تتجاوز عدد سكانها بضع ألاف تمتلك شواطئ بحرية أكبر من التي تتجاوز عدد سكانها عشرين مليون) فأدى هذا إلى حساسيات بينية، أدت الى الحروب الجانبية بين هذة الاجزاء بعد قيام الدول القطرية، جيرت أموال التنمية لحساب فاتورت السلاح، أو دفعها كاستحقاقات حماية بعض الدول التي تتباكى على أمن هذا الجزء نتيجة الشهوة العارمة في التعدي عند جيرانه.القطرية:

قامت الدولة القطرية لتعلن استقلالها، وتنشر علمها خفاقاً، وتصدر جوازات السفر التي تحدد جنسية المواطنين، وإذ بالاستقلال لا يعني استقلالاً يعبر عن الحرية، وإنما استقلال كل جزء عن الأجزاء الأخرى في العالم العربي يعني تفتيت هذا العالم، وبهذا تكون التجزئة في الماضي قد فرضت فرضاً بحراب الاستعمار رفضتها الشعوب، أما في عهد الاستقلال فقد أصبح المطلوب من الشعوب مباركة كل الخطوات التي تقوم بها دول الاستقلال، وهي تعمل على تعزيز التجزئة، ولا أدل على ذلك من نشوء مؤسسات وقوى اجتماعية قطرية بدأت وظيفياً بخدمة أهداف السلطة المحتلة (الاستعمار قبل الاستقلال)، وارتبط نموها بالاستعمار فيما بعد، رغم الاستقلال السياسي عن الغرب، فالمؤسسات والقوى التي نشأت على يديه كانت قد اكتسبت مواقع راسخة تمكنت من الاستمرار بقوة دفع ذاتية، في ظل الوضع الراهن تحولت القطرية إلى نزعة طائفية أو دينية ذاتية الأمر الذي أدى إلى استنفاذ الأنظمة السياسية والإجتماعية العربية أغراضها، وأصبحت مهمتها الأولى المحافظة على البقاء، إن القطرية العربية فشلت فشلاً ذريعاً كونها لم تحقق انجازاً يذكر وتسببت في إشعال صراعات عربية صارت أهم من المحافظة على الأرض العربية والأمن العربي الشامل، وفي نفس الوقت فشلت في تحقيق الأمن القطري،

وأصبح هم الفئات الجديدة المحافظة على مكاسبها الاقتصادية والاجتماعية وليس استعادة الأرض المسلوبة أو حماية الحقوق المهدورة، وفي محاولة للخروج من شرنقة القطرية الضيقة إلى مجال أرحب واسع تنادت الأقطار العربية إلى إقامة رباط وحدوي فيما بينها وكانت جامعة الدول العربية، ثم ولدت تجمعات إقليمية هنا وهناك كمجلس التعاون الخليجي والاتحاد المغربي، إلا أن العرب لم ينجحوا من تحقيق غاياتهم من وراء هذه التجمعات، لكونها طرحت في الأصل على أسس القطرية للمحافظة على قطرية أعضائها، وعلى هذا الأساس فإن القوى السياسية في الوطن العربي تعبأ قطرياً وتخوض معاركها قطرياً وحتى ولو رفع بعضها شعارات قومية.

إن النتائج التي ترتبت على ذلك كله، جعل من القطرية ركيزة من أهم ركائز الهيمنة الاستعمارية في الوطن العربي لكونها الدولة القطرية أصبح من وظائفها:

المحافظة على وضعية التبعية للدولة المستعمرة لها قبل الاستقلال القطرية.

العمل على تكريس التجزئة وتعميقها من خلال رفعها لشعار الوطنية.

وبناء على ما سبق فإن القطرية أورثت العالم العربي تبعية سياسية والتي أدت إلى قصور أشكال التنمية في الوطن العربي نتيجة لهذه التبعية السياسية التي عكست بدورها حالة التبعية الاقتصادية، التي ما فتئت تتفاقم وتاخذ أبعاداً كارثية رغم (فورة النفط)، ورغم تجارب التنمية التي اعتمدت الطريقة الاشتراكية، فهذه الأزمة الغذائية تتفاقم وتهدد بالجوع الحقيقي ناهيك عن الجوع المقنع، ويتم الاستيلاء على الثروات الباطنية من خامات ومعادن ومصادر طاقة نتيجة غياب الأمن القومي، في مقابل استيراد تكنولوجيا معلبة، ناهيك عن حمى استيراد الكماليات وعناصر الاستهلاك التي بلغت في بعض الحالات مستويات خرافية، إن الخطط التنموية القطرية في الوطن العربي فشلت فشلاً ذريعاً،

ولا أدل على ذلك من كون قيمة فاتورة الاستيراد تتزايد، وأصبحت المواد الغذائية الاستراتيجة وسيلة من أكبر وسائل الضغط السياسي والذي تقوم الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة من أنتزاع أي قرار سياسي نتيجة التلويح بقطع الامدادات الغذائية كالقمح مثلاً عن أفواه هذا القطر أو ذاك من أقطار الوطن العربي، فالدول القطرية أصبحت اليوم كائن سياسي لايناسبه إلا ما يأتيه من الغرب، وصرف هذا المولود القطري همة إلى النواحي المعيشية، لايتكلف جهداً في إنتاجها، بل يدفع ما في جيبة لاستيرادها، وهذا كله له نتائجه السلبية على أي مشروع تنموي يفكر به قادة الدولة القطرية وأهم هذه النتائج:

أخذ الخطط التنموية من الدول الأجنبية التي تتبع الدول العربية لها، وهذه الخطط أن وافقت تلك الدولة لا تلائم الدولة القطرية العربية تبعاً لاختلاف أنماط الخطط ونوعيتها وبيئتها والإمكانيات المتوفرة لتنفيذها.

إن الأموال التي سيتم بها تنفيذ المشروع التنموي ستأتي عن طريق المنح أو القروض، وسيتم أخذ مشورة الدولة المانحة في كل شأن من شؤون الخطة التنموية، وهذا في حد ذاته تدخل في شؤون الدولة القطرية العربية، والذي يقود إلى ما يسمى بالوصاية في عالم السياسة على تلك الدولة فتدخل الدولة من جديد في حضيرة دول التبعية السياسية والاقتصادية، وأما طريقة القروض فيعني ادخال الدولة القطرية العربية في حبائل الدين وفوائدة، وهذا في حد ذاته تكبيل لكل قرار سياسي واقتصادي تريد الدولة اتخاذه.

تقبل الدولة فكرة قدوم المستشارين والخبراء من الدول المانحة أو المقرضة، وهؤلاء سيعملون على إفشال كل الخطط التنموية،لأن نجاحها لايعد في مصلحة بلادهم على الإطلاق وينعكس سلبياً عليها لكون الإكتفاء من مادة استيرادية واحدة يعني اغلاق الابواب امامالمادة التي تنتج في البلاد المصدرة.

ثانياً: الأسباب الايديولوجيا:

التوظيف الخاطئ لورقة القومية العربية:

هناك شعارات وايديولوجيات عديدة شهدتهما الساحة العربية منذ مطلع القرن العشرين ولغاية الآن، نشير إلى اثنتين منها وهما: القومية العربية والوطنية، فالقومية من أهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري والجماعات، وتجعله يحبها، ويعتز بالانتساب إليها، ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها بماله ونفسه، وبعبارات وجيزة هي:

ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة، وتعني أن أبناء الأصل الواحد واللغة الواحدة ينبغي أن يكون ولاؤهم واحد وإن تعددت ارضهم وتفرقت أوطانهم، وإن كان معناها أيضاً السعي في النهاية إلى توحيد الوطن بحيث يجتمع أبناء القومية في وطن شامل، فيكون الولاء للقومية مصحوباً بالولاء للأرض .. ولكن الولاء للقومية يظل هو الأصل ولو لم تتحقق وحدة الارض، إن هذا يصب في نهاية الامر في الأمن القومي تخشى الأمم الأخرى التعدي وحتى التفكير في الاساءة للأمة، فهل تحقق هذا المعنى في الوطن العربي؟

أنا لست ضد القومية ولكني معها وأعلن بصراحة "أنني قومي" لكن أي القومية أقصد أنني أقصد القومية التي تضع اعتبارات الدين في مقدمة أي اعتبار أخر، إلا وهي القومية التي ولدت في رحم الدين، فإذا ما تدبرنا تعاليم الدين الإسلامي وأدابه عبر تاريخه الطويل ادركنا أنه لايعترض على القومية لوحدة اجتماعية ينتمي اليها العربي ويعتز بمكارمها ويسعى لخدمتها، كما لايتنكر الإسلام لحب المرء لأمته، وحنينه لوطنة ، فالرسول ع قال يوم فتح مكة، حين عاد إليها منتصراً :"(والله انك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا قومي أخرجوني منك ما خرجت)، لقد كانت مكة وطنة الأول، ومسقط رأسه الشريف حتى بلغ الثالثة والخمسين من عمره، وهي كذالك بلد أبائه وأجداده وعشيرته.

وإن القومية التي تجعل ولاء الفرد وإخلاصه للمصلحة القومية قبل أي اعتبار أخر من دين أو خلق أو عدالة، فهو إما أن ينتصر لعنصره وجنسه، ويعتز بلونه، أو ينتصر لسياسة دولته مهما كانت خاطئة أو جائزة تجاة الدول أوالأمم الأخرى، فهي مرفوضة وغير مقبولة والقومية العربية التي طلب منا الإيمان بها هي من هذا النوع والتي قال فيها "جورج كيرك " (George Kirk)، مؤلف كتاب موجز تاريخ الشرق الأوسط (A short History Of the Middia East) (أن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني) هكذا يقول أولئك الذين قد تربى أبناء القومية العربية الأوائل في بيئتهم، واتخذوا من دهاقنة السياسية عندهم أبناءنا من القوميين العرب الأوائل أساتذه ومعلمين. فأورثتنا القومية مورثات لعينة كالجهوية والإقليمية والفئوية

فتقدم أبناء جهتتنا التي فيها نعيش وأبناء الاقليم الذي به نحيا والفئة التي حولها نلتف على غيرنا، وهذا مبدأ تنكره كل أعراف الدين. بينما القومية الحقيقية التي ولدت في بيت المندوب السامي البريطاني وهي قوميتنا العربية التي طلب منا العمل بها وعملنا بها ونحن نعلم، فهي مرفوضة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه الصلاة والسلام:

ألم نقرأ في كتاب الله قولة تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة: الآية 24]، وفي نفس السياق يقول الله عز وجل : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ..﴾

[سورة المجادلة: الآية 22] ،و

هذا الرسول ع ينكر مبدأ القومية المتطرفة والتي تنتحي منحىالجهوية والإقليمية والفئوية واعتبارها فوق كل اعتبار بقوله ع: (ليس منا من دعا الى عصبة، وليس منا من قاتل على عصبة، وليس منا من مات على عصبة "، وروى ان الرسول ع سئل: أمن العصبة أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا...ولكن العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم".

أن الحقيقة لن تخفى على أحد وخصوصاً ونحن نعيش في فترة محاسبة الذات، فقد لعنا بعضنا البعض ولكن بصورة ربما ترتقي عن لغة أبناء الشوارع وذلك بإطلاق مسميات مصطلحية عجت بها وسائل الإعلام العربية وذلك بالقول هؤلاء تقدميون وأولئك رجعيون، وهؤلاء ثوريون وأولئك متخاذلون وهكذا على المستوى الأقطار العربية، وأما على المستوى القطري الداخلي فنجد صيحات تتعالى بالقول فهذا شمالي وذاك جنوبي وهذا حضـري وذاك ريفي أو بدوي، صياحات نجدها هنا وهناك تصم الآذان، تلقيها جهات عدة من الخارج

أو ربما من الداخل، تتخذ الأنظمة الحاكمة من هذا الأسلوب رداء ترتديه لأن مثل هذه الدعوات هي التي تمكن هذا النظام أو ذاك من البقاء.

أن المكون الحقيقي للوحدة العربية والتي هي المحط الأول للقومية العربية، والهدف الذي لايعلوه هدف، وبجميع أنواع هذه الوحدة وفروعها: السياسيه والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ...إلخ، إنما هو النبي ع، هو الذي جاء بالقرآن، ودع إلى الحق وأسس أول مدينة عربية عرقها التاريخ، وهي يثرب ولم ينتقل الى جوار ربه حتى نمت وحدة الجزيرة العربية، فكانت وحدة العرب منظمة، قانونها القرءان، ونظامها السياسي يقوم على العدل والإنصاف والمساواة بين الناس، والقومية العربية التي أنشأها الإسلام بهذا السياق لم تكن تتألف من العنصر العربي الخالص، وإنما كانت تتألف جميع العناصر التي كانت تسكن كل هذه البلاد فقد قال الرسول العظيم أمام الملأ: (سلمان من أل البيت) فكانت أمة جديدة عربية اللغة، عربية التفكير والشعور عربية الحضارة والثقافة والآداب.

وإن القومية العربية لم تفضي بناء إلى ما أفضت به القومية الإسلامية التي كان مكونها الحقيقي الرسول العظيم ع، بل أفضت بنا إلى أقطار متناحرة الجزائري يقف في وجه المراكشي والتونسي في وجه الليبي والمصري يقف في وجه السوداني والسعودي في وجه اليمني والعراقي في وجه الكويتي ...إلخ، بل أن أهم مؤسسة عربية يشار إليها على أنها تحمل عنوان القومية هي جامعة الدول العربية وحتى لايغيب عن بالكم فإن هذه الجامعة التي تعتبر في مظهرها مظلة قومية هي من أفكار بريطانيا وبالأخص وزير خارجيتها نادت بها بريطانيا لخدمة أغراضها الاستعمارية، حيث تم توجة جديد في سياسة الاستعمار إزاء حركات التحرير التي ظهرت هنا وهناك في بقاع العالم، هذا التوجه يكمن في التخلي. عن سياسة فرق تسد الاستعمارية إلى سياسة "وحد واحكم".

فكانت جامعة الدول العربية حصان طروادة لهذه السياسية، ألم تاتي أكلها عام 1990في مؤتمر القمة العربي في القاهرة لبحث الأزمة العراقية الكويتية الذي عقد تحت مظلة جامعة الدول العربية وبدعوة منها، ماذا كانت النتيجة؟

إن الاجتماع الذي عقد تحت سقف جامعة الدول العربية قرر تدويل الأزمة أي إعطاء الشرعية لأمريكا خاصة وللغرب عامة لتدخل في الشأن العربي ـ كان الأردن من الدول التي عارضت التدويل ـ، وكان احتلال الخليج علامة مميزة ومحطة يتندرج بين التاريخ خجلاً منها. وللإنصاف نقول وبغض النظر عن الفكر الذي أوجد الجامعة العربية أنه حينما ولدت عام 1945 برزت للوجود

وهي تحمل طابعاً وأمنية، إحداهما يناقض الأخر أراد لها مؤسسوها جهازاً يرسخ التجزئة، والسيادة القطرية ويمتص كل دعوات الوحدة، ويحولها إلى تعاون وتضامن ومشروعات عمل مشتركة، في حين تمناها القوميين الصادقون أن تكون تجسيد لإرادة الوحدة العربية ومدخلاً " إلى تحقيق المشروع القومي على إمداد الوطن العربي، ولأن ميثاق الجامعة العربي لم يأت على ذكر الوحدة لأهداف ولا أملاً ولا مطمعاً فلا يجوز تحميل الجامعة في معناها ومسيرتها ومبناها أكثر مما يحتمل نص الميثاق، ومسيرة التجزئة والممارسة،

وبذالك لايمكن اعتبار الجامعة مشروعاً وحدوياً، وأكثر ما يمكن تعليق عليها الأمال القصوى أن تكون وسيلة لنشر الوعي القومي وتجسيد اللقاء العربي الجماعي والمواقف القومية، وتنموية الشعور بوحدة الجماعة وتحقيق تكامل وظيفي بين دول الأعضاء فيها، إن التوظيف اللاأحسن للقومية العربية انتج مؤسسة لاحسنة في الميثاق والفكر، وهذا يتضح مما أفضت إليه الاجتماعات التي عقدت تلبية لندائها ولم تستطع حل قضايا العرب، بل تقابلت الجيوش العربية العريقة قومياً في صحراء العرب، ليس بالغريب في ظل التوظيف اللاأحسن لايديولوجية القومية يقتتل العرب فيما بينها لصالح الغرب المستعمر، وهذا ما كان، حيث رحلت الجيوش القومية بعد اتمام المهمة على خير وجه، وبقيت جيوش الاستعمار تجوب الخليج العربي وتضع يديها على وافر ثروته النفطية، نعم هذا مافعلته الجامعة العربية المضلة القومية المزعومة، إن التوظيف اللاأحسن لورقة القومية العربية انعكاس سلبياً على فئات أخرى قاسمت العرب منذ بواكير بزوغ فجرهم حلاوة الحياة ومرها وشقاوة العيش وحلاوته،لا بل إذا طرقت التاريخ كانت نسائم مجدهم تنبعث منه، كان منهم القادة حملوا لواء الإسلام جنباً إلى جنب مع العرب إلى الشعوب كافة كان منهم المحررون لديار العرب والمسلمين ذاك هو الكردي صلاح الدين، وكانت من جماجمهم أكواماً وتلالاً مع جماجم العرب المسلمين ذلك هم البربر أو الامازيغ في الجزائر والشمال العربي الإفريقي، فعندما وضفت القومية بصورة لاحسنة أقتتل أبناء الملة الواحدة اكراداً وعرباً في العراق وبربراوعربا في الجزائر، إن هذا الشرخ بين أبناء الملة الواحدة كانت له تاثيرات سلبية على الأمن القومي العربي وأهمها:

اتخذ الغرب الاستعماري من هذه القوميات الأمازيقية والكردية وغيرها أصدقاء، أخذوا بدعمهم حتى تبقى منطقتنا غير مستقرة، الأمر الذي يترتب عليه من الناحية التنموية صرف النظر عن هذه الخطط نتيجة تجبير أموال التنمية لحساب فاتورة السلاح وذلك لتأمين الاستقرار.

أصبحت أعداد غفيرة من هذة القوميات عيوناً للغرب وأعواناً له وأفشاء كل ما يمكن اعتباره سر من أسرار الدولة القطرية، وهذا بدوره يلقي اعباء على التنمية من خلال تسريب مايؤدي إلى إفشالها للخارج، والدول الغربية لا تتوانى عن ذلك لإبقاء المنطقة العربية تابعة لأسواقها.

اعطاء الغرب الاستعماري الحجة في التدخل لصالح هذة الاقليات وذلك، بحجة الحفاظ والدفاع على حقوق الانسان، وهذا ينعكس على الخطط التنموية فمتى شاع ان حق مجموعة من البشر قد هظم ووجد من يردد ذلك في الخارج ، وتدعي تلك الجهة الخارجية انها راعية لحقوق الانسان، تريد اعادة حقة المسلوب الية ،يؤدي الى ولاء تلك المجموعة للمدعي ويعد هذا ضربة للامن القومي العربي ،ولايكون عندها عاملا فاعلا في انجاح الخطط التنموية على اعتبار انجاحها لصالح الجهة الهاضمة للحقوق زيادة في هضم الحقوق، ولا ادل على هذا التوظيف اللاحسن للقومية العربية انه لم يجمع العرب على أمر واحد للخروج من أي مأزق يلاقونه بل زادهم الطين بلة والامثلة كثيرة في هذا التوجه ولنشير الى الصراع العربي الصهيوني كأحد هذة الامثلة ، وهذا ما عبر عن هذا رجل سياسة ورجل قومي ورجل من صناع القرار في الدولة القطرية وهو نائب الرئيس السوري " عبد الحليم خدام" نقتبس من أحد أقواله القول: (الاسلام ضرورة في المعركة مع الصهاينة، لإن الكيان الغاصب عقائدي يحتاج إلى عقيدة تقابله، إن القوميين قد اخطاوا حين لم يستثمروا الإسلام والمسيحية في معركة المواجهة. إذ بدون الإسلام لا نستطيع فهم العقلية الصهيونية وكيفية التعامل معها.. ولهذا أوكد على ضرورة مشاركة التيار الاسلامي في المعركة العقائدية، وهذا يعني أن نوجد التيار أن لم يكن موجوداً، وعلى أقل تقدير لحفظ أخلاق المجتمع مما يتهدده من الخرافات)، وهذا يعني أن الطرح القومي القائم على القومية الحالية لا يعطي نتائجه وثمراته.

الوطنية المهلكة:

دعني أصف الوطنية بالمهلكة لأنه لا قوة إلا بالوحدة، والوطنية تجزئة وانفراد، عندما فشلت القومية في تحقيق أهدافها العريضة والتي في مقدمتها الوحدة العربية ارتد الايديولوجيون إلى المنادة بالوطنية كبديل للطرح القومي الذي أعلنوا عن إفلاسه، ترى ما هي الوطنية هذه؟

الوطنية معناها أن يشعر جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن والتعصب له، أيا كانت أصولهم التي ينتمون إليها، وأجناسهم التي انحدروا منها، أي أن الولاء فيها للأرض بصرف النظر عن القوم أو اللغة أو الجنس، أن الوطنية صدرتها اوربا الى العالم العربي بعد ان وجدت اوربا المر من وحدة

العرب المسلمين وبعد ان قرأ المستعمر التاريخ وخاصة ما ذاقة الفرنسيون في الشمال الافريقي وذاق الانجليزي في الهند وغيرها من اقطار افريقيا واسيا، هذا ما يزال عالقاً بنفوسهم برغم الضعف والتخلف الذي كان عليه العرب المسلمين فبذرت أوربا بذور الوطنية وتلقفتها الأقلام الوطنية فكان الانفصام، وأصبح التمجيد لبقعة موصوفة وهي حدود الدولة القطرية عن غيرها، وهكذا فعل كل الوطنيين في كل اجزاء الوطن العربي بعد ان مزقة الاستعمار الى قطع فمجدوا رقعة دولتهم القطرية ، وبهذا نجح الاستعمار في تصدير الوطنية ، وهذا النجاح يعني تحويل حركات التحرير الجماعية للامة العربية الى حركات فردية ممايسهل القضاء عليها ، وهذا هو هدفة النهائي استعمار المنطقة العربية منطقة تتلوها اخرى ،ان الوطنية مبدءا ايديولوجيا هداما لكونه فسح المجال للمستعمرفي تحقيق أهدافه من جهة، ويهدف الى إعلاء كل سكان بقعة من بقاع الوطن العربي المتعددة على غيرها، وهذا يؤدي إلى نتيجتين:

الأولى: ينظر كل سكان بقعة من بقاع الوطن العربي الى بقعتهم بنظرة القدسية وهذا محط الشاعر الوطني القروي شاعر لبنان عندما قال:

بلادك قدمها على كل ملة		ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم

والثانية: يصبح التشاحن فيما بين سكان البقاع وهذا مايرنوا إليه المستعمر ويسعى إليه من جهة ثانية، صحيح أن بعض البلاد تحب لما فيها من طاعة كمكة فيها بيت الله، وفيها زمزم، وفيها الطواف والمسعى، وفيها المشاعر المقدسة، لذلك نحبها ليس لسبب أخر وليس لوطنية، يقول الرسول ع وقد اخرجه أهل مكة من مكة: "والذي نفسي بيده، إنك من أحب بلاد الله إلي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"، ونظراً إلى أحد وهو جبل في المدينة عظيم فرأه جميلاً مشرقاً، فقال: (أحد جبل يحبنا ونحبه) لماذا؟ لإن أحد دفن حولة حمزة سيد الشهداء عم الرسول ع، ومصعب بن عمير وشهداء الإسلام، ودماء التوحيد وراية لا اله إلا الله رفعت هناك، فأحبه ع من أجل هذا، لا من أجل الوطنية.

إن بعض وسائل الإعلام تغرس في الإفهام عقيدة الوطنية وتقول: نحن نقاتل من أجل الوطن، لانحن نقاتل من أجل لااله الا الله محمدرسول الله، نقاتل من أجل أن تبقى مقدساتنا، والقتال من أجل الوطن جاهلية حديثة، صنعها معظمو التراب، لذا وبعد هذا كله فإن الوطنية مرفوضة فيها التجزئة والفرقة والتشاحن والتباغض وتقديس التراب والتخلي عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، وبهذا غاب الأمن القومي العربي نتيجة تفرد الدول الاستعمارية بكل قطر عربي على حدى وبعد فصلة عن بقية الأقطار، إن البديل عن الوطنية المهكله تعدي الحدود القطرية الى حدود أوسع، وتعدي حب رقعه قطرية وبنفس الدرجة حب كل رقاع الوطن العربي الإسلامي، وهذا ما ذهب اليه الشاعر العربي المسلم:

ولست أدري سوى الاسلام لي وطناِ		الشام فيه ووادي النيل سيان
واين ما ذكر اسم الله في بلد		عددت آرجاءه من لب أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى		وأنا بالرقميتن وبالفسطاط جيراني

ثالثاً: الأسباب اللاعقلانية:

ضبابية الفكر العربي:

لا زال الفكر السياسي العربي بعمومة، وبحدود واسعة، يتعامل مع السياسات الدولية في إطار العفوية، والعفوية هذه تشمل التعامل مع الأصدقاء والأعداء على حد سواء في السياسات الدولية وتنضوي تحت لوائها ممارسات الأنظمة والمنظمات العربية بحدود كبيرة. مما يدل على هناك قصوراً كامنا في الفكر السياسي العربي الراهن برمته، ويدل على هذا التوجه العربي أثناء فترة ثنائية القطبية للمعسكر الشرقي فاستوردت منه التوجهات الفكرية الاشتراكية أو الشيوعية، ومن المعسكر الغربي استوردت الفكر الراسمالي أو الليبرالي الحر، وكان الفكر العربي القائم على الاسلام لايشبع الطموحات العربية، وعلى الرغم من هذا فقد اعتاد الفكر السياسي العربي خلال العقود تلك على تحميل الاستعمار والامبريالية والصهيونية كل بلايا التاخر والتجزئة، وكان العداء للثلاثي السابق هو عداء مبرر تاريخياً وواقعياً، لأن ذلك يعد من أهم وسائل التنفيس عن الغضب لإعفاء القيادات من النقد والمسألة نفسها، تتكرر تقريباً مع الأصدقاء فقد درج الفكر العربي على تحميل الأهداف والطموحات العربية على كاهل الأصدقاء والحلفاء، دونما اعتراف بمصالح هؤلاء، ومدى تقاطعها أو تفارقها مع مصالحنا وأهدافنا، فالعداوة والصداقة في هذا المنظور منطق لا عقلاني لأن المفردات الشائعة في الخطاب السياسي العربي الراهن على سبيل المثل "غدر الاستعمار الصهيوني" فكيف نلوم العدو بوصفه عدواً على الغدر؟

وهل نتوقع من الصديق أن يحقق كل أهدافنا ويوصلنا إلى كل طموحاتنا ونحن ننظر إليه، هذا ضرب من جنون اللاعقلانية، وخاصة إذا توقعنا قيام الصديق بكل ذلك دون دفع الثمن لذلك الصديق؟

إن تفاعل الفكر العربي مع الصديق لم تقف عند معاملة المثل بالمثل بل كانت الزج في أحضان الصديق وتمليكه كل أسباب ومقومات الأمة، وبالمثل كان تعامل الفكر العربي مع العدو الإعداد له بالقول بعيداً عن الإعداد له بالفعل. وبالتالي وإذ بالعدو أصبح يمتلك كل مقومات القوة وهذا حال اسرائيل وبقي الحال العربي ضعيفاً لا يمتلك أدناها، وإذ بالصديق الغربي ينقلب على صديقة العربي ويكشر عن أنيابه يريد امتلاك ما للعرب من ثروة ضمن مخططات بينها منذ أيام صداقته وهذة حال الصديق الأكبر الولايات المتحدة. وهذا ما يجري على أرض الواقع ليقف العرب مكتوفي الأيدي لاحول لهم ولا طول في درء المخاطر عن أي اقليم من أقطار الوطن العربي، وحالة العراق اليوم ماثلة أمام الأعين كشاهد ودليل. وليقف رئيس أكبر دولة عربية وهي مصر ليقول أمام الصحفيين رداً على سؤال وجه له حول الحرب التي تعدها الولايات المتحدة للعراق بالقول: (إذا كنا نقول أننا نقدر أن نرد الهجوم على العراق أو نؤجلة نبقى نضحك على أنفسنا، من الذي يستطيع هو الكونجرس الامريكي والبرلمان البريطاني)، وبهذا القت أكبر دولة عربية المرساة وهذا يعني أمناً قومياً للعرب لكون الولايات المتحدة والدول الغربية المتنفذة تستطيع التدخل في أي بقعة عربية دون رادع عربي أو دولي، لنفضي الى سؤال مهم: من الذين مكنوا الولايات المتحدة من الأخذ بتلابيب الوطن العربي؟. وفي هذا علينا أن نبحث عن العقلانية في ما كان من الأمة العربية في القضايا التالية:

إن تكاليف حرب الخليج الأولى بلغت (704) مليار دولار كانت نصيب دول الخليج (54%) أي(380,6) مليار دولار، هذا خلاف استخدام الأرض العربية المجاني.

ان تكاليف التواجد العسكري في الخليج العربي من عام (1991- 1998)م حوالي (309) مليار دولار، وبتكاليف يومية (300) مليون دولار من يدفع.

هجرة العقول العربية:

وهذا نتيجة سياسة التطفيش التي تتبعها السياسات العربية والتي نجم عنها سياسة غربية يمكننا أن نسميها سياسة التحويش للعقول العربية، فأصبحت هجرة العقول العربية عاملا من اهم عوامل بناء الأمن القومي الغربي وذلك نتيجة الاكتشافات المختلفة التي تصب في بناء الأمن القومي الغربي هذا من جهه ،في حين كانت الأسرارالتي أفشتها هذه العقول المهاجرة للغرب المشرئب لها ،من اهم القواعد التي بنى عليها الغرب استراتيجية الانقضاض على الشرق الغربي ،كما ان هذة العقول حرمت الامة العربية من خبراتها وكفاءتها وتجاربها التي تم اكتسبهاخلال مشوارها العلمي الطويل .ان هنالك العديد من الحقائق تدلك على خسارة الدول العربية لهذه العقول ،وربح الدول الغربية لها وأهمها:

إن ما يقارب المليون من الكفاءات العالية المؤهلة علمياً هاجروا من دول العالم النامي إلى أمريكا وأروبا خلال الفترة (1972-1990) ومعضمهم من العالم العربي.

إن ما يقارب (70)%؟ من الاطباء و(65)% من المهندسين من البلاد الإسلامية هاجروا إلى الخارج، وإن من بين كل مائه يبعثون للخارج على نفقة الدول العربية لنيل الدراجات الماجستير والدكتوراه يبقى منهم (40)%من الخارج ويهاجرون كهجرة نهائية.

بلغت هجرة الأطباء والمهندسين والعلماء العرب إلى الغرب حتى سنة 1976 ما نسبة (50)% من الأطباء و(23)% من المهندسيين و(15)% .

إن خسارة الكفاءات اكثر مأساوية بالنسبة للدول العربية وذلك لعدة أسباب وأهمها:

إن العقول العربية القادرة على بناء الأمن القومي رحلت، بل وأصبحت عيونا للجهات التي حطت رحالها في أرضها وهي غالباً ماتكون الدول الغربية وفي مقدمتها أمريكا، وذلك تحت اسم "اللجوء السياسي" وهذا اللجوء يعد مصيدة للتجسس المجاني على العالم الاسلامي عامة والعربي خاصة، وحتى يحضى طالب اللجوء بالقبول، وبالتالي حق الإقامة والعمل والمساعدة الاجتماعي (راتب يقدم للاجئ لتغطية تكاليف المأكل والملبس)

يجب علية تعرية وطنه والموسسات الحاكمة فية تعرية كاملة، وتكون كثيرة بذكر مئات المعلومات عن تركيبة نظام الحكم والعوائل أو جماعات النفوذ الصانعة للقرار السياسي وخريطة التيارات السياسية ومفردات هذا المذهب أوذاك ، وتعامل الأجهزة الأمنية الغربية مع المعلومات القادمة بشكل علمي دقيق وتقوم بأرشفتها جميعاً، حيث تعتبر وفرة المعلومات عامل قوة للدولة المانحة التي باتت تحسن استخدام جميع المعلومات في فرض سياسات معينة، وهناك معلومات تحتفظ بها الدولة لنفسها، وأخرى تسوقها ضمن مجموعات دول الاتحاد الأوروبي وأخرى تذهب إلى أمريكا وأخرى تذهب إلى الموساد وتحديد تلك المستقاة من الفلسطينيين طالبي اللجوء وما أكثرهم، ومعلومات أخرى تستخدم لابتزاز دول عربية واسلامية.

واذا علمنا أن طالبي اللجوء ينتمون إلى معظم الدول العربية والإسلامية فمعنى ذلك ان العالم العربي والاسلامي بات مكشوفاً، ليس عند هذا الحد فحسب فإن طالبي اللجوء من العالم العربي والاسلامي يبادرون إلى إعطاء أكبر قدر ممكن من المعلومات عن بلادهم اعتقاداً منهم أن ذلك سيساهم في حصولهم على حق اللجوء سريعاً، وعندما ترى الأجهزة المحققة مع طالب اللجوء ان من المصلحة إبقاء هذا الشخص مربوطاً بها، فإنها تهدده بعدم قبول طلبة اللهم إلا إذا تعاون معها وأصبح عيناً على بني جلدته وبالمجان في أحيان كثيرة، وبهذه الطريقة تمكنت أجهزة استخبارات غربية من غرس عشرات بل مئات العيون في المساجد ووسط التجمعات الإسلامية والجاليات العربية. ومما يلفت النظر من خلال ظاهرة اللجوء السياسي مايلي :

إن أكثر من مائة ألف طالب لجوء في أوروبا في أقل من ثلاثة أشهر في النصف الأول لــ عام 2001 ومعظمهم موزعون على النحو التالي: سلوفينيا 422، بلجيكا 6761، بولندا 675 ، السويد 4347، فلندا 288، النرويج 1456، ايرلندا2309، هولندا 9588، بريطانيا17705، سويسرا 44971، المجر 1855، المانيا 21045 ، وفرنسا 11108، لكسمبورج 165، البرتغال 49 ، الدنمارك 2815، النمسا 7489، رومانيا 690 ، اسبانيا 2388.

إن دوائر الهجرة في بعض الأقطار الأوروبية تعمل على أن يقوم اللاجئ بتمزيق جواز سفرة الأصلي الذي يصل به، باعتبار أن هذا أنسب طريقة لعدم إعادتهم الى بلادهم.

إن أجهزة الأمن الغربية لو انفقت مئات الملايين من الدولارات وغرست ألاف العيون على امتداد العالم العربي والاسلامي، ما حصلت على عشر ما نجمعه من معلومات عن طريق اللاجئين.

إن الفراغ الناجم عن رحيل هذه العقول تم املاءه من قبل مؤسسات غربية تهدف الى ما يلي:

الاختراق الثقافي المنظم ومحاولة فهم المجتمع العربي وتفاصيل عملياتة السياسية والاجتماعية وتصديرها إلى واشنطن حيث وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (C.I.A)، بهدف إعادة برمجتها في أساليب ونظم عملية متطورة تمهيد للتحكم في العقل العربي خاصة والمجتمع العربي عامة.

لخدمة الاستراتيجية الغربية وقاعدتها المتقدمة في الشرق العربي ـ دولة الكيان الصهيوني ـ وذلك لتجنيد جيش من العملاء ليكونوا عملاء للغرب الطامع ولدولة الكيان الصهيوني التي لم تحقق كامل أهدافها في المنطقة العربية بعد،

ويمكننا الإشارة إلى نموذج من هذة المؤسسات التي تعمل لصالح الغرب وهي كائنة في أحشاء الوطن العربي، ولتكن مصر الدولة القائد للنظام الإقليمي العربي هي نموذجاً ومثال، ونشير للمؤسسات الأكثر شهرة وأكثر خطورة: الجامعة الأمريكية بالقاهرة وبيروت، مؤسسة راند الأمريكية، المركز الثقافي الأمريكي، مركز البحوث الأمريكي بشارع قصر الدبوبارة ـ القاهرة، مؤسسة فورد فونديشن، هيئة المعونة الأمريكية. معهد ماساشوستش وفرعه بالقاهرة ـ معهد ال(ام ـ اي ـ ت) (بمبنى جامعة القاهرة). مؤسسة روكفلر للابحاث، مؤسسة كارينجي، معهد درسات الشرق الاوسط الأمريكي، عهد التربية الدولية والمتخصص في منهج السلام، عهد بروكنجز، معهد المشروع الأمريكي، الأكاديمية الدولية لبحوث السلام، مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة (جورج تاون)، مشروع ترابط الجامعات المصرية الأمريكية ومقر المجلس الأعلى للجامعات بالقاهرة وميزانيتة السنوي مليون دولار تقدمها المخابرات الأمريكية وأجهزتها المعروفة.

وهذا انعكس على الأمن القومي العربي وأصبح في مهب الريح وهذا بدورة انعكس على التنمية من خلال ما يلي:

أصبحت السياسات التنموية العربية سياسات محبطة.

انتشار مرض الواسطة والمحسوبين في الدول العربية نتيجة احلال غير الاكفاء، محل الأكفاء وهذا أدى إلى إخفاق السياسات التنموية في البلاد العربية لكون العقول التنموية هجرت العش وغردت خارج السرب.

تفضيل الكثير من أصحاب القرارات في العالم العربي إنصاف المثقفين من الغرب والشرق على حد سواء من غير المسلمين، على الكفاءات العربية المتميزة انطلاقاً من مركبات النقص العديدة تجاة أصحاب العيون الزرق بصفة عامة على الرغم ان الممارسات قد أثبتت أن هؤلاء لا يخرج كثير منهم عن كونهم عملاء للاستخبارات الاجنبية او الحملات التنصرية، كما اثبتت الايام أن أي مشروع نفذ بأيدي غيرعربية أو إسلامية هي فرصة ضاعت على أبناء الاسلام وإلى الأبد.

رابعاً: الأسباب الاقتصادية:

المد يونية:

انعكست سلبياً على الامن القومي من ناحية تقديم المساعدات الغربية بشروط غربية، وهذه الشروط لا تتماشى ايجابياً والأمن القومي العربي، وكذلك تنعكس سلبياً على التنمية لكون التنمية تتطلب إلى المال الوافر، فكيف تصنع التنمية في ظل المديونية؟

تعتبر أزمة المديونية التي تعاني منها الدول النامية والدول العربية من فصيلتها، أحد إفرازات سياسات صندوق النقد والبنك الدوليين، التي نفذت منذ اوائل السبعينات وحتى الآن، تحت غطاء تنمية هذه الدول من خلال القروض المشروطة التي يقدمانها، ومع مرور الوقت تضخمت هذه الأرقام وبرزت كأزمة، لعجز الدول التي وقعت في حبائل الدين من الوفاء بالتزامها المالية، وما يهمنا في هذا المقام الوقوف على حقيقة المديونية التي ترزح تحت نيرها الدول الاسلامية، فإننا والحالة هذه سنخص الدول العربية بشئ من التفاصيل، وما يتعلق بدين الدول الإسلامية من غير العربية سنشير اليه بالإجمال.

وعند الحديث عن الفقر والمديونية في عالمنا العربي الذي نعيش فيه، تتفتح اعيننا على أرقام ديون مذهلة، فقد جاء في تقرير البنك الدولي "ديون العالم "1992 ـ 1993 " أن مجموع ديون الدول العربية في عام 1991 زاد على (140) بليون دولار بالمقارنة مع" 138.8" بليون دولار في عام 1990،و(63.26) بليون دولار ،في عام 1980، أي بنسبة زيادة قدرها (222) في المئة مع الاولى، وفد بلغت قيمة الفوائد المترتبة على دول العالم العربية في عام 1991 حوالي (4.7) بليون دولار، بالمقارنة مع حوالي خمسة بلايين دولار في عام 1990، علماً أن هناك دول أعفيت من جزء من الديون منذ ذلك الوقت، وتوقف البعض عن خدمة الديون بسبب مشاكل مالية.

وشكلت مصر الدولة العربية الأكثر مديونية إذ بلغ حجم ديونها في عام 1990 نحو (40.57) بليون دولار، بالمقارنة مع 32 بليون دولار في عام 1987، وحوالي 21 مليار عام 1980 ، علماً أن الإعفاءات التي قدمتها الدول العربية والأوروبية وأمريكا ساهمت في خفض حجم هذه القروض خصوصا في العامين 1989 و 1990 بعد الموقف الذي اتخذته مصر من حرب الخليج بتأيد دول التحالف ضد العراق، واحتلت الجزائر المرتبة الثانية بعد مصر من جهة حجم الديون المرتبة عليها، إذا بلغت قيمتها 28.6 بليون دولار عام 1991 بالمقارنة مع 29.7 بليون دولار في عام 1990، و19.3 بليون دولار في عام 1980،

وبلغت قيمة الفوائد المستحقة على قروض عام 1991 مبلغ 1.952 بليون دولار في مقابل 1.9 بليون دولار عام 1990 و 1.4 بليون دولار عام 1980، علماً بأن الجزائر تعد من أكبر الدول العربية في حجم مبالغ خدمة الديون، وبلغت ديون تونس 8.29 بليون دولار في عام 1991، بالمقارنة بـ 7.71 بليون دولار في عام 1990، و3.52 بليون دولار عام 1980 وبلغت قيمة الفوائد المستحقة على قروض عام 1991، 384 مليون دولار، كما بلغت ديون سوريا 16.815 بليون دولار، في العام 1991 ، بالمقارنة مع 16.4 بليون دولار في عام 1990، و 3،54 بليون دولار وعام 1980، بلغت قيمة الفوائد المستحقة على القروض عام 1991 ما قيمته 131 مليون دولار. ووصلت ديون السودان إلى 15.9 بليون دولار في عام 1991 بالمقارنة مع 13،84 بليون دولار في عام 1989 و5.16 بليون دولار في عام 1980،

وبلغت قيمة الفوائد المستحقة على القروض عام 1991 حوالي 10 مليون دولار .وأضاف تقرير الصندوق الدولي إلى أن ديون لبنان تراجعت من 1،965 بليون دولار في عام 1990 إلى 1.858 بليون دولار في عام 1991 فيما ارتفعت ديون الأردن من 8،32 بليون في عام 1990 إلى 8،64 بليون دولار في عام 1991 ، على الرغم من الحملة الدولية التي نظمها في عام 1991 بالاشتراك مع البنك الدولي ونادي باريس لخفض قيمة هذه الديون ،وبلغت ديون اليمن 6،435 بليون دولار وعمان 2،69 بليون دولار وموريتانيا 2،298 بليون دولار في خلال عام 1991.

إن هذا نصيب الدول العربية من الديون وفوائدها، وعند الحديث عن الديون الخاصة بالدول الاسلامية عموماً فإنها تساوي (500) مليار دولار عام 1993، وعلى العموم فإن مارد الربا يحصد ما تزرعة الدول الإسلامية في صورة الديون وفوائد مترتبة عليها، فإذا ما ذهب (45%) من الناتج القومي للمسلمين الى الديون فوائدها، وذهب مثله تقريباً على السلاح والدفاع ،فماذا بقي للتعليم والبحث العلمي والصحة والتنمية الاجتماعية ؟

تكريس التبعية "أزمة الخليج نموذجاً":

إن للخليج العربي أزمات، ولا ينحصر نطاقها بأزمة واحدة، فهنالك أزمة للخليج قومية المضمون، تتنازع عليها قوميتان عربية يقابلها فارسية، فإذا ما أطلق علية العرب اسم الخليج العربي، أطلقت عليه الإيرانيون اسم الخليج الفارسي، وتعددت حالات التوتر بين الطرفين حول التسمية، وهناك أزمة احتلال بين إيران ودولة الإمارات للجزر الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى ، وهناك أزمة اقتتال بين العراق وإيران دامت ثمان سنوات أكلت الأخضر واليابس من أبناء واقتصاد الدولتين، والطريف في هذا الاقتتال كانت أطرافه دول إسلامية، والغريب فيها أن ما قام به الطرفان كان لحساب الغرب، فهذا هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة زمن الاقتتال الإيراني العراقي، يجيب بصراحة وعلى ملئ الأشهاد وأسماع الدنيا، عندما سئل مرة في واحد من مؤتمراته الصحفية عن مصلحة الولايات المتحدة من الاقتتال الدائر بين العراق وإيران قال: (إن الربح الذي تجنيه الولايات المتحدة يقدر بمجموع الخسائر التي يخسرها الطرفان).

وأما أزمة الخليج الأخيرة والتي بدأت فصولها في 2.آب 1990 ، فحدث عنها ولا حرج، في ظاهرها دخول العراق الكويت، وهذا هو القناعة التامة لدى الغالبية العظمى من أبناء الشعوب العربية والاسلامية، وفي واقع الأمر وهو الخفي على هذه الأغلبية ان ازمة الخليج الثانية وحربها، كانت من اجل أمركة الخليج العربي، فكان الاقتتال كالعادة عرباً مسلمين يقابلهم عرباً مسلمين، واشتراك القوات الأجنبية في الإقتتال كان ثمنه مدفوعاً من قبل العرب أنفسهم.
والمؤسف حقاً أن كل طرف عربي استجار بالإسلام ليثبت شرعية موقفة، فعقد كل طرف في عاصمته مؤتمراً إسلامياً، وياللأسف أن كل مؤتمر أصدر بيانه الخاتمي بصورة لا يداينها شك بتأييد الدول التي نادت إلى انعقاده، وأصبح الاسلام سياسة ميكافلية الوسيلة تبرر الغاية، فأخذت النصوص على خلاف فهمها، فأصبحت عاصفة الصحراء التي صنعتها أمريكا ونفذها العرب تحضى بغطاء شرعي، يستمد هذا الغطاء شرعيتة من الإسلام، ومن وقع من المسلمين مضرجاً بدمه عد في قائمة الشهداء كمن وقع في معركة القادسية أو اليرموك، وفي النهاية الأخيرة للحرب العربية العربية في صحراء العرب تحققت النتائج التالية:

نقلت القوات الأمريكية إلى الخليج العربي بطلب عربي، غلف بقرارات الهيئة الدولية، وبهذا تحقيق مبدأ كارتر الذي نادى بوجوب نقل قوات التدخل السريع الأمريكية إلى الخليج العربي، لحماية أبار النفط هنالك على اعتبار منطقة الخليج منطقة مصالح أمريكية من الواجب حمايتها من أي اعتداء، وفي الواقع أن وجود هذه القوات هنالك ما هي إلا بمثابة تهديداً للأنظمة السياسية المحلية في تلك المنطقة، حتى لا تتدخل في سياسة استخراج النفط وتصديره، ومحاولة تعكير صفو هذه السياسة كما فعل الملك فيصل عام 1973 على اثر حرب رمضان، عندما استخدم سلاح النفط العربي في المعركة، وأصدر أوامره بحرمان الدول التي تقف في صف الكيان الصهيوني وتدعمه من سيل النفط العربي لتغذية آلته العسكرية والإنتاجية على اختلاف أنواعها.

فرض سياسة استعمارية تحت ظل الصداقة والعلاقات الحميمة بين الولايات المتحدة ودول المنطقة، حتى بات الجندي الأمريكي ومن يحمل جنسية أمريكياً يتنقل هنا وهناك بهويته الشخصية في حين يحرم ذلك على العربي.

أمركة الخليج العربي وفي هذا لا أزيد عن القول الذي قاله د.محمد صالح المسفر حيث قال: (ألف القوم على تسمية الخليج أحياناً بالخليج الفارسي وأحياناً بالخليج العربي وتواتر استخدام الخليج أخيراً دون صفته العربية أو الفارسية

عند العرب الخليج فقط، والحق فان الخليج لم يعد عربياً ولا فارسياً ولا إسلامياً، كما يتمنى البعض تسميته، ولا يمكن استلطاف مصطلح (خليج الغاز والبترول)، إنما الأدق والأكثر واقعية كما يحلو لأصحاب نظرية الواقعية أقول: أن الخليج يمكن تسميته باسم الخليج الأمريكي مؤقتاً، لان الواقع يقول أن أمريكا تملك في موانئ الدول المطلة على الخليج عدا الموانئ الإيرانية، عدداً من البواخر التجارية والعسكرية أكثر مما تملكه الدول المطلقة عليه، وان هذه البواخر الحربية الأمريكية لها الحق في اعتراض أي باخرة أو قارب صيد أو ناقلة تجارية، وتجيز لنفسها مصادرة ما عليها، واعتقال ملاحيها واستجوابهم، وقد تأمر بإرسالهم إلى الوطن الأم ـ الولايات المتحدة ـ لمحاسبتهم وإنزال أشد العقاب بهم دون احتجاج أو رفض لهذا السلوك (هامش، 6)، أليس ذلك عملاً من أعمال القرصنة البحرية؟ كما أن للولايات المتحدة الأمريكية غواصات وطائرات حربية تجوب سماء الخليج وتلقي بحممها على أرض العراق العربي المسلم الشقيق دون احتجاج من أحد أو اعتراض، وقد تعبر المجال الجوي لبعض دول مجلس التعاون بقصد المناورة لضرب بلاد الرافدين بلا تمييز، هذا واقع الحال وعلى ذلك يكون اسم الخليج طبقاً لهذا الواقع الخليج الأمريكي النفطي

رغم هذا كله لم نسمع ما يقال في منطقة الخليج الى ما يندد بالأعمال الأمريكية، أوما يشير إلى اختراق أمريكي للسيادة العربية هناك، إلا اننا نلمح نبرة خليجية نفهم منها العمل على استبعاد العنصر العربي والاستعاظة عنه بعناصر أخرى، ناهيك على الإقبال على العمالة غير العربية هذه المرة، وهذا يدور حول أمر له علاقة بالفكر وتحديداً في مجال الصحافة، ففي الاجتماع الرابع (لرؤساء تحرير صحف دول مجلس التعاون الخليجي في الدوحة، أثيرت قضية على قدر كبير من الاهمية، ألا وهي (خلجنة الصحافة ومنع الاختراق)، وتعني استبعاد العنصر العربي في الصحف الخليجية، وكانت الذريعة لهذا الاستبعاد لأن الاقلام العربية تتهجم أو تتهكم وتشتم الإنسان الخليجي وتصفة بالانسان النفطي، إن الاختراق الممنوع والمطلوب التصدي له الاختراق الصهيوني الذي بدأت ملامحة تظهر في كل الصحف الإسلامية، وأما الاختراق الإسلامي الإسلامي فهذا ليس باختراق بل هو من مظاهر العافية الاسلامية. فلا بد من تبني منهجاً عقلانياً قائم على الاستنتاجات التالية:

أولاً: الأمن القومي العربي:

لبناء الامن القومي العربي يجب القيام بما يلي:

إقرار السلم العربي الداخلي والذي تتمثل عناصر بسلطة شرعية تمثل الغالبية من الجماهير العربية.

تذويب الامتيازات التي حققتها القطرية للفئات المتنفذة داخل الأقطار العربية في التنظيم الاقتصادي الاجتماعي للأمة العربية وذلك لتحقيق العدالة الاجتماعية بداية، وتوفير المقومات المالية من أجل بناء وتنفيذ الخطط التنموية.

العمل على تشجيع الظروف التي تسهم في وجود ثنائية قطبية في العالم، ومن ثم الوقوف بينها في وسط الطريق نعمل على دعم هذا الطريف وذلك في آن واحد واستغلال ذلك في بناء القوة القومية العربية مستعينين بالطرف الذي لا يعارض ذلك بدعمه بالإمكانيات العربية الوافرة على الطرف المعارض وحتى بناء القوة التي بها نستطيع تحقيق أمننا القومي الذي رحل وأصبحنا في ظل الأحادية وقد أصبحت أرضنا العربية الطرف منطقة مصالح له، وشعبنا العربي جيش معد لتحقيق أهدافه وغاياته.

عدم توقيع أي اتفاقيات أمنية أو اقتصادية بين أي طرف عربي وأخر غير عربي تتعارض أي من بنود هذه الاتفاقيات مع المصالح أي دولة قطرية عربية.

العمل على إيجاد مرجعية عربية تكون بمثابة نواة اتحاد عربي على غرار الجماعة الأوروبية تسعى جاهدة إلى تحقيق الوحدة القومية الكاملة ومن كل الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ...الخ.

العمل على إيجاد مناهج تربوية مدروسة وموحدة ومبنية على عناصر أخلاقية في كل بقاع الوطن العربي، وذلك لتنمية الروح الوحدوية في نفوس النشء العربي منذ صغره، حتى إذا أصبح في موضع صنع القرار يجد التقارب الوحدوي فريضة تلح عليه لا تنفك حتى ينفذها.

توحيد الإعلام العربي بصورة توحي أن هذه الإذاعة أو تلك أو هذه المحطة الفضائية أو تلك تتحدث باسم أي عربي في أي مكان كان، وتوخي المصداقية في كل ما يصدر عن هذه الوسائل، الأمر الذي يولد الثقة تلك الضائعة على مدار القرن الماضي.

مد اليد العربية وبالأسلوب التي ترتأية المرجعية العربية التي اشرنا إليها سابقاً إلى العالم الإسلامي خارج الإطار العربي، وإعطاء هذا العالم الأولوية والأفضلية في كل تعامل لأن هذا العالم يعتبر العمق الجغرافي والديموغرافي للعالم العربي.

ثانياً: الخطط التنموية:

يجب أن تقوم الخطط التنموية العربية على الأسس التالية:

إيجاد فريق عربي مختص للخطط التنموية بتصميم وإعداد الخطط، وفريق عربي أخر إشرافي، وفريق أخر تنفيذي لكل الخطط التنموية العربية.

عدم القيام بإعداد الخطط التنموية الأبعد دراسة وافية للجدوى الاقتصادية.

بناء خطط تنموية عربية متكاملة صناعية وزراعية وإنتاجية، وذلك من أجل زيادة الصادرات والحد من الواردات العربية أياً كان نوعها.

الالتزام بأولويات الخطط التنموية الإنتاجية، والتي تقوم على توفير الاحتياجات الضرورية لجميع أفراد المجتمع دون إسراف أو تقتير قبل توجيه الموارد لإنتاج غيرها من السلع.

العمل على استثمار الأموال العربية داخل الوطن العربي لخطط تنموية مدروسة من خلال مشاريع استثمارية ذات جدوى اقتصادية تعود على عموم الشأن العربي وبصورة شمولية .

إعطاء المرجعية العربية في كل ما سبق أولوية المسؤولية عن كل ذلك، مع إيجاد رقابة صارمة لرصد كل المخالفات، والإشراف عليها أولا بأول لضمان إنجاح الخطط التنموية.

التدرج في بناء مقومات الأمن القومي العربي، ومقومات التنمية العربية الشاملة ضمن خطة واقعية معلومة الإبعاد تنقل هذه الدول من وضعها الحالي إلى الوضع المستهدف بكافة جوانبه، ومواجهة كافة العقبات والمشاكل، والإفادة من الترابط العضوي للجوانب الاقتصادية للإسلام.

إن ما سبق على ما نعتقد هو الصورة المناسبة لبناء الأمن القومي العربي والتنمية العربية، لكون الدول العربية باستثناء لبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية تنص دساتيرها على الإسلام، من هنا فإن التعاليم الإسلامية تسهم إسهاماً كاملاً في قيام الأمة الإسلامية، وأن الأصل في العقيدة الإسلامية هو وحدة الأمة الإسلامية واتحاد كافة أفرادها وقيامهم بكافة متطلبات هذه الأمة مهما اختلفت المواطن والأزمنة .

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية 92]

وقال أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ﴾ [سورة الحُجُرات: الآية 10]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته."

وقال أيضاً: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً."

وقال ع: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر."

وقد سبق التعرض أيضاً لوجوب اتحاد الكافة وتكاتفهم من أجل كسر قيود التخلف.
فالإسلام يفرض على إتباعه التناصح والتعاون والاتحاد في كافة أمور المسلمين من اقتصاد واجتماع وسياسة وغيرها، لإن بلاد الإسلام وطن لكل مسلم أيا كانت جنسيتها ومحل ميلاده أو هويته.
فالأصل إذا هو حرية التنقل لعناصر الإنتاج من عمل ورأس مال وللسلع المختلفة بين مختلف البلاد العربية دون قيود أو رسوم. كذلك فحرية التملك والإرث والعمل والتعاقد مكفولة لكل مسلم في كافة البلاد العربية .
والاستثناءات من ذلك إن اقتضتها اعتبارات مرعية إسلامياً يجب أن تكون موقوتة ومحدودة ومبررة بوضوح من جهة شرعية.
ويعد هذا التكامل بين مختلف البلاد العربية والتي تعد من أرقى سبل التكامل الاقتصادي المعروفة وتتوافر له كافة الأسس اللازمة لإقامة صرح اقتصادي متين يجمع هذه البلاد ويحقق لها كافة المزايا التي تترتب على قيام التكامل الاقتصادي من تحقيق الكفاءة في استخدام الموارد الاقتصادية وما يترتب عليها من زيادة الدخول الحقيقية وتحقيق العدل في توزيع الدخل بين المواطنين بما يؤدي إلى زيادة الرفاهية الاقتصادية، والتي تنعكس بدورها على بناء المصنع المنتج للآلة العسكرية العربية التي تشكل أداة درع لكل من يطمع في أرض وشعب العرب.

بعد هذا العرض لواقع العالم لعربي يمكننا القول أن ما ينطبق على العالم العربي ينطبق تماما على العالم الإسلامي فالأمن القومي الإسلامي مفقود والتنمية ضائعة نتيجة الايدولوجيات السائدة في العالم الإسلامي والسياسة الخاطئة التي تمارس في نختلف أمصار هذا العالم ،وضبابية الفكر الإسلامي بعد أن جنح في غير مرساه، والتبعية التي استطاعت دول الهيمنة العالمية الإمساك بتلابيب عالمنا الإسلامي الممتد، إن حالة الوطن العربي يمكننا تعميمها على العالم الإسلامي بكل حذافيرها، أسباباً ونتائج تكون هذا الهام يشكل قلب العالم الإسلامي ونواته الأولى.

الفصل الثامن

الأندلس بوابة التواصل الحضاري العربي الإسلامي – الأوربي

إن الحضارة بمعناها العام، فعل تام متحرك وتراث وإنتاج مشترك بين الأمم المختلفة، فضل كل منها بقدر إسهامها ... وحضارة أية امة بمعناها الخاص، تراث أي امة وجماعة تميزها عن غيرها[1].

وأية محاولة لوضع فواصل قاطعة بين الحضارات المتعاقبة لابد أن تنتهي بالفشل. فالحضارة من هذه الوجهة من فعل الإنسان دون النظر إلى موقعه التاريخي أو الجغرافي أو التبعية الدينية أو العرقية، ومدلول نسبة الحضارات إلى شعب بالذات هو الأكثر لتعيين مرحلتها الزمنية أو المكانية، بالإضافة إلى تقدير المشاركة التي قدمها ذلك الشعب الكريم لسعادة الإنسان[2].

وإن تراث أي امة هو بذرة بقائها ودعامة وجودها الحضاري، ودراسته يعني تعرفاً على الذات واستشفافاً للمستقبل، وان أية امة لن تستطيع أن تسير قدماً إلى الأمام بخطى راسخة شجاعة إلا إذا أدركت جذور تراثها وربطت خيوط حاضرها ومستقبلها بما ثلها وشابهها في صفات ماضيها سواء القريب منه أو البعيد[3].

ولاشك ان الحضارة العربية الإسلامية هي جزء حي في كتلة الحضارة العالمية التي أثرت فيها وتأثرت بها، فقد امتدت دولة الإسلام من حدود الصين الى جنوب فرنسا، ورافق حركة الفتوحات الإسلامية استفادة العرب من فلسفة اليونان، ومن ثقافة الصين والهند، مع ما عندهم في ملامح فكرية عربية أصيلة فهضموا هذه الحضارات المختلفة وتولوها بالرعاية والبحث والتصحيح والتهذيب، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها، وتميزت بملامح جديدة، والحضارة العربية الإسلامية لا ينقصها أو يقلل من أهميتها أمر تأثرها واستفادتها من الحضارات والثقافات التي سبقتها، بل على العكس فهو عامل قوة لها، وهو أمر طبيعي أن تقتبس كل امة من معارف وعلوم الأمم الأخرى التي سبقتها، ولكن يكفي الحضارة العربية الإسلامية فخراً بأنها لم تكن مقلدة أو تابعة للحضارات التي سبقتها، بل ان رجال هذه الحضارة بحثوا واجتهدوا وابتكروا، متخذين ركائز دينهم الذي يدعوا إلى طلب العلم، مع جذورهم الفكرية الأصلية، فأضافوا واوجدوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضاري إلى الأمام[4].

لذا أصبح من المؤكد بان العلوم والمعارف بأنواعها ليست من صنع امة واحدة ولا شعب معين، وكذلك ليست وليدة عصر واحد، وأن الازدهار الذي نجده في مختلف الميادين إنما هو محصلة حضارات متعاقبة على مر العصور وأعمال أمم تعاقبت في البحث عن حقائق الأمور ودراسة علومها جيلاً بعد جيل، وكل أمة تدعي إنها صاحبته وتجرد غيرها منه تكون قد جانبت الحقيقة والواقع.

وقد عبر احد المؤرخين المحدثين عن ذلك بقوله: (والحق ان شعوباً عدة في منطقة شرق البحر المتوسط كان لها اليد الطولى في إرساء حضارة الإنسان قد تناوبت العمل والابتكار على مسرح التاريخ، فعندما أصبحت الحضارتان البابلية والمصرية، اللتان بدأتا الخطوات الأولى في حاجة إلى قوة ابتكاريه جديدة وجدتاه في عبقرية اليونان، وعندما انحدر اليونان وتخلفوا وكادت تطمس حضارتهم وتضيع، وجدت الحضارة العربية تلك القوة الخلاقة الدافعة التي تناولت المشعل الذي كاد ينطفئ وتخبو ناره، فأشعلوه من جديد وخطوا به نحو غايات جديدة وأسلموه بدورهم إلى أوربا وهو في أوج اشتعاله وفي قمة نوره)[5].

وبهذا نخلص إلى القول: بان الحضارة متعددة الأصول مختلفة المصادر، وهي نتاج تعاويني لكثير من الشعوب والطبقات والأديان، وليس في وسع من يدرس تاريخها ان يتعصب لشعب أو عقيدة[6].

دام حكم العرب المسلمين للأندلس ما يقارب الثمانية قرون (92 - 197 هـ /710-1492مـ) أعطى خلالها الإسلام الذي كان قد خلق توافقاً واندماجاً بين حضارتين متضادتين باستناده على فكره الكوني، وصفة التسامح لمفهومه الديني، وباعتماده على قدراته الهائلة في التمثيل والإبداع، وميله المتميز إلى التجريب والاختبار، ثماراً عظيمة في بلاد الأندلس التي شهدت أهم اندماج عرقي بين الشرق والغرب، وكانت الحضارة يومها تشع من حواضر الأندلس، من قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية وسرقسطة الخ ، وكانت قرطبة في عصر الخلافة الأموية (316 – 422 هـ / 928 - 1030مـ) عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعاً في ذلك الوقت والأكثر تحضراً في أوربا كما يشير المؤرخ المشهور (رامون مننذث بيدال)[7].

فقد انتشر التعليم في الأندلس انتشاراً عظيماً وظهر العلماء والعباقرة في كل ميدان، وكثرت المدارس والجامعات وزاد الوعي الثقافي، حتى ليروى انه كان في الأندلس أيام الخليفة الحكم المستنصر (350 – 366 هـ /960-976م)
سبعون مكتبة عامة تحوي مئات الآلاف من الكتب في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، بالإضافة إلى المكتبات الخاصة، هذا فضلاً عن مكتبة قرطبة المركزية.

وأصبحت قرطبة يومها قبلة العلماء والطلاب في المشرق والمغرب، وقد كان من أسباب الازدهار العلمي في الأندلس إنها لم تكن في أي وقت من الأوقات بمعزل عما يجري في حواضر العلم العربية الإسلامية الأخرى، بغداد ودمشق والقاهرة وفاس، فقد كانت الصلات الفكرية والعلمية مستمرة بين مختلف اقطار العالم الإسلامي يتنقل بين ربوعها العلماء والطلاب والمؤلفات والمذاهب الفكرية.

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في العام 422 هـ/ 1030م، عمت حالة الضعف والتجزئة والانقسام السياسي بقيام دويلات الطوائف، إلا أن هذا الأمر لم يؤثر سلباً على النشاط العلمي، بل على العكس كانت له أثاره الايجابية النابعة من موقف العديد من ملوك الطوائف الذين تميزوا بحبهم للعلم والعلماء، وهذا ما دفعهم إلى التنافس فيما بينهم في رعاية وتنشيط الحركة العلمية واستقطاب العلماء، وإغداق العطايا عليهم، حتى غدت بلاطاتهم الملكية عبارة عن منتديات علمية وأدبية، وكان على رأسهم ملك دولة بني عباد، المعتمد بن عباد.

وبعد زوال حكم دويلات الطوائف سنة 483 هـ/ 1090 م، وسيطرة دولة المرابطين، ومن بعدهم الموحدين سنة 541هـ/1146م على الأندلس لم تتأثر الحركة العلمية بتلك التقلبات السياسية، بل ازدادت سعة ونشاطاً، لاسيما في عصر الدولة الموحديه الذي اتسم بحرية الفكر، حيث وجه حكام هذه الدولة اهتماماً كبيراً للعلم والثقافة، فقد كانوا من محبي أهل العلم مقدرين مكانتهم، وحريصين على جمعهم في بلاطاتهم، وإكرامهم، ولا عجب من ذلك

فقد كان البعض من هؤلاء الحكام ، علماء كما وصفتهم كتب التاريخ والتراجم، كعبد المؤمن بن علي الذي قيل فيه أنه كان (عالماً بالجدل فقيهاً في علم الأصول ... مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، إماماً في النحو واللغة ....)[8]. وأبو يعقوب يوسف الذي وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله ((كان ذا إيثار للعلم شديد التعطش إليه مفرط ... وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو . ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ... وبدأ من ذلك بعلم الطب ... ثم تخطى ذلك إلى ما هو اشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي))[9]. وفي ظل هذا الجو نشطت الحركة العلمية في جميع فروع العلوم النقلية منهاو العقلية ، وبرز خلال هذا العصر عدد من العلماء، ذاع صيتهم في أوربا، وما زال إلى الوقت الحاضر، كابن طفيل، وابن رشد، وابن البيطار .... الخ.

وبعد ان دبّ الضعف في دولة الموحدين في الأندلس لاسيما بعد خسارتها في معركة العقاب سنة 609 هـ/ 1212 م أمام مملكة قشتالة ، التي عدت بداية النهاية لحكم الموحدين في الأندلس ، الذي انتهى سنة 635 هـ /1237مـ ، بعد خسارة وسقوط الكثير من حواضر الأندلس بيد الممالك الاسبانية الشمالية، وانحسار الحكم العربي الإسلامي ، وحصره في الجزء الجنوبي الشرقي في ظل حكم دولة بني الأحمر التي قامت على أنقاض دولة الموحدين (635 -897 هـ / 1237-1491م) واتخذت من غرناطة عاصمة لها، حيث نشطت الحركة العلمية في غرناطة، ومدن أخرى كمالقة والمرية، بسبب هجرة العديد من علماء المعاهد العلمية التي كانت منتشرة في المدن الساقطة بيد الاسبان، هذا فضلاً عن رعاية حكام بني الأحمر للعلم والعلماء، فقد كان الطب والرياضيات والفلك من العلوم الأساسية التي كانت تدرس في الجامع الأعظم في غرناطة، وفي مدارس المدن الأخرى[10]. وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بين الأسبان المعايشين للعرب،

ولم يكن قد مضى على الفتح العربي نصف قرن من الزمن، وكانت هناك ازدواجية لغوية عربية ورومانية بين عامة الشعب الأندلسي، وأصبحت العربية الفصحى لغة الثقافة للاسبانيين ، والى جانبها اللاتينية الفصحى، وكان مجال استعمالها ضيقاً. وبقيت اللغة العربية الاسبانية حتى القرن السادس عشر الميلادي في اسبانيا[11]. أي بعد إنهاء الحكم العربي الإسلامي في الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1492م.

وشيئاً فشيئاً ومن خلال الاحتكاك والتعايش بين مختلف شرائح المجتمع الأندلسي*، طيلة حكم ثمانية قرون، وفرّ للأسبان وغيرهم سبل الأخذ عن المسلمين، بشكل مباشر وغير مباشر[12]. وتحقق من بلاد الأندلس تواصل حضاري بين العالمين المتصارعين ، ذلك التواصل الذي شمل أوربا برمتها[14].

عدت الأندلس أهم احد المعابر الثلاثة التي تمت خلالها عملية الإخصاب بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الأوربي، المعبر الأول صقلية وجنوب ايطاليا، والمعبر الثاني مصر وبلاد الشام، والمعبر الثالث الأندلس، فهي نقطة التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوربية الناشئة، لأنها تقع على الحدود بين بلاد الإسلام وبلاد أوربا[15].

كانت طرق التواصل بين الأندلس وأوربا سهلة، وتمثلت بصور وأشكال متعددة ، مباشرة وغير مباشرة، وهي:

أولاً: البعثات الأوربية الشخصية والرسمية التي توافدت على مراكز الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، فقد حمل العرب المسلمون طيلة فترة مكوثهم في اسبانيا مشعل العلم والحضارة، واعتمدت جميع مراكز التعليم في أوربا على قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة .. حيث كان الطلاب يشدون الرحال إليها ويقضون السنوات الطوال في الدراسة والتتبع، والاطلاع على مؤلفات العرب فيها، وكان في مقدمة هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت دي اورياك) الذي وفد إلى الأندلس في عصر الخليفة الحكم المستنصر (350- 366 هـ / 961 – 976م)،

ودرس على أيدي العلماء المسلمين الرياضيات والفلك والكيمياء، وحينما عاد إلى وطنه بعد ان بلغ من العلم مبلغا خيّل لعامة فرنسا إذ ذاك أنه ساحر[16]. فقد من أوائل المهتمين بالثقافة العربية، والمضمون التجريبي للعلم، وقد تمكن فيما بعد بفضل مواهبه العقلية ان يتربع عرش البابوية في روما تحت اسم سيلفستر الثاني (390 – 394 هـ / 999 – 1003 مـ) وكان له الدور البارز في نشر علوم العرب في أوربا وهو أول من ادخل التعليم الدنيوي ودافع عنه على أسس تقدمية[17].
كما وجدت نسخة لاتينية من حكم ابقراط كانت تستخدم في التدريس في مدينة شارتر بفرنسا عام 382 هـ / 991 مـ فعللت هذه الظاهرة بوجود نفوذ عربي مبكر في فرنسا، لأن هذه النسخة كانت عن أصل عربي، ذلك لأن الغرب اللاتيني كان يجهل في هذا العصر جهلاً تاماً أي شيء من الأصول اليونانية لأعمال اليونان القدماء[18].

وقد استنتج من قبل بعض المؤرخين المحدثين افتراضاً من ظروف هرمان الكسيح (1013-1054مـ) وهو ابن أمير دالماسيا من أصل سويسري، وقد كتب في الرياضيات والتنجيم عن تأثير الحضارة العربية الأندلسية، فهذا الأمير لظروفه المرضية لم يزر الأندلس، إلا انه استفاد من ترجمات لأعمال عربية كالتي وجدت في شارتر أو التي عملت لجربرت، واستفاد ثانياً من الطلاب الأوربيين العائدين من الأندلس إلى أوطانهم، بعد ان أنهوا دراستهم في الجامعات العربية، والذين كانوا يمرون بدير (ريختاو) الذي يقيم به هرمان ويقضون فيه فترة قبل رجوعهم إلى بلادهم، وعن هؤلاء نقل هرمان كل ما جلبوه من الآلات الفلكية العربية وفي مقدمتها الأسطرلاب[19].

كما أرسلت إلى الأندلس بعثات ذات طابع رسمي من قبل حكومات بعض الدول الأوربية، وأخذت هذه البعثات تتوالى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى، حتى بلغت سنة 312 هـ / 924 مـ، في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة[20]. وكانت إحدى هذه البعثات من ألمانيا، ففي سنة 313 هـ / 925 مـ أرسل ملك ألمانيا اوتو الكبير، الراهب (جون) إلى قرطبة مبعوثاً إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وأثناء مكوثه فيها لمدة ثلاث سنوات تعلم العلوم والثقافة العربية، وحمل معه المخطوطات العلمية العربية[21].

وتوجهت بعثه من فرنسا برئاسة الأميرة (إليزابيث) ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا. وبعث فيليب ملك بافاريا إلى الخليفة هشام المؤيد (366 – 399 هـ /976-1009 مـ) بكتاب يطلب منه أن يأذن له بإرسال بعثة من بلاده إلى الأندلس للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها ، فوافق الخليفة هشام، وجاءت بعثة هذه الملك برئاسة وزيره المدعو (ويلميين) الذي يسميه العرب وليم الأمين[22]. وقد تألفت هذه البعثة من (215) طالباً وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلوا من مواردها الثقافية، وتذكر الروايات بأن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإسلامي ومكثوا في الأندلس ورفضوا العودة إلى بلادهم، ومن ضمن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت، وأنجبن عدداً من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي[23].

وسار ملوك آخرون من أوربا على هذا النهج، فقد أوفد ملك ويلز بعثة برئاسة ابنة اخيه كانت تضم ثمانية عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة اشبيلية برفقة النبيل (سفيلك) رئيس موظفي القصر في ويلز الذي حمل رسالة من ملكه إلى الخليفة هشام المعتد بالله الذي خلع عام 422 هـ/ 1030مـ وكان هدف هذه البعثة كما تقول الرسالة: (فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا ولأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان ...)[24]. وقد استقبل خليفة الأندلس البعثة أحسن استقبال، ورد على رسالة ملك ويلز، وقد حظيت هذه البعثة باهتمام رجال الدولة الذين قرروا أن يتم الإنفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين[25].

وفي الوقت نفسه قام بعض ملوك أوربا باستقدام علماء الأندلس لتأسيس المدارس ونشر ألوية العلم والعمران، ففي خلال القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي وما بعده وّقعت حكومات هولندة وسكسونيا وانكلترا على عقود مع حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم، وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الاسبانية واللاتينية إلى جانب اللغة العربية[26].

ووقعت تلك الحكومات عقوداً أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات ولاسيما إنشاء السفن، وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون الزراعة. ولقد قام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر التايمس في انكلترا عرف باسم (جسر هليشم Helichem) وهذه الكلمة تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الانكليز اسمه على هذا الجسر عرفاناً بفضله لأنه أرسل إليهم أولئك المهندسين العرب. وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بإحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (أميديو Amedeo) وهو تحريف لكلمة أحمد المهندس العربي الذي بناها[27] .

ثانياً: خزائن المدونات في أديرة اسبانيا، ولاسيما دير سانتا ماريا دي ريبول الذي اقتنى بين القرنين السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي أعداداً كبيرة من المؤلفات العلمية العربية، لترجمتها من قبل رهبان الدير الذي انحدر العديد منهم من أصل مستعرب[28].

ثالثاً: المستعربون الذين كانوا يمثلون عنصراً فعالاً في الحياة الأندلسية، في نقل الحضارة العربية إلى اسبانيا النصرانية، فالعصور الوسطى الاسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصري بين المسلمين والنصارى حيث كانوا متعايشين سوية بروح التسامح، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطري اسبانيا، وهم منذ الفتح العربي الإسلامي لم ينقطعوا عن الهجرة إلى المناطق الشمالية في اسبانيا حيث إخوانهم النصارى، وقد ازدادت هجرتهم في القرن السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي على عهد دولتي المرابطين والموحدين، فقد هاجر سكان بلنسية منها إلى قشتالة في عام (496 هـ / 1102مـ)، وخرجت طائفة كبيرة من غرناطة مع جيش الفونسو الأول المحارب ملك أرغونة عام 519 هـ /1125مـ وكما خرجت طائفة أخرى من اشبيلية إلى قشتالة عام 541 هـ / 1146مـ وقد كان شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الثقافة الإسلامية العربية بين نصارى الشمال الاسباني[29].

رابعاً: التجار والعلاقات التجارية المتواصلة، فالتجار المسلمين الذين ظلوا قروناً يتاجرون مع الكثير من البلدان الأوربية، ولقد دلت التنقيبات أخيراً على وجود عملات إسلامية في أوربا الشمالية حتى فلندا[30]. كما لا ننسى الرحالة المسلمون الذين طافوا في مختلف أنحاء العالم ومنها أوربا أثر في نشر الحضارة العربية الإسلامية، ثم فيما أنتجته رحلاتهم من تراث جغرافي أو كتابات تخص تلك الشعوب والأقطار التي زاروها، كرحلة ابن فضلان وأبو عبيد البكري[31].

خامساً: التقارب السياسي والعلاقات الدبلوماسية، حيث سعت العديد من الدول الأوربية إلى توطيد العلاقات مع الدول العربية الإسلامية في الأندلس لاسيما في عصر الخلافة الأموية، في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي اجتمعت في شخصه مواهب عدة أهلته لان يكون حاكماً ناجحاً، فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب، تمكن من خلق نظام قوي ومتين داخل الأندلس، وتحقيق سمعة سياسية في الخارج، أهلته لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة له والتي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه[32] وكانت الدولة البيزنطية في مقدمة الدول الساعية إلى توطيد العلاقات مع الأندلس، وقد عاصر الخليفة الناصر من أباطرة بيزنطة الإمبراطور قسطنطين السابع المشهور عنه اهتمامه بالعلوم والآداب وكتب الأقدمين، وقد وصلت سفارتين من الدول البيزنطية إلى الأندلس كانت الأولى سنة 336 هـ/ 947م، حيث بالغ الناصر في تزيين بلاطه والاحتفال بالسفراء[33] ورافقت هذه السفارة في طريق العودة بعثة من قبل الدول العربية في الأندلس كان على رأسها هشام بن هذيل يحمل جواباً من خليفته الناصر يؤكد على توثيق العلاقات بين البلدين، وقد استغرقت سفارة ابن هذيل قرابة السنتين عاد بعدها إلى الأندلس[34] وقيل: أنه عاد صحبة سفارة ثانية سنة 338 هـ/949مـ للإمبراطورية البيزنطية[35] استقبلت بمثل حفاوة ما استقبلت السفارة الأولى[36].

ومن نتائج هذه السفارات دخول المؤلفات المهمة إلى الأندلس ككتاب الحشائش في الطب والصيدلة لديسقوريدس وكتاب هروشيش في التاريخ الذي يحوي أخبار الروم في العصور القديمة، وقد استعانت الخلافة الأندلسية بالدول البيزنطية من أجل ترجمة هذين الكتابين(37) ونقل أكثر من مائة سارية وتحف غريبة استخدمت في بناء وتزيين مدينة الزهراء(38).

وحرصت الدولة الرومانية المقدسة على إقامة علاقات دبلوماسية مع الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، فقد وصلت سفارة من قبل الإمبراطور الألماني اوتو الكبير، إلى الأندلس سنة 342 هـ / 953م ، وكانت برئاسة الراهب جان دي جورز، وهو أحد علماء عصره في البحث والمناظرة(39) ولكن ممثل الإمبراطور لم يكن على قدر من السلوك الدبلوماسي، فقد وصلت إلى مسامع الخليفة الناصر ان السفير يحمل رسالة تضم عبارات تمس مقدسات العقيدة فرفض مقابلته، وتم الاتفاق على إرسال سفارة عربية إلى اوتو الكبير تطلب منه تغيير سفارته، وأوكل هذه المهمة إلى أحد المستعربين الذين يجيدون اللغة اللاتينية إجادة تامة ويدعى رثموندو أو ربيع بن زيد – إذ كان من عادة المستعربين اتخاذ الأسماء العربية إضافة إلى أسمائهم الأجنبية – وقد استقبلت هذه البعثة من الإمبراطور في بلاطه بمدينة فرانكفورت، وأنهت مهمتها بنجاح وعادت إلى الأندلس برفقة سفارة ألمانية جديدة حملت توجيهات محددة إلى السفارة السابقة(40) وتمكن السفير ربيع بن زيد (رثموندو) أثناء تواجده في ألمانيا، من لقاء المؤرخ الألماني لوتيراند، وحثه على وضع كتاب في التاريخ يهتم بإخبار وحوادث العصر(41).

كما كانت للمالك الاسبانية الشمالية علاقات دبلوماسية مع حكومة قرطبة على الرغم من ان الصراعات العسكرية هي التي كانت غالبة على العلاقة بين الطرفين، إلا أن هذه الممالك كانت تدخل في وفاق عندما تكون عاجزة عن القيام بأي فعل عسكري تجاه الدولة العربية في الأندلس[42] وحتى الحروب التي كانت دائرة بين الطرفين لعبت دوراً في التلاقح الفكري، من خلال الأسرى، إذ ما لبث البعض من أسرى المسلمين من علماء وأطباء أن تحولوا للعمل في بلاط أمراء الأسبان، وفي الجانب الأخر أيضاً وقع بعض أسرى الأوربيين بيد المسلمين، وعندما فك أسرهم نقلوا ما سمعوه وشاهدوه من تقدم حضاري في الأندلس.

سادساً : حركة الترجمة ، والتي تعد قناة غير مباشرة ، ولكنها أثرت تأثيراً كبيراً في نقل أوربا من عصر الظلام والتخلف إلى عصر الانبعاث والتقدم[43].

مرت حركة الترجمة بدورين:

الدور الأول: والتي تمت فيه ترجمة الكثير من المخطوطات إلى العربية بما في ذلك كتاب في علم الزراعة، كتبه (كولوميلا) وكتاب تاريخ عام ألفه (اوروسيوس)، وكتاب يبحث في التنجيم، وآخر في الاشتقاق لمؤلفه (ايزدور)، وقد وقع على عاتق النصارى أحياناً القيام ببعض هذه الترجمات، كما وتم ترجمة عدد كبير من المؤلفات إلى العربية لفائدة العناصر المستعربة من النصارى، وليس للمسلمين فقط، فقد تمت ترجمة ثلاث نسخ من المزامير، من بينها واحدة ترجمها حفص القوطي في سنة 276 هـ / 889 مـ شعراً، وكان المقصود بها خصيصاً أن تحل محل نسخة نثرية غير فصيحة كانت دارجة

الاستعمال في ذلك الوقت، وكذلك تمت في سنة 357هـ/ 967 مـ ترجمة تقويم كنسي ألحق بأخر عربي يبحث في تقسيم السنة على أساس الثماني والعشرين دورة فلكية المعروفة باسم (منازل القمر)، وأطلق على الترجمة اسم (تقويم قرطبة)[44].

أما الدور الثاني: فيشمل الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ويبدأ من منتصف القرن الخامس إلى أخر القرن السابع الهجري / منتصف القرن الحادي عشر إلى أخر القرن الثالث عشر الميلادي، وقد مر هذا الدور بمرحلتين الأولى تمت فيها ترجمة العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية، والمرحلة الثانية ترجمة العلوم العربية الإسلامية.
كانت أوربا لا تمتلك من العلم اليوناني إلا القليل تمثل بمختصرات هزيلة وضعت منذ القرن الخامس الميلادي والى القرن الثامن الميلادي، لذا بقيت الدراسة في أوربا ضئيلة محصورة في فئة قليلة من الرهبان، ولم تنتعش وتتطور إلا بعد تمثلها للعلوم العربية ولاسيما التي تشمل على أصول علوم اليونان التي ترجمها العرب المسلمين في عصر ازدهار حضارتهم(45).

بعد أن استرد الأسبان بقيادة ألفرنسو السادس طليطلة عام 478هـ/ 1085م، واتخاذها كعاصمة لمملكة قشتالة، قامت فيها حركة ترجمة نشيطة فقد امتازت هذه المدينة بكثرة مكتباتها، والتي حوت ألاف من المجلدات التي انتقلت إليها من المشرق، فضلاً عن ذلك بقاء الثقافة العربية فيها حتى بعد أن استردها الأسبان، وقد تم القيام بتخطيط برنامج شامل للترجمة عن طريق تأسيس معهد لترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية، ويرأسه كبير الشمامسة في طليطلة المدعو (دومينيكوس غونديسينوس) والذي يذكر بالمصادر العربية بـ(دومنجو غنصالفة) والذي برز نشاطه ما بين عام 1130والى عام 1180م، والذي يعد من أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الاسبانية العامية، فقد كانت الطريقة في الترجمة ان يقوم يهودي مستعرب – من أشهرهم في معهد الترجمة بطليطلة أبراهام بن غزرا – بترجمة النص العربي شفوياً إلى اللغة الاسبانية العامية ثم يتولى غنصالفه الترجمة اللاتينية، ومن بين ما ترجمه غنصالفة على هذا النحو بعض مؤلفات الفارابي، وابن سينا، والغزالي(46).

وكان يعمل بمعية غنصالفة عدد من المترجمين توجهوا من أنحاء أوربا إلى طليطلة منهم الايطالي (جيرار الكريموني) الذي وصف بأنه (الشماس) في إحدى وثائق كادرائية طليطلة المؤرخة في 11 آذار مارس 1162م ، حيث يدعى (جيرادوس المعلم) في وثيقتين أخريين من وثائق الكاتدرائية بتاريخ. آذار/ مارس 1174م ، وآذار/ مارس 1176م والوثائق الثلاثة ممهورة بتوقيع غنصالفة [47] وقد قام جيرارد بترجمة كتاب الفارابي (تصنيف العلوم)، وترجم عدة مؤلفات لأرسطو ، وبعض الشروح على أرسطو لمؤلفين عرب ومؤلفين إغريق سبق وأن ترجمت اعمالهم إلى العربية، كما ترجم ةعن العربية كتباً لأبقراط وجالينوس، وترجم كتابين أصيلين في العربية هما (القانون في الطب لابن سينا)، وكتب التصريف للزهراوي الذي يعد القسم الأخير منه أشهر بحث في الجراحة[48].

واشترك (غنصالفة) مع رفيقه (افيندوف)، و(جوهان الاسباني) بترجمة مصنفات الدارسين العرب واليهود الذين لخصوا، وأعادوا ترجمة فلسفة ارسطو، كمؤلفات ابن سينا، وابن جبيرول، والغزالي[49] وشاركه أيضاً المترجمان الانكليزيان (روبرت القيطوني و ادلار الباثي) فقد اشتهر ادلار الباثي بترجمة جداول علم الفلك لمسلمة المجريطي عام 1126م [50].

استمر نشاط حركة الترجمة في طليطلة في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وهناك دليلان على هذا النشاط:

الدليل الأول: نقل حصيلة ذلك الازدهار في الفلسفة في اسبانيا الإسلامية ففي عهد سيطرة الموحدين على المغرب و الأندلس (543 – 668هـ / 1146- 1269م) حدثت ثورة أصولية أرسطوية لم يسبق لها مثيل في أي مكان أخر من العالم العربي الإسلامي، وكانت الشخصية الرئيسية في هذا المشهد ابن طفيل (ت: 581 هـ / 1185م) الطبيب الرسمي في بلاط زعيم الموحدين في قرطبة، ومؤلف الرواية الفلسفية (حي بن يقظان)،

وقيام البطروجي بتأليف كتاب سماه باسم (حركات الأجرام السماوية) المكتوب حوالي (600هـ / 1200م) والكتاب محاولة ثورية في علم الفلك تدعو إلى استبعاد نظام بطليموس القديم حتى يحل محله أنموذج يتفق مع (فيزيقيا) أرسطو. ثم قيام ابن رشد (ت : 594 هـ / 1198م) عقب ذلك بالمشروع الأكثر طموحاً وهو يضع ثلاثة مستويات من الشروح والتعليقات على جميع مصنفات ارسطو ، وأضاف إليها فيما بعد تعليق على جمهورية أفلاطون، ومع أن الأرسطوطاليسية الأندلسية لم تترك إلا أثراً في الدراسات العربية الإسلامية اللاحقة، إلا إنها تركت أثراً قليلاً في الفلسفة اللاتينية والعبرية والعلوم الأخرى، وفي هذا المناخ الثقافي في قرطبة، تشكلت فلسفة ابن ميمون (ت: 600هت/1204م) وبعد سنوات معدودات على تأليف مصنفات كل من البطروجي، وابن رشد تمت ترجمتها إلى اللاتينية والعبرية، حيث قام بالترجمات الأولى في اسبانيا (مايكل سكوت) واليه تعزى أقدم ترجمة لابن رشد، والتي بدأها في اسبانيا ثم استكملها حين انتقل إلى ايطاليا[51].

والدليل الثاني: نشأة الترجمة الرسمية والمقصود بها القيام بالترجمة بصفتها جزءاً من السياسة العامة للدولة، اما بهدف تفخيم الأمة الاسبانية الحديثة الظهور، أو بهدف رد المسلمين الأسبان الى النصرانية[52] وربط الكنائس الشرقية بروما بعد توحيدها، ولتحقيق ذلك، كان لابد من تعلم العربية، فقد أطلع بطرس الجليل (رئيس دير كلوني) أثناء زيارته إلى اسبانيا في مهمة دينية عام 1141م على بدايات الصراع المرير بين الإسلام والنصرانية في الأندلس، وكان ذلك أثناء حكم الموحدين وتوصل إلى أن القوة المسلحة لوحدها لا تجدي نفعاً في محاربة الإسلام، وإنما ينبغي اللجوء إلى المنطق، وذلك بفهم الخصم أولاً، والإصغاء الى حججه وجدله ثانياً، وبما أن القرأن الكريم هو المرجع الأول لدى المسلمين،

فقد تعين على الأوروبيين فهمه ولتحقيق هذه الغاية قام بطرس الجليل بتكليف (روبرت القطيوني) بترجمة القرأن إلى اللاتينية وأجزل له العطاء، وقد لقيت ترجمته رواجاً واسعاً[53] هذا فضلاً عن قيام بطرس الجليل بشراء كل المخطوطات المترجمة من قبل هرمان الكارنثي، وروبرت القطيوني وبيتر الطليطلي، والتي تعرف بـ(مجموعة طليطلة)

والتي هي عبارة عن ترجمات لمخطوطات عربية عن الإسلام، كما ضمت القرأن الكريم وحياة الرسول محمدع، ووصفاً للخلفاء الاولين، ومناظرة بين رجل نصـراني ومسلم تعرف بـ(مناظرة الكندي)، وقد بقيت هذه الترجمات مرجعاً ثميناً للغربيين الذين يودون فهم الإسلام، ففي القرن السابع عشـر الميلادي كانت لا تزال ترجمة روبرت القطيوني للقرأن الكريم مستعملة لدى البعثات التبشيرية النصرانية، كما غدا رد الكندي في المناظرة المشهورة شائعاً في العصر الحديث[54].

وبعد مرور خمس سنوات على هزيمة الموحدين في معركة العقاب عام 609هـ /1212 م، والتي تعد بداية النهاية لسلطة الموحدين في الأندلس توالى سقوط حواضر الأندلس الواحدة تلو الأخرى كقرطبة واشبيلية ولم يبق سوى غرناطة مملكة إسلامية وحيدة، إنتاب شعوراً عظيماً بالثقة لأساقفة وملوك الاسبان لجعل شبه جزيرة كاملة في اسبانيتها ونصـرانيتها، فانتشـرت حركة الترجمة من العربية الى الاسبانية ولا سيما في عهد الملك ألفونسو العاشر الحكيم، ملك ليون وقشتالة (1252-1284م)، فترجمت كتب كليلة ودمنة، وعشـرات من كتب الفلك ولم تكن لغة الترجمات هي الاسبانية فحسب، بل لقد جعلها تبدو وكأن المؤلفين أنفسهم كانوا من الأسبان أيضاً.

فقد سمي كتاب "غاية الحكيم" في التنجيم لمسلمة بن أحمد المجريطي (ت:397هـ\1007م) مثلاً بـ"الحكيم الاسباني" وكان لهذا أثره في قيام اللغة الاسبانية أولاً، ومن ثم تقدم الدراسات العلمية في اسبانيا وانتقالها الى اوروبا ثانياً، وأنشأ الفونسو الحكيم عام 1254م جامعة اشبيلية وخصصها لدراسة العربية واللاتينية[55].

تركز سيل الترجمة بشكل أولي من موضوعات العلوم العقلية، ففي مجال الرياضيات فإن الغرب مدين للحضارة الإسلامية بمعرفة الأرقام وبضمنها الصفر الذي حل مشاكل كثيرة في العمليات الرياضية، وكان أول من أخذ بالأرقام العربية (جربرت دي اورياك) وأدخلها أوروبا، وبعدها ألف كتاب يشرح فيه استخدام الأرقام العربية، وبعد فترة من الزمن تبنت أوروبا الارقام العربية نتيجة أعمال (ليوناردو دي بيزا) الذي توفي عام 1240م، والذي درس الرياضيات على يد معلم عربي في المغرب العربي، وأصدر كتاباً يشرح فيه نظام الأرقام العربية عام 1202م، وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية وبداية علم الرياضيات الأوروبي[56].

ومن أشهر الرياضيين العرب الذين عرفتهم أوروبا وترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية الخوارزمي الذي أشتهر في اوروبا بكتابه (الجبر والمقابلة) الذي ترجمه إلى اللاتينية (روبرت الشستري) عام 1145م، وظل هذا الكتاب يدرس في المدارس والجامعات الاوروبية حتى القرن السادس عشر الميلادي، ومن علماء العرب الذين لهم الفضل في مجال الجبر أبو بكر محمد بن جسن الكوجي (ت:407هـ\1016م) صاحب كتاب (الفخري في الجبر والمقابلة)[57]. وطور العرب علم الهندسة والمثلثات الكروية وحققوا تقدماً واضحاً وقاموا بترجمة كتاب إقليدس في الهندسة، وهذه الترجمة العربية نقلها الأوربيون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظلوا يتدارسونها إلى أواخر القرن السادس عشر عندما عثروا على مخطوط من كتاب إقليدس باللغة اليونانية[58].

ومن علماء العرب الذين اشتهروا في هذا المجال جابر بن افلح الذي برز اسمه عام 545هـ/1150م تقريباً في مؤلفه "حول حساب المثلثات الكروية"، وقاضي جيان، أبو عبد الله محمد بن معاذ الجياني (ت: 486هـ\1093م) وأحرز اميران من أسرة بني هود بسرقسطة شهرة عظيمة لمواهبهما في الرياضيات والهندسة هما أحمد المقتدر بالله، وابنه يوسف المؤتمن الذي صنف كتاباً شاملاً.في الهندسة سماه (الاستكمال) اعتمد فيه على عدد كبير من المصادر بما فيه المبادئ لإقليدس، والبيان والافلاك لثيودسيوسش ومنيلادس، والمخروطات لأبولونيوس، وكتاب أرخميدس في الكرة والاسطوانة، وشروح

اوتيكيوس على كتاب ارخميدس في الكرة والاسطوانة كما اعتمد مقالة ثابت بن قرة في الإعداد المتالفة، وكتاب البصريات لأبن هيثم، ولم تكن معالجة الأمير يوسف المؤتمن للمسائل الهندسية مقتصرة على مجرد إعادة إنتاج ما في المصادر التي اعتمد عليها، وإنما قدم في كثير من الحالات حلولاً أصيلة تثبت انه كان هندسياً بارعاً. وقد ترجم كتابه الاستكمال الى اللاتينية من قبل المترجم هوغو الشنتالي(59). ومن علماء العرب الآخرين في علم المثلثات إبراهيم بارحيا (ت: حوالي 531هـ\1136م) الذي صنف كتاباً في علم المثلثات، ترجمه أفلاطون التيفولي، وجعل عنوانه "كتاب المساحات"(60).

وفي مجال علم الفلك والتنجيم، كان الإرث الأندلسي غني في هذا المجال وكان هناك اتصالاً واضحاً في الدراسات الفلكية من القرن الرابع الى الثامن الهجري\ القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، فقد درسوا مواقع الأجرام السماوية وحركاتها، وتوصلوا إلى العديد من الاكتشافات العلمية، وألفوا الكتب فيها، وكان من أوائل علماء الفلك مسلمة بن احمد المجريطي (ت: 397هـ\1007م)، وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري\ الحادي عشر الميلادي، كان هناك رياضيون فلكيون بارزون هما احمد بن محمد بن السمح (ت:426هـ\1035م)، وأبي القاسم احمد بن عبد الله المشهور بإبن الصفار (ت: 426هـ\1035م) كما كان هناك منجم هو ابن الرحال، وفي منتصف ونهاية القرن السادس الهجري\ الثاني عشر الميلادي ظهر فلكيون بشكل متعاقب في اشبيلية هما جابر بن افلح، والبطروجي حيث برز الأول في كتابه "الاصلاح المجسطي" الذي ترجم إلى اللاتينية والعبرية، أما الثاني فقد انتقد المفاهيم النظرية لبطليموس(61).

وكان أكثر علماء الفلك أصالةً ونفوذاً في الأندلس، الطليطلي ابن اسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بالزرقالي (ت: 493هـ\1100م) الذي سيطرت أفكاره الفلكية ومسالكه البحثية على تطور الفلك لمدة تزيد على قرون ثلاثة حيث أسهم في تطوير نوع جديد من الفلك الأندلسي يتميز بمزيج من العناصر الهندية (السند هند) والعناصر اليونانية (بطليموس) والعناصر الإسلامية (البتاني) فأضاف الأفكار الجديدة (الارتعاش، حركة الاوج الشمسي، النموذج الشمسي باختلاف مركزي متغير، وتصحيح النموذج القمري البطليموسي) التي كان لها لها تأثير كبير للغاية في كل من المغرب وأوروبا اللاتينية، وأحياناً حتى المشرق(62).

وقد قام مجموعة من المترجمين الأوروبيين بترجمة كتب علم الفلك العربية الى اللاتينية، ومن أشهرهم الانكليزي (ادلار الباثي) و(افلاطون التيفولي) و(جيرار الكريموني)، وقد ترجمت قوائم الزيج والأعمال الفلكية إلى غير اللاتينية أحياناً كترجمة زيج البتاني (ت: 317هـ\929م) إلى الاسبانية بناءاً على رغبة الملك الفونسو العاشر ملك قشتالة (1252-1284م) وسمي هذا الزيج (بالجداول الالفنسية) الذي شاع استعماله في اوروبا لعدة قرون(63).

أما الجداول الفلكية للخوارزمي فقد ترجمها ادلار الباثي، كما استقى ما جاء به عن الأسطرلاب عن مسلمة المجريطي مستنداً على الترجمة اللاتينية التي بنى عليها كتابه الخاص عن الاسطرلاب والذي سماه "كيف تستخدم الاسطرلاب"، وترجم تنقيح مسلمة لجداول الخوارزمي حول حساب أقطار قرطبة (أي موقعها)(64). وترجمت كتب أبو العباس أحمد بن محمد الفرغاني في الفلك من قبل خوان الإشبيلي وجيرار الكريموني، كما ترجم جيرار الكريموني أعمال ابن معاذ الجياني "انعكاس الضوء في الجو" و"جداول جيان الفلكية"، وترجمت كتب أبو معشر البلخي من العربية إلى اللاتينية من قبل خوان الإشبيلي ومن خلالها نقل إلى الاوروبيين تفسيرا لظاهرة المد والجزر وارتباطها بالقمر (65).

وقد كان لمشروع ترجمات روبرت اليقطوني، وهرمان الكارنثي لمخطوطات عربية عالجت الفلك ارسلت من قبلهما إلى فرنسا الأثر الكبير فهاهو يوحنا من (ساليزبولي) يعتبر العرب أكثر تقدماً من اللاتيين في علوم الفلك(66).

كما أن فكرة المراصد الفلكية أخذتها أوربا عن العرب، فأول من عرف آلات "طبق المناطق" لتعيين مواقع الكواكب في القبة السماوية، والأسطرلابات الكونية، هم الأندلسيون، ويظهر أن أطباق المناطق وجدت لأول مرة في الأندلس في بداية القرن الخمس الهجري – الحادي عشر الميلادي، أما الرسائل الأندلسية الأولى حول هذه الالة فقد كتبها ابن السمح والزرقالي وابن الصلت، ولربما كان ابو الصلت هو المسؤول عن انتشار هذه الالة في المشرق في أثناء إقامته الطويلة في مصر، ذلك ان الرسالة المشرقية الوحيدة المنشورة حول (طبق المناطق) كتبها في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، الفلكي جمشيد غياث الدين الكاشي، وتوجد فيها تفصيلات تذّكر بعمل الزرقالي وابن الصلت، وقد ادخلت هذه الالة إلى أوربا في وقت أبكر من ادخالها الى المشرق(67).

كما قدم العرب خدمة كبيرة في مجال الاستكشافات الجغرافية، فاذا كان وصول العرب الى القارة الأمريكية قبل كولمبس أمراً غير مقطوع به، فمن المحقق أنهم وصلوا في المحيط الأطلسي إلى أمد بعيد، وانتهوا الى بعض جزائره، أما الأمر الذي لا شك فيه أن الفكرة التي نهضت بكولومبس مكتشف القارة الأمريكية (1492-1493) إنما هي فكرة عملية مستمدة من المؤلفات العربية وبخاصة كتب الفلك والجغرافية، فلولا اقتناع كولومبس بكروية الارض، لما خطر له أن يصل الى الهند عن طريق الغرب، ولم يكن في ايطاليا واسبانيا يومئذ مؤلفات تشرح هذه الفكرة غير المؤلفات العربية(68).

وفي مجال علم الطب فقد سيطرت المؤلفات العربية طوال القرون الوسطى لكون الطب العربي كان متفوقاً على الطب الاوربي الذي كان قائماً على السحر والشعوذة، فقد غدت بعض الأسماء العربية معروفة بصيغتها اللاتينية في هذا المجال مثل "ابن سينا" صاحب كتاب "القانون في الطب"، والرازي، وابن ماسويه، وموسى، واسحاق بن حنين، وأبو القاسم الزهراوي وابن الرشد وابن زهر الاشبيلي(ت:470هـ/1078م) وولده ابو العلاء (ت: 525هـ /1131م)، وحفيده ابو مروان (ت: 557هـ/1161م)، وقد تمت ترجمة معظم أعمال هؤلاء الأطباء إلى اللاتينية وفي اسبانيا(69).

وأصبحت كتبهم مشهورة في اوربا لتدريس الطب، فقد ظلت المدارس في أوربا تعتمد على كتب الرازي زمناً طويلاً، كما كان قانون ابن سينا في الطب، موضع اهتمام الغرب ودراستهم منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وكان كتاب الحاوي للرازي أحد الكتب[70]. التسعة التي تتكون منها مكتبة الكلية الطبية في باريس عام 1395م، وقد بلغت الجراحة ذروتها في تاريخ الحضارة العربية على يد أبي القاسم الزهراوي في كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" وقد ترجم الفصل الخاص بالجراحة الى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي[71].

ويرتبط علم الطب بعلم الصيدلة ذلك العلم الذي طرأ عليه في الأندلس تطوراً كبيراً بفضل النص العربي لكتاب ديوسقوريدس "Matevia Medica" الذي أعده أطباء قرطبة في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، ويذكر.   أن كتاب ديوسقوريدس اختصر باللغة اللاتينية مرتين في طليطلة في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي، في حين ترجم كتاباً ابن وافد في العلاج بالحمامات والينابيع الطبية والعقاقير النباتية المفردة الى لغات نصرانية: الأول إلى اللاتينية بعنوان "De Batneis" والثاني إلى لغة القطلونية بعنوان كتاب العقاقير المفردة " Libre dw les medicines particulars".

ومن بين مشاهير علماء الصيدلة أبو مروان حفيد الطبيب عبد الملك بن زهر، فقد كانت له شهرة كبيرة لدى النصارى باسم "Abhomeron Averzoar" وكان معاصراً لابن رشد، الذي عده نظيراً له في الطب، وربما متفوقاً عليه في ميدان الصيدلة، ذلك ان ابن رشد يحيل قرّأءه في ختام كتاب الذي عرفته النصوص اللاتينية بعنوان "Colliget" على كتاب زميله ابي مروان "التيسير" للإستزادة في مسائل علم الصيدلة. ولقد ترجم كتاب التيسير الى اللاتينية (يارا فيجيني)في حدود سنة 679هـ\1280م، ويصف الكتاب لأول مرة في التاريخ خراج التامور (دمل شغاف القلب) وينصح في بعض الحالات باستعمال التغذية عن طريق المريء او الشرج، كما تعرف على اول اوصاف داء قراد الجرب، المعروف علمياً باسم "sarrptes scabiei"[72].

أما في الكيمياء فقد كانت مؤلفات جابر بن حيان أشهر ما تداوله الاوربيون في علم الكيمياء حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ومن خلال هذه المؤلفات عرفت أوروبا عمليات التكليس والتبخير، والتقطير والتبلور وتحضير الكثير من المواد الكيماوية مثل الشب واوكسيد الزرنيخ وغيرها، كما كانت لمؤلفات الرازي شهرتها مثل "سر الاسرار" الذي نقله (جيرار الكريموني) الى اللاتينية(73).

وكان لنقل كتب جابر بن حيان والرازي وغيرهم، أمثال أحمد بن مسلمة المجريطي، صاحب كتاب (غاية الحكيم) في الكيمياء الذي ترجم إلى اللاتينية في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي الى اللغات الأوربية(74). أن تلقى الأوربيون عن العرب تقسيم المواد الكيماوية الى نباتية وحيوانية ومعدنية، وما زالت المعدات العربية في مجال الكيمياء، والتي انتقلت الى الكيمياء الحديثة، تحت اسماءها العربية الاصيلة(75).

أما في مجال الفلسفة فقد اهتم الغرب الاوربي كثيراً بالفكر الفلسفي، فقد شهد القرن السادس والسابع الهجري/ الثاني والثالث عشر الميلادي، ازدهار الفلسفة في الاندلس من خلال مولد مدرسة مهمة من الفلاسفة تشمل شخصيات كأبن باجه، ابن طفيل، وابن رشد وهو اعظم فيلسوف اندلسي ترك اثراً واضحاً في الغرب، وقد أدى العرب المسلمين دور مزدوج، فعن طريقهم عرفت اوربا في القرنين السادس والسابع الهجري /الثاني عشر والثالث عشر، مؤلفات ارسطو، واجزاء من فلسفة افلوطين وايرقلس، ومعالم عن فلسفة افلاطون، إذ قام المترجمون في طليطلة بترجمة كتب هؤلاء الفلاسفة، وهذا ما ادى الى خضوع الفكر الاوربي لفلسفة ارسطو خضوعاً تاماً(76).

وأثر العرب المسلمين بطريق ثاني على الفكر الفلسفي الأوربي عندما ترجمت مؤلفاتهم الى اللاتينية، وبعض اللغات الاوربية الحديثة الناشئة وكان في مقدمة المترجمين (جيرار الكريموني) الذي قام بترجمة بعض رسائل الكندي فيلسوف العرب منها (رسالة في العقل) و(رسالة الجواهر الخمسة)، كما ترجم (رسالة في العقل) للفارابي، وترجم (يوحنا الاسباني) منطق ابن سينا، وترجم (هرمانوس المانوس) (شرح ابن رشد) على (كتاب الاخلاق) لأرسطو عام 1240م وترجم شيخ المترجمين (غنصالفة) بمساعدة يوحنا الاسباني قسم (الطبيعيات) من كتاب (الشفاء)، وقسم (النفس) و(الالهيات) من الشفاء لابن سينا، وكتاب (مقاصد الفلاسفة) للغزالي، وكتاب (ينبوع الحياة) لابن جبرول.

وقد تأثر شيخ المترجمين الأوربيين (غنصالفة) بأراء فلاسفة الاسلام، وقد بدت واضحة في كتبه فقد تأثر بابن سينا، وابن جبرول في كتابه (صدور العالم) و(في خلود النفس) و(تقسيم الفلسفة) وفي (التوحيد)(77).

وتأثر مجموعة من الفلاسفة الاوربيين، بالفلاسفة المسلمين في القرنين الثالث عشر، والرابع عشر الميلادي، منهم البرتس الكبير (1207-1280م) الذي تأثر بأراء ابن سينا، وفهم فلسفة أرسطو من خلال مؤلفات الفارابي وابن رشد وابن سينا، والفيلسوف القديس توما الاكويني (1225-1274) الذي تأثر بالفارابي وابن سينا، وبدا هذا التأثر واضحاً في (البراهين) التي أوردها ثبات وجود الله بطريقة العقل، كما اخذ من ابن رشد فكرة ضرورة الوحي الالهي التي وردت في كتابه (فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) و(الكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة)، كما اخذ عن ابن رشد ايضا مذهبه في النقل والعقل، أي الصلة بين العقل والوحي، فكلاهما يعترف بعجز العقل أمام بعض الحقائق الالهية[87].

وبهذا فقد دشنت اعمال ابن رشد تيار الموازنة في جدلية الإيمان والعقل مؤسسه بذلك ضرباً من ضروب الفكر الوسيطي واول من ادخل فلسفة ابن رشد الى اوربا (ميخائيل سكوت) ولم يأت منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حتى كانت جميع كتب ابن رشد قد ترجمت الى اللغة اللاتينية، ولم ينتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية (بادوا) بايطاليا، والمعلم الأكبر دون منازع[80].

أما أثر التصوف الاسلامي في نشأت التصوف الأوربي فجاء عبر ترجمة مؤلفات الصوفي الغزالي، فقد ترجم كتاب (التهافت) و(النفس الانسانية) خلال القرن الثاني عشر، وترجم كتاب (المقاصد) من قبل المترجم (جند يسالبة) الى اللاتينية، وقد أثر الغزالي في فكر العالم الفرنسي المشهور (بسكال) صاحب الحجة المشهورة في اثبات وجود الاخرة والتي تسمى (رهان بسكال) حيث حاول إقناع المنكرين للاخرة الإيمان بوجودها، وهذه الحجة ذكرها الغزالي في معظم كتبه[81].

وكان لمحي الدين بن عربي أثر كبير على عقول النساك والمتصوفة من النصارى، فقد دعى الى وحدة الاديان، ووحدة حقائق الوجود، وكان من بين تأثر به، الفيلسوف الصوفي الالماني (جوهان اكهارث) الذي نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي (القرن الثالث عشر الميلادي)، واثر ابن عربي على الشاعر الايطالي (دانتي) الذي استمد مادة غزيرة لكتابه (الكوميديا الالهية) من التصورات الاخروية الاسلامية، وبخاصة ما ورد منها عند ابن عربي[82].

وبدأ واضحاً اثر التصوف الإسلامي في نشاة التصوف الأوربي من خلال دراسات العلامة الاسباني (ميجيل اسين بلاثيوس) الذي وضح تأثير الصوفي الاندلسي ابن عباد الرندي (ت: 792 هـ / 1390مـ) على اراء الصوفي الاسباني (يوحنا الصليبي)، وكان الرندي صوفياً على الطريقة الشاذلية، ومشهوراً بشرحه لكتاب (الحكم) لابن عطاء الله الاسكندري المسمى " غيث المواهب العلمية في شرح الحكم العطائية"، وهو كتاب يتضمن جملا قصيرة فيها خلاصة التصوف [83]، وقد تأثر يوحنا الصليبي بنقطة بارزة في هذا الشرح، عي فكرة البسط والقبض، وقد شبه أبو الحسن الشاذلي الذي سار على مسلكه ابن عباد الرندي، البسط والقبض بالليل والنهار، وهذا التشبيه أخذه يوحنا الصليبي عندكلامه عن (الليلة الظلماء للروح) وقد ميز يوحنا بين نوعين من الليلة الظلماء، الليلة الحسية، التي فيها تحاول النفس أن تتطهر من الشهوات ولكنها تسير في طريق مظلم فلا تدري أين تذهب. وبعد مجاهدة النفس وتاملاتها يلقى الله بصيصاً من النور في قلب المريد فيبدا يدخل في الليلة الروحية فيطهرها من الجهالات، ويلهم الله النفس التقوى، ويلهمها محبته ويصفيها من ادران الحواس وعلى الرغم من أن ابن عباد سبق يوحنا بمائتي سنة، أولاً، وعدم وجود دليل مادي مكتوب ثانياً، لكن يبدوا ان تاثر يوحنا بابن عباد، جاء نتيجة الانتشار الواسع للطريقة الشاذلية في مصـر والمغرب والأندلس وبخاصة في الأندلس في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي، ولابد انها بقيت عميقة التاثر والانتشار بين المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، وبقوا في اسبانيا بعد اخراج العرب منها عام 897 هـ / 1492 م، وعن هؤلاء تلقى يوحنا علمه بالطريقة الشاذلية[84].

وكان للادب الاندلسي، لاسيما الشعر، أثر كبير في نشأت الشعر الاوربي الحديث في اسبانيا وجنوب فرنسا ويأتي تاثير الزجل والموشح بالدرجة الأولى، وأول من ابتكر الموشح هو مقدم بن معافي القبري (ت : 299 هـ / 912م) ثم تلاه شعراء أخرون أمثال الأعمى التطيلي وأبو بكر بن اللبانة، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم، حيث وجدوا هؤلاء الشعراء أنفسهم مضطرين الى نظم هذه الموشحات لأنهم كانوا يعيشون في مجتمع يميل الى كا ما هو شعبي وادى ذلك الى ظهور الزجل الذي اشتهر به محمد بن عبد الله بن قزمان (ت:554هـ/1159م) [85].

وهذان النوعان من الشعر هما اللذان أثراً في نشأة الشعر الاوربي، كما يروي المستشرق الاسباني(خليان ريبيريا) الذي درس موسيقى الاغاني الاسبانية ودواوين الشعراء (الترو بادور) وهم الشعراء الجوالة في العصور الوسطى باوربا وكلمة تريادور ماخوذة من الكلمة العربية (دور طرب) و(المنيسجر) وهم شعراء الغرام، كما اثيت انتقال بحور الشعر الاندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية وآدابها وتقاليدها والاتها إلى أوربا(86).

وأثرت القصص العربية على نشاة الأدب القصصي في أوربا فقد قام (بدرو الفونسو) بترجمة ثلاثين قصة من العربية الى اللاتينية تحت عنوان (تعليم العلماء) وقد أترث كليلة ودمنة في الأدب الأوربي بعد أن ترجمت في عصر (الفونسو الحكيم) حوالي عام 1250م إلى الاسبانية كما ترجمت بعض القصص التي تسربت من الف ليلة وليلة إلى الأندلس ومنها حكاية (الجارية تودد) التي ترجمت الى الاسبانية في قرن الثالث عشر، وأثرت بعد ذلك في نتاجات كبار أدباء المسرح الاسباني، وبذلك احتل كتاب الف ليلة وليلة مكانة مهمة في تاريخ الادب الغربي (87). ولم تظهر الترجمة الكاملة لهذا الكتاب إلا في اوائل القرن الثامن عشر حيث ظهرت اولا باللغة الفرنسية ثم بسائر اللغات الأوربية (88).

وحينما نقلت أوربا العلوم الإسلامية، ودرستها في جامعاتها التي لم تظهر إلى مؤخراً كجامعات باريس وموتبليه لم تظهر قبل القرن الحادي عشر الميلادي، وجامعات فينا وبيزا ظهرت في القرن الرابع العشر الميلادي، فإنه بلا شك قد تأثرت هذه الجامعات ببعض تقاليد الجامعات العربية، وبخاصة الاندلسية، فقد قلدتها في لبس الادرية الخاصة بالأساتذة، وقلدتها في منح الإجازات الجامعية (إجازة تدريس كما ان نظام المعيدين، ووجود أساتذة مشهورين يدرس الطلبة على أيديهم هو نظام إسلامي، ويقول البعض أن لفظة بكالوريوس إلا تحريفاً للعبارة العربية، حق الرواية، أي حق التعليم بتخويل من الغير)(89) .

وننهي كلامنا عن بحثنا المتواضع، باعتراف واحد من مجموعة من المستشرقين الذين يقرون بدور العرب المسلمين واثر حضارتهم في اغناء وتطور الفكر الأوربي فيقر مونتيكري واط بالقول: (لولا العرب وفكرهم وكتاباتهم ماكانت العلوم والفلسفة الأوربية قد تطورت إلى ما وصلت اليه،فلم يكن العرب مجرد موصلين للفكر الاغريقي، بل كانوا ناقلين عباقرة لها، حفظوا المعارف التي تعلموها حية، ووسعوا في ميادينها، وكانت هذه العلوم قد وصلت قمتها عندما بدا اهتمام الأوربيين جديا بحدود 1100م بتعليم فلسفة وعلوم اعدائهم العرب، كما كان على الأوربيين أن يتعلموا جميع ما يتمكنوا عليه من العرب قبل ان يحققوا تقدما اكبر بأنفسهم [90].

الهوامش:

محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1981)، ص10.

كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب (بغداد، الدار الوطنية للتوزيع، 1984):13/1-20.

محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي الى الغرب (دمشق، دار النفائس، 1999، ص100).

غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر(بيروت1979) 529، 530، خليل ابراهيم السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي (الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1986) ص383.

جلال مظهر، حضارة الإسلام واثرها في الترقي العالمي (القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974). ص486.

مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم، عند العرب، ص14.

مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في اوربا عبر الأندلس، الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس،(بيروت،دار الرشاد،1969) تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999): 1478/2، وقارن: عبد الرحمن علي الحجي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص22-24.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (القاهرة، 1960):457/2-460 ،0 عبد الرحمن الحجي،الحضارة الاسلامية في الاندلس،ص27-28.

ينظر: ابن ابي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس (الرباط، دار المنصور للطباعة، 1972). ص203.

عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978)، ص347.

محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الاندلس الاسلامية (بيروت، دار العرب الاسلامي، 1988): 29/1.

محمود الجليلي، تأثير الطب العربي في الطب الاوربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 32، الجزء 3 ، 4، ،1981 ،ص188. وينظر محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي الى الغرب، ص23 -24.

*- كان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر واجناس مختلفة، مسلمة ، ضمت العرب الفاتحين، والمسالمة او الأسالمة وهم الاسبان الذين دخلوا الاسلام بعد الفتح، والمولدين من ابناء الأسالمة وهم الاسبان الذين ولدوا من اباء عرب مسلمين وامهات اسبانيات، وقد ازداد هؤلاء عددهم بالتدريج حتى اصبحوا يكونون معظم سكان الاندلس. وغير مسلمة من اصحاب الديانات الاخرى النصارى- اليهود- عاشوا جميعهم في مجتمع يضلله التسامح التام-والاعتبار فيه للكفأة والمؤهلات ولذلك ظهرت في اصحاب هاتين الديانتين مفكرون وعلماء وسفراء، ونشأت طبقة من نصارى الاندلس تسمى بـ(المستعربين) احتفظوا بديانتهم النصرانية، وتعلموا اللغة العربية وتثقفوا بالثقافة الإسلامية.

محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي الى الغرب، ص26.

مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.

السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص384.

جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص497، جوزيف رينو، تاريخ غزوات العرب، ترجمة وتعليق: شكيب ارسلان (بيروت، 1966)، ص296.

خليل ابراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (بنغازي، دار المدار الاسلامي، 2004) ص477، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص49 50، جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص497.

المرجع نفسه، ص501، 502.

زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي (بيروت، منشورات المكتب التجاري، د.ت)، ص140، خليل السامرائي واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص477.

المرجع نفسه، ص477.

محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي الى الغرب، ص27.
السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص386، السامرائي واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، 477، 478.
سليم طه التكريتي "اوربا ترسل بعثاتها الى الاندلس"، مجلة الوعي الاسلامي، العدد 37 (الكويت: 1968)، ص90 وما بعدها (نقلاً عن السامرائي وأخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، 477، 478.)
سليم طه التكريتي، اوربا ترسل بعثاتها الى الأندلس، ص90 (نقلاً عن السامرائي واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص478).
السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص386- 387.
المرجع نفسه، ص387.
المرجع نفسه، ص387، وينظر: عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص58.
مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية في الاندلس: 1487/2.
لطفي عبد البديع، الاسلام في اسبانيا، (القاهرة، 1961)، ص30، 31،مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.
سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنية الاسلامية وأثرها على اوربا (القاهرة، 1963)، ص184، مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.
عبد الرحمن الحجي، الحضارة السلامية، ص33.
إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا (بيروت، 1978). ص307، السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص174.
ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنئر،1979): 142/4،
المقري، نفح الطيب، تحقيق: احسان عباس (بيروت، 1968):364/1.
ابن خلدون، العبر: 142/4.
المصدر نفسه: 143/4.

ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال (بيروت، دار الثقافة، 1980): 215/2.
احمد بدر، تاريخ الاندلس، (عصر الخلافة) (دمشق،1974)، ص139، عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس (بيروت، 1972): 166/2.
المقري، نفح الطيب:1 /566، وينظر السامرائي واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص175 - 158.
عبد الله عنان، دولة الاسلام في الاندلس: 457/2.
المرجع نفسه:457/2.
احمد بدر، تاريخ الاندلس، ص142، وينظر: السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص176، 177.
ابراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، ص312، مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية في الاندلس: 1478/2.
للمزيد من التفاصيل: ينظر: السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر، ص384-388، مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية في الاندلس:1478/2.
تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة من العربية، في القرون الوسطى في اسبانيا، ترجمة: عمران ابو حجلة، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،1999): 1442/2.
عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي (بيروت: 1979)، ص7.
جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص523، دي سي ، اوليري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة: اسماعيل البيطار (بيروت: 1972)، ص234.
تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية: 1457/2.
المرجع نفسه: 1457/2، جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص523.
تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية: 1458/2،1457.
عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص8 ، 9.
تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية: 1458/2، 1459.

المرجع نفسه: 1458/2.

المرجع نفسه: 1458/2،عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص، 10.غوستاف لويون، حضارة العرب، ص677.

تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية، في الاندلس: 1462/2، 1464.

جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص524، عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص10، هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص126وما بعدها.

المرجع نفسه، ص78.

السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص402.

حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1977)، 148.

تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية في الاندلس: 1450/2، خوان فيرنيه (العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الاندلس)، الحضارة العربية في الاندلس: 1319/2، مونتيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا في العصور الوسطى، ترجمة عادل نجم عبو، (الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1982)، ص59.

تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية، في الاندلس: 1467/2.

مونيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا،ص59، خوليو ساموا، (العلوم الدقيقة في الاندلس)، الحضارة العربية في الاندلس: 1316/2.

المرجع نفسه: /1342،1343.

جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص53، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص42.

تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية في الاندلس: 1335/2،1444.

المرجع نفسه: 1444/2 ، 1445، 1467،عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص19،السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص403، 404.

تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية في الاندلس: 1457/2.

خوليو ساموا، العلوم الدقيقة، الحضارة العربية في الاندلس: 1324/2.

عاشور، فضل العرب على الحضارة الاوربية، ص45، عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة العربية في العصور الوسطى (القاهرة، 1978)، ص288، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص403.

تشارلز بيرنيت، حركة الترجمة، الحضارة العربية في الاندلس:/1466، مونتيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا، ص60-63.

حسني احمد، الحضارة العربية (د.م، د.ت)، ص88، مونتيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا،ص63.

خوان فيرنيه، العلوم الفيزياوية، الحضارة العربية في الاندلس:1300/2.

المرجع نفسه،2 /1305.

السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص401.

حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص276.

حسني احمد، الحضارة العربية، ص91.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ص30، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص394، مونتيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا، ص68.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص31،مونتيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا،ص110,

المرجع نفسه، ص111، دي لاسي اوليري، الفكر العربي، ص241، وما بعدها. السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص395، 396،ميغيل

كروز هيرنانديس، الفكر الاسلامي في شبه الجزيرة العربية، الحضارة العربية في الاندلس: 115/2.

مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية في الاندلس: 1479/2.

حسني احمد، الحضارةالعربية، 97، 98، مونتيكمري واط، تأثير الاسلام على اوربا، ص111.

الغزالي، احياء علوم القرأن (القاهرة،1939): 366/3،365،.السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص398.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص49 وما بعدها.

شاخت بوزورث، تراث الاسلام، ترجمة: حسين مؤنس وأخرون (الكويت، 1978): 276/2.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص25-27، السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص397، 398.

المرجع نفسه، ص404، 405.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص14، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص40.

عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص16، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص40

السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص408.

المرجع نفسه ،ص404، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص48.

تأثير الاسلام على اوربا، ص68 ،69.

الفصل التاسع تطور العلاقات بين الدول من (دار إسلام ودار حرب) إلى (دار استجابة ودار دعوة)

في عصر المنظمات الدولية.

شهد تاريخ العلاقات الدولية حروباً لبواعث شتى، فثم من قاتل في سبيل الله تعالى ولرفع الظلم عن المستضعفين، وهناك من قاتل في سبيل الطاغوت، ولتكون أمة هي أربى من أمة، وذلك بسيطرة القوى على أرض الضعيف، واستغلال ثرواته والتحكم باقتصاده، ونيل الغنائم بأشكالها المتعددة.

ومن جانب آخر فقد كانت بعض الدول تتخذ المعاهدات، وسيلة للخداع والسيطرة، أو لفرض القوي شروطه على الضعيف لإبقائه في حالة الضعف، وقد ذكر القرآن صوراً من ذلك في معرض النهي فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)﴾ [سورة النحل: الآية 92]

وفي ظل هذا الواقع ظهرت مناهج متنوعة، ومتعددة لدراسة العلاقات الدولية، وقد سادت وجهة نظر تعرف باسم المدرسة الواقعية، وأهم أفكارها:

إن القانون الذي يحكم العلاقات بين الدول هو صراع القوى[1] ، وإن استخدام الدول القوية لقوتها هو ضمان لاستقرار العالم[2].

2- دونالد ج.بيوشـالا :النظرية والتاريخ في العلاقات الدولية 24 /2004/5 www.albayan.com، رسـلان :أحمد فؤاد ،نظرية الصراع الدولي ،دراسة في تطور الأسرة الدولية المعاصرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1986 ،ص:9

2 - -جون بالمر بتاريخ 2004/7/26 www.aljazeera.net.

إن السياسة الدولية لا توصف بأنها أخلاقية ولا بأنها غير أخلاقية؛ لأن مفاهيم العدل، والمساواة، والحرية، لا تنطبق بشكل صحيح إلا ضمن الدولة وبين أفرادها ومواطنيها، أما العلاقات بين الدول فليس للقيم والأخلاق دور كبير فيها, وعليه فإن السعي وراء توازن القوى تكون له الأولوية على السعي وراء العدالة والمساواة أو حقوق الإنسان.[1]

أن الدول تتحدد سياساتها عملياً بناء على مصلحتها وفقاً لمبدأ توازن القوى، ثم يطلب بعد ذلك إلى خبراء القانون الدولي ترجمة ما اتفقت عليه الدول إلى نصوص رسمية ومعاهدات او اتفاقيات مكتوبة، وتأخذ الأمم المتحدة علماً بذلك. وتؤدي الاتفاقيات إلى إنشاء قواعد جديدة في القانون الدولي، لم تكن موجودة من قبل[2].

وقد أدى الصراع الحربي بين الدول إلى كوارث إنسانية مما دفع إلى الدعوة لتقييد استخدام القوة الحربية في أضيق مدى، وفي نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ظهرت محاولات دولية جادة لضبط استخدام القوة الحربية كوسيلة لحل النزاع بين الدول، وتمثل ذلك بمؤتمر لاهاي عام 1907، والذي دعا إلى ضبط استخدام القوة ولم يضع نظاماً إجبارياً لتنظيم هذه العلاقات وإنما تركها لاختيار الدولة المعنية، وتلاه إنشاء عصبة الأمم عام 1919، والتي أقرت بعدم مشروعية الحرب العداونية، ثم أقر ميثاق الأمم المتحدة عام 1945بعد ذلك، وكان من أهم ما قرره ميثاق ألأمم المتحدة منع استخدام القوة المسلحة في العلاقات الدولية، وفتح المجال للتعاون الدولي وتفعيل دور المنظمات الدولية[3].

1- أنظر مصطفى، نادية، ماهي العلاقات الدولية، بتاريخ 2004/5/24 www islam on line net، دونالد ج.بيوشالا :النظرية والتاريخ في العلاقات الدولية 24 /2004/5 www.albayan.com، رسلان، نظرية الصراع الدولي ، ص:11

2- نصور: أديب: ميزان العلاقات بين الدول ،the balance of power ،جامعة قار يونس ،بنغازي، ط:1991،ص:11-13

3- منصو، علي: الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، 1965، ص:68

ورأى عدد من الباحثين ضرورة إعادة النظر في مناهج الدراسات الدولية مبررين موقفهم بأن المدرسة الواقعية المستندة إلى صراع القوى لا تصلح لتفسير العلاقات الدولية بعد نشوء المنظمات الدولية وظهور فاعلين جدد في العلاقات الدولية، فظهرت المدرسة المثالية وترى هذه المدرسة أنه لا يمكن أن تنتظم العلاقات بين الدول إلا إذا كان هناك قانون دولي ينظم هذه العلاقات ويمنع اعتداء الدول الكبيرة على الدول الصغيرة [1].

وفي المقابل فإن أصحاب المدرسة الواقعية، المستندين إلى فكرة صراع القوى، كقانون يحكم العلاقات الدولية، يرون في القانون الدولي غطاء يغلف به صراع القوى، لأن الاحتكام للقانون الدولي يكون عند توازن القوى، إذ في حالة غياب توازن القوى فإن القوي قادر على انتهاك القانون الدولي، لأنه قوي، وهو آمن من العقوبة، مستنداً إلى قوانين الطبيعة القائمة على أن البقاء للأقوى وأن القانون يشرع لما هو باق؟[2]

هذه النظرة التي تنتمي إليها المدرسة الواقعية تذكر بمقوله هوبز: الإنسان ذئب أخيه الإنسان[3] وهي تمثل أشد صور الصراع قسوة في ظل غياب القيم الأخلاقية الموجهة لنشاط الدولة الخارجي هذا، ومما يتميز به المنهج الإسلامي في تعامله مع العلاقات الدولية أنه جمع بين المثالية والواقعية في الوقت ذاته، ففي فترات الحرب والصراع الفعلي وضع الإسلام أحكاماً لحماية المدنيين، فمنع قتلَ الأطفالِ والنساء والرهبان[4]، وأجاز الهدنة مع المحاربين، كما أعطى للمحارب حق أخذ الأمان لسماع كلام الله [5]، ولم يكن حقُ الأمان الذي يعطى للمحارب استناداً لتوازن القوى، وإنما كان استناداً لقوة القانون المستند إلى الشريعة ذاتها.

1 - دونالد ج.بيوشالا: النظرية والتاريخ في العلاقات الدولية www.albayan.com.

2- نصور، أديب، ميزان الدول، 1991، ص: 9

3 دونالد ج.بيوشالا :النظرية والتاريخ في العلاقات الدولية www.albayan.com.

4- السرخسي: المبسوط: ج:10: ص:5، الطبري، دار المعارف، محمد بن جرير، تفسير الطبري، ج26: ص:24 .

5- أبو زهرة : محمد، العلاقات الدولية في الإسلام، الدار القومية،1964، ص:112 –114.

وهذا مظهر للمثالية في العلاقات الدولية والالتزام الأخلاقي في جانب العلاقات الدولية. كما أن الفقه الإسلامي أجاز إقامة علاقات تجارية مع غير المسلمين في بلدهم؛ وإن من شأن التبادل التجاري أن ينشئ علاقات مشتركة، ومصالح مشتركة تخفف من احتمالية اللجوء للحرب كوسيلة لحل النزاعات، وتعزز من احتمالية حل النزاع بالوسائل السلمية، بل إن أصحاب المدرسة الليبرالية ذهبوا إلى رفع شعار (التجارة الحرة ستفضي إلى السلام) [1] وكل هذا مظهر للمثالية في العلاقات الدولية من وجهة نظر إسلامية.

وفي الوقت نفسه فإن المنهج الإسلامي كان واقعياً في تعامله مع أعدائه إذ طلب من المسلمين الاستعداد كما في قوله تعالى: ﴿. وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنفال: الآية 60] وقوله سبحانه:. وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً..﴾ [سورة النساء: الآية 102] وقوله سبحانه: ﴿.. فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية 194]

أي أزيلوا عدوانه لأن إزالة العدوان، وإزالة آثاره حق لله تعالى، لما يترتب على ذلك من عدل دولي ونفع عام ، وهذا هو حق الله تعالى في إزالة العدوان [2] ومن مظاهر المثالية والواقعية في نظرة الفقه الإسلامي لطبيعة العلاقات الدولية بين الدول أن الشرع الإسلامي شرع المعاهدات بين الدول ولكنه قيدها في الوقت نفسه بقيم أخلاقية كما يتضح بالنظر في بنود الصحيفة النبوية المؤسسة لأحكام الدولة الدستورية والخارجية فقد جاء فيها: "وأنه لا يسالم مؤمن دون مؤمن إلا على سواء وعدل بينهم[3]" ومعنى السواء هنا الاتفاق الذي يقبله جميع المسلمين، ومن مستلزمات العدل ألا تتضمن المعاهدات انتقاصاً للحقوق المقررة شرعاً[4]

1- جيمس لي ري، الحروب في العالم: الاتجاهات العالمية ومستقبل الشرق الأوسط ،مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 1998، ص: 9

2 - الدريني ،فتحي ،خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم،مؤسسة الرسالة بيروت، 1982، ص:36

3 - حميد الله : محمد مجموعة الوثائق السياسية : ص:60

4- الدريني ،فتحي ،خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم:355

وإن هذه المفاهيم الإسلامية الدولية التي جمعت بين المثالية والواقعية في آن، تصلح أساساً لعلاقات دولية تحفظ السلم العالمي، مثلما تحفظ للإنسان كرامته وحقوقه منتصراً كان أم غير منتصر [1].

ويبقى هناك إشكال يحتاج إلى بحث ودراسة ،وهو تقسيم فقهاء المسلمين قديما للبلاد إلى دار إسلام ودار حرب، هل يعني أن الحرب هي الأداة المثلى التي تتبناها الدولة في تحقيق سياستها الخارجية؟ وإذا لم تكن الحرب وسيلة متعينة لتحقيق الدولة لسياستها الخارجية، فما هي التسمية الصحيحة لتقسيم بلاد العالم؟ ومما يجدر الالتفات إليه أن التطور المعاصر في العلاقات الدولية لم يعد يجعل الحرب هي الأداة الوحيدة في العلاقات الخارجية. وإن الدولة المسلمة تملك عدداً الأدوات التي يمكن أن تستخدمها لتحقيق سياستها الخارجية سوى الحروب، ومن هنا ظهرت دراسات جديدة تتبنى إعادة النظر في مفهوم دار الحرب.

وفي سبيل تجلية موقف الفقه الإسلامي قمت بدراسة تطور العلاقات بين الدول من (دار إسلام ودار حرب) إلى(دار استجابة ودار دعوة)في عصر المنظمات الدولية.كما أصل لها الفقهاء من المحدثين والسابقين.

وقد جاء البحث في ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: طبيعة العلاقات الممكنة بين الدول وأثرها في سياسة الدول الخارجية

المسألة الثانية: عهد المنظمات الدولية وأثره في تحديد طبيعة العلاقات بين الدول.

المسألة الثالثة: نظرة الفقهاء المعاصرين إلى العالم وتقسيم بلاد العالم إلى: (دار استجابة ودار دعوة)،في مقابل(دار إسلام ودار حرب) عند السابقين من الفقهاء .

1- الكيلاني ، عبدالله ، القيود الواردة على سلطة الدولة في الإسلام وضماناتها ،عمان ،دار البشير ،1997 ص: ، 41 ويتضح هذا بالنظر في حقوق المدنيين والأسرى في فترات الحرب في الفقه الإسلامي مما لا مجال لسرده هنا.

المسألة الأولى: طبيعة العلاقات الممكنة بين الدول وأثرها في سياسة الدول الخارجية:

يقول الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحُجُرات: الآية 13] وفي هذا تقرير لمبدأ عقَدي، وهو وحدةُ الأصل الإنساني؛ بما يستلزم تحقيق العدل بين البشر بشكل موضوعي، لا يختلف من جنس إلى جنس استناداً إلى وحدة الأصل الإنساني.

وتحقق بذلك فتح السبل لتلاقي الثقافات في بناء الحضارة الإسلامية، وكان من آثار هذا التعاون روائعُ الحضارات سواء في جانب الفكر أم في جانب المدنية.

فروائع الخالدات في المعمار الإسلامي كالمسجد الأموي في دمشق ومسجد غرناطة، وروائع الفكر المتنوع من ظاهرية ابن حزم إلى الفكر المقاصدي عند الشاطبي، وراء كل ذلك نصوص الشريعة التي فتحت المجال لتلاقي الشعوب والقبائل وبناء حضارة متنوعة الأعراق، فكان تنوعها سبباً في تميزها[1].

والإسلام إذ يلغي أسباب التمايز بين البشر؛ فإنه يلغي أسباب استعلاء شعب على شعبٍ، أو دولةٍ على دولةٍ كالنظريات الملفقة التي سادت في القرن الثامن عشر، مثل رسالة الإنسان الأبيض التي سادت في القرن الثامن عشر. في غرب أوروبا، بتثقيف الشعوب الجاهلة في آسيا وإفريقيا وهي في حقيقتها رسالة الاستعمار في عهد انفجار الثورة الصناعية في أوروبا وحاجتها لفتح أسواق جديدة وامتلاك المواد الخام بأسعار زهيدة [2]!

ومثلها رسالة(على أي أساس نتقاتل)[3] التي وقعها ستون مثقفاً من اليمين الديني المتطرف في أعقاب أحداث2001/9/11 في الولايات المتحدة، وتعد قيام الولايات المتحدة بشن حربها على المشرق الإسلامي مبرراً أخلاقياً، ويروج لفكرة الصراع عدد من المفكرين في الغرب من أبرزهم صامويل هاتنجتون صاحب فكرة صراع الحضارات، والتي خلاصتها: إن الصراع في القرن القادم لن يكون بين القوميات، ولا على أساس اقتصادي وإنما بين الثقافات، وإن الثقافة المرشحة لصراع الحضارة الغربية هي الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشية في الصين،

1- ابن عاشور: محمد الفاضل: روح الحضارة الإسلامية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1992 ، فرجينيا ص:35 –38 .
2- خضير: عبد الكريم: الوسيط في القانون الدولي العام (المنظمات الدولية) الدار العلمية، عمان ط: 2002: ص:10
3- www. Americanvalues.org

وعليه فإن على الغرب المبادرة لإحداث تغييرات في خريطة المنطقة تضمن تغيير هوية المنطقة المنتمية لحضارة مغايرة بما يتناسب مع المصالح الغربية،كمساندة الجماعات المتعاطفة مع القيم الغربية واتباع سياسة تسعى للمحافظة على التفوق العسكري للغرب في شرق وجنوب آسيا![1]
وهناك وجهتا نظر سائدتان في دراسة العلاقات الدولية، عبر ما يزيد على نصف قرن، وهما النظرة الواقعية للعلاقات بين الدول، والنظرة الليبرالية المثالية.

وبحسب النظرة الواقعية فإن العلاقات بين الدول تقوم على أساس الصراع والمنافسة، وأن الأصل هو أن الدول في حالة تهديدٍ متبادلٍ مستمرٍ[2].
وبالمقابل فتؤمن المدرسة الليبرالية أو المثالية بوجود قيم مطلقة للخير والشر، لا تختلف باختلاف الدول، وبهذا المعنى فالمثاليون يقتربون من النظرة الإسلامية التي تدعو إلى التزام العدل حتى مع الأعداء كما في قوله تعالى: ﴿. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى . ﴾[3]

فإنها ترى من الممكن أن تكون العلاقات بين الدول قائمة على أساس التعاون ضمن شروط أهمها:
وجود حكومات ديمقراطية.
وتعاون اقتصادي.
ومنظمات تعاون دولي.
وركزت على أهمية تطوير قيم أخلاقية للسلوك تعتمد على القانون[4]. ويظهر أن الولايات المتحدة اليوم تتحكم بها النظرة الواقعية وإن غلفتها بالنظرة الليبرالية[5].

1- عبد الحميد: عرفان ، مجلة الندوة ، مقال صراع الحضارات،كانون ثاني 1995، ص:18
2- مصطفى، نادية محمود،العلاقات الدولية في الإسلام ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،القاهرة ،ط 1996، ج1:ص:86 .
3 - (المائدة: من الآية8)
4- مصطفى، نادية محمود، العلاقات الدولية في الإسلام، 1996، ج1:ص:86.
5- نقرش: عبد الله، المستقبل العربي،عدد 12: 2002، مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان، ص: 9.

وفي هذا المعنى يقول جوي بالمر مدير المعهد الأوروبي للدراسات السياسية (أعتقد أن أهم خلاف يتعلق بالنظرة للحكم العالمي بين الولايات المتحدة ودول أوروبا أن الأمريكين يعتبرون قوتهم الخارقة ضامناً للا ستقرار. في العالم بينما يرى الأوروبيون أن وجود مؤسسات دولية تخضع لرقابتها الدول جميعا بما فيها الدول الكبرى هو الضامن للاستقرار[1]). وأصحاب المدرسة الواقعية يقسمون الواقعية إلى قسمين:

الواقعية الدفاعية:ويسمون بال((post classical neorealism) وهي التي لا تؤمن بوجود تهديد فعلي مالم يكن محتملاً فعلاً.

الواقعية العدوانية ويعرفون بال(Neorealism) و بحسب النظرة الواقعية فإن مجرد وجود قوة أخرى يشكل تهديداً بحد ذاته.

إن الوصول لمنهج يفسر المؤثرات التي توجه السياسة الخارجية لدولة ما هو ضرورة لنكون من هذه السياسات على بصيرة فنعرف كيف نتعامل معها. وإن المدرسة الواقعية، وإن كانت متبناة من قبل بعض السياسيين، إلا أنها لا تساعد على تفسير السياسة الخارجية للدول، لأن القيم والأخلاق التي يؤمن بها الإنسان لها دور في توجيه سلوكه وهو ما أغفلته المدرسة الواقعية.

وتمثل المسالة موضوع الدراسة منهجيةً مغايرة للمناهج السابقة، وقد انتهجها علماء المسلمين في دراسة العلاقات بين الدول جمعت بين الواقعية وبين المثالية في تعاملها مع الدول وهذا المنهج هو ما تنادي به المدارس الحديثة في دراسة السياسات الخارجية.

هذا، و يرى الباحث أن للفقه الإسلامي نظرتَه لأسس العلاقات الممكنة بين الدول، وشروط تحقيق ذلك، من ذلك ما حكاه القرآن الكريم في سورة الكهف من سيطرة القوي على الضعيف﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [سورة الكهف: الآية 94] وترى في القصة نماذج متعددة للعلاقات بين الكيانات البشرية:

1- جون بالمر بتاريخ 2004/7/26 www.aljazeera.net.

الأنموذج الأول: الاعتداء، والسلب، والنهب الذي يفرضه القوي على الضعيف، ومثاله يأجوج ومأجوج المفسدون في الأرض. الأنموذج الثاني: وسيلة الأمم المستضعفة لرفع الاستضعاف وذلك بالاستعانة بقوة لها ثقل دولي لقاء مبلغ مالي تدفعه، وتمثل في القصة بالعرض الذي عرضه المستضعفون على ذي القرنين الذي كان يمثل قوة ذات أثر دولي كما تدل النصوص.

الأنموذج الثالث: وهو الموقف الرباني الذي تعرضه سورة الكهف كمخرج للأمم المستضعفة من تسلط، ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [سورة الكهف: الآية 95]

وفي الآية شرطان للتخلص من الاستضعاف:

الأول: التوجه إلى الله تعالى والاعتماد عليه، إذ الخير بما مكنك فيه ربك.

والثاني: فأعينوني بقوة ، وذلك بالاعتماد على الذات والبحث عن الخصائص الفيزيائية للمواد لتوليد القوة المضاعفة من صهر المواد ببعضها، وهذا ما ينبئ عنه قوله سبحانه: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾

[سورة الكهف: الآية 96]

وترى في قصة يأجوج ومأجوج نقداً لأشكال الاستعمار التي عرفها التاريخ الإنساني وهي:[1]

الشكل الأول: وهو الاستعمار التقليدي الذي يقوم على أساس الاحتلال، والنهب، والسلب، والسرقة لمصالح الآخر. ومثاله الصهيونية في فلسطين، وسرقة الاستعمار البريطاني، والبرتغالي، والإسباني لثروات العالم إبان القرن التاسع عشر.

الشكل الثاني: الاستعمار الحديث وهو سيطرة الدول الكبرى على الدول المستضعفة والهامشية اقتصادياً عن طريق أخذ الثروات الخام من تلك البلاد بأجور مخفضة، واحتكار حق استيرادها.

والشكل الثالث للاستعمار: هو السيطرة على ثروات البلاد من خلال الشركات متعددة الجنسيات.

وترى في الأنموذج المقترح من قبل ذي القرنين أسلوباً جديدا للعلاقات بين الدول لا يقوم على أساس الهيمنة، وإنما على أساس التعاون الدولي الذي تبذل فيه كل الأطراف جهودها محققه معنى قوله سبحانه (فأعينوني بقوة) لمحاربة قوى الفساد والتدمير المتمثلة بيأجوج ومأجوج الذين يتسلطون على الأمم المستضعفة، فينهبون ثرواتها.

1- مصطفى، نادية، مشروع العلاقات لدولية ،ج:12، ص: 19 .

فحين يعرض المستضعفون على ذي القرنين أن يجعلوا له خرجا ليوفر لهم الحماية فإنه يعتذر عن قبول العرض ويقدم إنموذجا جديداً لا يضطر فيه الضعيف للتنازل عن جزء من ثروات بلاده تحت مسمى (الخرج) في مقابل نيل الحماية ، وإنما ينال الضعيف أمنه من خلال إعانة القوي له على استقلال إرادته وإرشاده إلى أسباب القوة.

وهذه النظرة الإسلامية لأساس العلاقات بين الدول هي في نظري المخرج لأزمة الإنسانية؛ إذ عانى الإنسان دهراً من تعدد أشكال التسلط، إن في صورة استعمار مباشر، أو مغلف كما بينت سابقاً.

وفي سبيل تحقيق النظرة القرآنية لطبيعة العلاقات الممكنة بين الدول على أساس التعاون،والتشارك،لا بد من امتلاك (القوة). والقوة في علم السياسة (power) مصطلح ذو دلالات عميقة يعني مقدار قوة الدولة على ممارسة مصالحها[1] بما يتسع للقوة الدبلوماسية، والاقتصادية، العسكرية، ومن العوامل الفاعلة في قوة الدولة جغرافية الدولة.

ومن تأمل في حال دول الوطن العربي، والأمة الإسلامية، يدرك بوضوح أن الدولة القطرية اليوم عاجزة عن حماية أمنها الوطني مهما كانت قوتها العسكرية، أو حماية ثروتها مهما كانت طاقتها البشرية أو رقعتها الجغرافية[2] وهذا يستدعي إحياء مفهوم دار الإسلام كصيغة وحدوية لحماية أمننا، بل وحماية السلم العالمي، في عصر القطب الأوحد، وتحقيق الرؤية القرآنية للسلم العالمي والعلاقات بين الدول.

المسألة الثانية: عهد المنظمات الدولية وأثره في تحديد طبيعة العلاقات بين الدول:

كان من آثار طغيان الإنسان، أن رآه استغنى بقوة دمار شامل، الحروبُ العالميةُ الأولى والثانية، وهي النتيجة الطبيعية للمنطق الاستعلائي القائم على أساس أن القوة حق (might is right)ونظراً لفداحة الخسارة شعر الإنسان بضرورة تنظيم استخدام القوة بقانون ليصبح الحق قوة، وذلك من خلال المنظمات الدولية،وكانت فكرة وجود منظمة دولية هدفاً قديماً تجد جذورها في فكر الفارابي[3]. إذ يرى الفارابي

1- صالح: حسن عبد القادر، المظهر الجغرافي لقوة الدولة ط1976، الأردن، ص:3 ، نصور، أديب: ميزان الدول: 148.
2- صحيفة الرأي الأردنية، السبت 1996/2/24، ص:21، تحليل أخباري.
3- خضير: الوسيط في القانون الدولي العام (المنظمات الدولية) ص:11

وهو من علماء القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، أن سعادة الإنسان إنما تكون بالاجتماع في مدينة فاضلة، وكلما زاد عددُ المجتمعين زاد حصول السعادة شريطة تعاون أفراد هذا الاجتماع على عمل الخير، وإن أكمل اجتماع إنساني هو ذاك الذي يجمع كل أمم الأرض[1] وقد اقتبس هذه الفكرة أمين عام الأمم المتحدة سابقا بطرس غالي في خطبة له أمام الأمم المتحدة في الثالث من كانون الاول عام 1991 جاء فيها: "إن أعظم الأحلام هو الحلم برابطة الأمم الفاضلة "[2].

وتعد فكرة الفارابي هذه تطويرا على فكرة أفلاطون وفلاسفة اليونان المتأثرين بكتاب المدينة الفاضلة ؛ ذلك أن اليونان قصروا فكرة المدينة الفاضلة على الأمم اليونانية في حين أن الفاربي قد ارتقى بهذه الفكرة لتكون رابطة للأمم كلها ، وتجاوز دولةَ المدينة عند أفلاطون إلى رابطة الأمم كلها[3]، ومرد ذلك لتأثر الفارابي بالفكر الإسلامي العالمي الذي جاء ليكون للناس كافة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة سبأ: الآية 28]

هذا وقد عرف العالم منظمة عصبة الأمم التي أنشئت في 28/نيسان عام 1919 كثمرة لعدة مشروعات دولية تهدف إلى استتباب الأمن وتنشيط التعاون بين الدول.

غير أن الذين أقاموا العصبة عاجلوا بوأدها في ساعة الميلاد، ذلك أن سياسات تلك الدول بقيت قائمة على أساس المصالح الذاتية للدول الكبرى والتي كان همها اقتسام ممتلكات ألمانيا وتركيا من بعد الحرب العالمية الثانية.

في أعقاب ذلك تم تشكيل هيئة الأمم المتحدة عام1945 لمنع قيام الحرب من جديد.[4] وقامت الأمم المتحدة على أساس يحابي مصالح الدول الكبرى بما منحها من حق النقض في مجلس الأمن بحيث تكون قرارات الأمم المتحدة وسيلة الدول القوية لفرض رأيها على الدول الضعيفة بالوسائل الدبلوماسية!

---

1 - عفاق ، قادة ،دلالة المدينة الفاضلة ، تاريخ 2004/4/8 www.awa_dom.org

2- Mostakbliat.com بتاريخ 200/4/8

3 - www muslimphilosphy.com بتاريخ 2004/4/8

4- خضير: الوسيط في القانون الدولي العام (المنظمات الدولية) ص:11.

غير إن إقرار ميثاق الأمم المتحدة، و ميثاق حقوق الإنسان، وإقرار حقوق الأقليات، فتح المجال للتعاون بين الشعوب على نحو لم يكن معهوداً من قبل وذلك من خلال وضع قانون دولي تناول:

قانون التنظيم الدولي: وهو قانون حديث يتناول المنظمات الدولية كعصبة الأمم، وهيئة الأمم، وجامعة الدول العربية.

القانون الدولي لحقوق الإنسان: ويسعى لحفظ حقوق الإنسان المتعلقة بكرامته الآدمية، من ذلك ما نصت عليه المادة التاسعة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان "من عدم جواز القبض على إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً" والمادة الحادية والعشرين لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حراً، وكذا حقه في إنشاء النقابات.

وقد رأى عدد من المفكرين المسلمين أن هذه القوانين تفتح المجال للمسلمين للعمل الدعوي في بلاد الغرب، وأن هناك مجالات واسعة للتعاون بين الدول في عدة مجالات، وأن هذا يستدعي تغيير التسمية القديمة للدول غير المسلمة بدار حرب في مقابل دار إسلام، واقترحوا تسميتها بدار عهد أو دار دعوة باعتبار أن هذه النظرة للعلاقات بين الدول هي الأليق بالنظرة الإسلامية كما يقررها القرآن، لدعوته إلى التعاون الإنساني كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحُجُرات: الآية 13] فالدعوة للتعاون بين الشعوب والأمم تستلزم الاعتراف بمصالح الأمم كلاً على استقلال، ولكن هذه المصالح الخاصة للدول لا يجوز أن تكون مناقضةً للمصالح العامة للإنسانية(1).

1- الدريني : فتحي :خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم :ص: 55.
الصوا: علي : نظام الإسلام، مؤلف بالاشتراك، ط: 1996،الأردن ص:301 .

وأما مجالات التعاون فتتمثل في:

أولاً: التعاون لمواجهة الإلحاد والانحلال: متمثلاً في التحلل الجنسي والشذوذ كما جرى تعاون الأزهر ورابطة العالم الإسلامي مع الفاتيكان الذين وقفوا في مؤتمر السكان في القاهرة عام 1994 ، وفي مؤتمر بكين سنة 1995، وقفة واحدة في وجه دعاة الإباحية؛ حماية للإنسان من الوصول إلى درك البهائم لاهثا وراء سعار الغرائز ونداء الهوى﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان: الآية43- 44]

ثانياً: مناصرة قضايا العدل والشعوب المستضعفة: مثل قضية فلسطين والعراق وكوسوفا واضطهاد الملونين في أمريكا وجنوب إفريقيا سابقاً ومساندة الشعوب المقهورة للتحرر من سيطرة المستكبرين ونجد شاهدا لهذا التعاون بموقف الرسول الكريم من حلف الفضول.

ثالثاً: إشاعة روح التسامح لا التعصب بين أهل الملل المختلفة: إذ إن الله تعالى وصف نبيه بأنه رحمة فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية 107] وذم على أهل الكتاب قسوة قلوبهم فقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.. ﴾ [سورة البقرة: الآية 74]

وإن تعميق الدراسات في بيان مجالات التعاون مع الدول الأخرى أصبح ضرورة ملحة لمواجهة حملات الكراهية التي توجه من بعض مراكز التفكير في الغرب ،المشار إليها سابقا ،كالترويج لفكرة صراع الحضارات التي تبناها صمويل هاتنغتون، ، وخصوصاً بين الحضارة الإسلامية والغربية وترشيحه،أي الإسلام، ليكون العدو البديل بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، وكما في وثيقة القيم التي نشرت من قبل معهد القيم الأمريكية[1]، (institute for amercan values)

1- www. Americanvalues.org

ووقع عليها ستون مفكراً أمريكياً من اليمين الديني المتطرف، بعنوان على أي أساس نقاتل، وتضمنت مفاهيم تدعو تجميع العالم اليهودي المسيحي لحرب العالم الإسلامي تحت شعار حماية قيم الخير التي ستمحو قيم الشر وقد قام بالرد عليها مائة وخمسة وسبعون مفكراً ومثقفاً سعودياً بعنوان على أي أساس نتعايش[1].

وأمام هذه المدارس الفكرية يتبين أن واجب الدارسين اليوم أن يبينوا أننا نريد من الغرب أن يتحرر من عقدة الحقد القديمة، وأن يتحرر من نظرة الاستعلاء التي يستبيح بها حصار شعوب مستضعفة وارتكاب جرائم إبادة بشرية على شعوب أخرى

كما أن من واجبات الباحثين أن يبينوا نظام الدول كما هو وعلى حقيقته وليس كما نتمنى أن يكون، لكي نكون على بصيرة في أمرنا في تعاملنا مع دول العالم ، وعسى أن يكون هذا البحث قد ساهم في تحقيق المقصود .

المسألة الثالثة: نظرة الفقهاء المعاصرين إلى العالم وتقسيم بلاد العالم إلى: (دار استجابة ودار دعوة)، في مقابل(دار إسلام ودار حرب) عند السابقين من الفقهاء.

تمهيد:

ذكر محمد رشيد رضا [2] في تفسير المنار أن اجتماعاً عقد في عصره تداول فيه مجموعة من العلماء مفهوم دار الإسلام ودار الحرب بعد انتهاء الخلافة وكانت الآراء تدور حول أربعة محاور:

الرأي الأول: و ذهب إلى التمسك بالنظرة الفقهية التقليدية عند جمهور الفقهاء والتي ترى كل دولة فتحها المسلمون وصار لهم فيها غلبة فهي دار إسلام، وسيأتي بيانها تفصيلاً،وعليه يجب على المسلمين أن يدافعوا عن كل شبر احتل من أرضها.

ومنهم من رأى ذلك متعسراً في ظل اختلال ميزان القوى لصالح القوى الغربية وخصوصاً بعد أن فككت الخلافة، وتناهبت الدول أراضيها في البلقان، وأصبحت فكرة توحيد وتحرير دار الإسلام في أوربا وآسيا بعيدة المنال، وعليه سعى مجموعة من المؤتمرين إلى ابتكار أفكار تتناسب مع الواقع على ما نفصله فيما هو آت.

1- المقال نشر عبر موقع www.islamtoday.net

2 رضا: محمد رشيد : تفسير المنار : ج: 10ص: 373 .وقد ذكر الآراء من غير أن ينسبها لأصحابها .

الرأي الثاني: ذهب إلى القول: إن دار الإسلام ما فتح في عهد الخلفاء الذين صحت خلافتهم كالراشدين والأمويين والعباسين، فتشمل الجزيرة العربية والبلاد العربية في آسيا وإفريقيا فعلى المسلمين صيانتها من الخضوع لسيطرة الأجنبي، وتخرج من مفهوم دار الإسلام على هذا التقسيم بلاد الترك والألبان والبوسنة مما فتح في عهد الدولة العثمانية، ثم تم تمليكها لغير المسلمين بقرارات دولية!

الرأي الثالث: إن دار الإسلام هي ما فتحت في عهد الخلفاء الراشدين فقط؛ لأنهم الذين نجزم بأنهم طبقوا قواعد العدل في العلاقات الدولية!

وعليه، تتناقص مسؤولية الأمة في حفظ سيادة أراضيها إلى أقصى قدر ممكن، ويصبح تحرير الأدنى هو الحد الأقصى!، ولا يخفى تأثر صاحب هذه الفكرة بالواقع أكثر من صدوره عن دليل .

الرأي الرابع: إن دار الإسلام قسمان: مهده ومشرق نوره، وهي الجزيرة العربية والثاني بيئة حضارته العربية ومظهر عدالته التشريعية وينبوع حياته الاقتصادية وهي سورية الطبيعية بما فيها فلسطين، والعراق العربي، حفظ الله

عروبته وإسلامه، ومصر وإفريقيا. وواجب المسلمين تجاه الجزيرة والعراق والشام أن يحافظوا على إسلامها ويمنعوا وصول الأجنبي إليها.

أما مصر فقد مال أهلها نحو القطرية وعدم الرغبة بالتوحد مع غيرهم، وعليه فإن محافظتها على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن هو الواجب المطلوب في حال تعذر المطالبة بأكثر من ذلك.

والواقع أن هذا الفقه متأثرُ بالهزيمة السياسية للمسلمين، ولا يصدر عن دليل هادٍ في التياث الظلم، وهو فقه يتخلى عن وظيفة الفقيه والمفكر في غياث الأمم ارتقاءً بالأمة من حالة الضعف مع الأخذ بالإمكان بأن التكليف لا يكون بغير الممكن، ولكن شتان بين أن يكون دور الفقه تسويغ الواقع المختل وبين أن يتعامل معه كواقع مختل لمعالجته وتجاوزه، وشتان شتان بين فقه الهزيمة وفقه الخروج منها!

وفيما يلي عرض لموقف فقهاء المذاهب الإسلامية من أقسام الدور وضابط ذلك:

يطلق الفقهاء لفظة(الدار) بما يقا بل الدولة في المصطلح السياسي المعاصر، ومن عبارات الفقهاء عن أقسام الدور في المصطلح الفقهي قول الكاساني الحنفي:" دار الإسلام: الدار التي تظهر فيها أحكام الإسلام [1]، وقال ابن عابدين: ودار الحرب تصير دار إسلام بإجراء أحكام الإسلام فيها.[2] وقال الدسوقي المالكي: دار الإسلام هي الدار التي تقام فيها شعائر الإسلام أو غالبها حتى وإن استولى عليها الكفار [3] وأما ما أخذوه من بلادنا بعد استيلائهم عليها بالقهر وقدرنا على نزعه منهم قبل أن يذهبوا به لبلادهم فإنه ينزع منهم، لأن بلاد الإسلام لا تصير دار حرب بمجرد استيلائهم عليها بل حتى تنقطع إقامة شعائر الإسلام عنها وأما ما دامت شعائر الإسلام أو غالبها قائمة فإنها لا تصير دار حرب، وقال ابن المرتضى الزيدي[4]: "ودار الإسلام ما ظهرت فيه الشهادتان، والصلاة ،ولم تظهر فيه خصلة كفرية إلا بجوارٍ، -والمراد بالجوار الذمة أو الأمان- وإلا فدار كفر .

تقسيم الفقهاء للبلدان:

يقسم جمهورُ الفقهاء من الحنفية والمالكية والزيدية بلادَ العالم إلى دار إسلام ودار حرب[5] ويزيد الشافعية والحنابلة [6] قسماً ثالثاً وهو دار العهد.

وأساس هذا التقسيم من حديث رسول الله ع إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين"[7] ومن الواضح في هذا الحديث أن الرسول قسم الدور إلى قسمين: دار الهجرة ودار غيرهم، التي أطلق عليها الفقهاء اسم دار الكفر، ودار الحرب.

1- الكاساني: البدائع:7:130.

2- ابن عابدين: ح اشية رد المحتار على الدر المختار : 3: 253

3- حاشية الدسوقي 2: 188.

4- المرتضى:أحمد بن يحيى اليماني: الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، ط:1982، تحقيق يحيى الفضيل: ص:323.

5- السرخسي: المبسوط :10: 114، الدسوقي، حاشية الدسوقي: 2: 188، المرتضى اليماني، الأزهار في فقه الأئمة الأطهار: 323.

6- الغزي: ابن القاسم :شرح ابن القاسم على متن أبي شجاع: ط: الحلبي ،مصر،1423،ج:2: 289، _ ابن مفلح: المبدع في شرح المقنع، المكتب الإسلامي، ط:1981،:ج:3: ص:379 .

7- مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي،مؤسسة مناهل العرفان، بيروت :ج:12: 38 .

ونعرض لضابط تقسيم الدور فيما هو آت[1]:

اتفق الفقهاء على أن كل دار تسود فيها أحكام الإسلام، ويأمن فيها المسلمون بمنعة، وقوة لهم فإنها دار إسلام.كالمدينة بعد وصول الرسول صلى الله عليه وسلم، إليها، ومكة بعد الفتح، والثغور الإسلامية[2]، سواء أكان فتحها عنوة أم صلحاً، فالعبرة لسيادة أحكام الشريعة وقوة المسلمين ومنعتهم، وإن اختلفوا في التعبير عن هذا المعنى، ومن تعبيراتهم: قول ابن مفلح الحنبلي: (والبلاد التي فتحها المسلمون عنوة، والأرض التي جلا عنها أهلها خوفاً، والأرض التي صالح عليها الكفار، على أن الأرض لنا، هي دار إسلام، ويجب على ساكنها من أهل الذمة الجزية[3]) وجاء في موسوعة الإجماع (ومتى غلب المسلمون على دار الحرب أو صارت أحكام الإسلام هي الغالبة، فقد أصبحت الدار دار إسلام بإجماع الكل).[4]

وإذا صالح أهل الحرب المسلمين على أن الأرض للمسلمين فهي دار إسلام، وإن صالحوا على أن الأرض للكفار فهي دار عهد عند الشافعية والحنابلة[5]، وتسمى دار العهد دار إسلام عند الحنفية استنادا إلى تقسمهم الثنائي للدور.

قال ابن مفلح وإن صالحناهم على أن الأرض لهم، ولنا الخراج عليها فهذه دار عهد [6]. وثمرة الخلاف بين دار العهد ودار الإسلام بحسب هذا التقسيم هو في أخذ (الجزية) قال الماوردي[7]: وإن صالحوا على أن تقر الأرض بأيديهم والأرض لهم، ويضرب عليها خراج فهذا الخراج في حكم الجزية متى أسلموا سقط عنهم، ولا تصير دارهم دار إسلام ولا تؤخذ جزية رقابهم لأنهم في غير دار الإسلام،

1- السرخسي: المبسوط :10: 114 ، الشربيني: مغني المحتاج : الأولى دار الكتب العلمية 4: 45.
2- الماوردي: أبو الحســـن علي بن محمد، الحاوي، دار الكتب العلمية ، بيروت ،1994، ج:14: 104. ابن حزم، المحلى: المطبعة المنيرية، ط:1349 هــــ، ج:7: 353 ابن عابدين :حاشية رد المحتار، ج 3: 253، أبو جيب، سعدي، موسوعة الأجماع، دار إحياء التراث الإسلامي ، قطر ج:2 ص: 361
3- ابن مفلح :المبدع في شرح المقنع ،المكتب الإسلامي، ط:1981،:ج:3 : ص:379
4- أبو جيب: موسوعة الأجماع : ج2: ص: 360.
5- الشربيني: مغني المحتاج : 4: 45 ابن قدامة: المغني، دار الفكر ، ج10: 610
6- ابن مفلح :المبدع في شرح المقنع ،المكتب الإسلامي، ط:1981،:ج:3: ص:379
7- الماوردي: أبو الحسين علي بن محمد، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، ط، 1985، بيروت، ص،: 175.

وقال أبو حنيفة قد صارت دارهم بالصلح دار إسلام وصاروا أهل ذمة تؤخذ جزية رقابهم." ولا خلاف في خضوع دار العهد لأحكام الإسلام؛ لأنها خاضعة لنفوذ الدولة الإسلامية أو ما يسمى بالمصطلح الحديث سيادة الدولة المسلمة، يؤكد هذا قول ابن القاسم[1]: "وأهل العهد تجري عليهم أحكام الإسلام" وجاء في مغني المحتاج (ودار العهد كدار الإسلام لأنها في قبضتنا).[2]
اتفق الفقهاء على أن البلاد التي لم تدخل في سيادة الدولة الإسلامية ابتداء فإنها من دار الكفر[3]، وقد يعبر عنها بدار الحرب؛[4] قال المرداوي: (ودار الحرب ما يغلب فيها حكم الكفر[5] وقال ابن حزم: "وكل البلاد كانت بلاد حرب سوى مدينة رسول الله ﷺ).[6]

واختلفوا في حكم البلاد التي انسحبت عنها سيادة التشريع الإسلامي نتيجة لظرف طارئ كاحتلال أو تغلب بغاة هل يزول عنها وصف دار الإسلام؟ فهم على أربعة أقوال:
مذهب أبي حنيفة والمالكية و الزيدية: وخلاصته أن الدول التي زال حكم الشريعة عنها، ولازال أهلها من المسلمين والذميين يتمتعون بالأمان ويقيمون الشعائر فهي دار إسلام؛ ذلك أن وجود الأمان هو من آثار بقاء أحكام الإسلام.[7]

ومن المعايير التي وضعها الحنفية للحكم وصف دار الإسلام: قرب الدولة من دار الإسلام، ومحاذاتها لها، لأنها بحكم القرب تعد آمنة، وفي هذا المعنى يقول السرخسي"والحاصل عند أبي حنيفة ،رحمه الله تعالى، إنما تصير دارُهم دارَ الحرب بثلاثة شرائط:أحدها أن تكون متاخمة أرض الشرك ليس بينها وبين أرض الحرب دار للمسلمين، والثاني أن لا يبقى فيها مسلم آمن بإيمانه.ولا ذمي آمن بأمانه، والثالث أن يظهروا أحكام الشرك فيها. أما المالكية والزيدية فقد اكتفوا بإقامة شعائر الدين أو أكثرها من غير حاجة لاستئذان الكفار[8].

1- ابن القاسم :شرح ابن القاسم على متن أبي شجاع ،ج2: 289.
2- الشربيني :مغني المحتاج 4: 45
3- الرملي : نهاية المحتاج :ج8: 82، ابن تيمية :الفتاوى ،ج: 28: ص:240
4- ابن مفلح :المبدع 3: 395
5- المرداوي:علاء الدين أبي الحسين :الإنصاف :ج:4: 190.
6 - ابن حزم، المحلى : المطبعة المنيرية ، ط:1349 هـ، ج:7: 353.
7- السرخسي: المبسوط :ج:10: 114، المرتضى: أحمد بن يحيى اليماني: الأزهار في فقه الأئمة الأطهار ص: 323 .
8- حاشية الدسوقي 2: 188، المرتضى : الأزهار في فقه الأئمة الأطهار:ص:323 .

أما تقسيم الجمهور من الشافعية والحنابلة، وأبي يوسف ومحمد من الحنفية فعلى النحو التالي: فإذا كانت الغلبة والظهور لغير المسلمين فهي دار كفر، بقطع النظر عن القرب من دار الإسلام .[1]

رأي الرملي من الشافعية: أن كل بلد فتحها المسلمون تسمى دار إسلام ولا يسلب عنها الاسم إلى قيام الساعة، وإذا استولى عليها الكفار صارت دار كفر صورة لا حكماً[2].

وقد نسب هذا القول في الموسوعة الكويتية إلى الشافعية 3 فقالوا إن دار الإسلام لا تصير دار كفر ، والصحيح أن هذا القول للرملي ولكن من الشافعية من لم يميز بين الاستيلاء الحكمي والصوري.[4]

رأي ابن تيمية: و يرى أن الدور التي زال عنها حكم الإسلام، وغالبية سكانها مسلمين مركبة من المعنيين وقد أفتى بهذا لما سئل عن قرية ماردين5 وكان قد زال حكم الإسلام عنها فقال هي ليست بمنزلة دار الإسلام التي تجري عليها أحكامه ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار بل هي قسم ثالث يعامل المسلم بما يستحقه ويقاتل الخارج على ما يستحقه [6] ثم بين أن عصمة دم المسلم باقية على اختلاف الدور، وأن إعانة الخارجين عن دين الإسلام محرمة في مختلف البقاع.

رأي الفقهاء المحدثين:

يمكن تقسيم آراء المحدثين من الفقهاء إلى الأقسام التالية:

الرأي الأول:

إن العالم اليوم إما دار إسلام أو دار أمان، وهذا رأي محمد أبو زهرة، وتبناه عدد من العلماء وطوروا عليه،وخلاصته أن هذا التقسيم وصف لواقع عاشه الفقهاء، أما اليوم بعد دخول الدول في ميثاق الأمم المتحدة فالوضع الدولي بالشكل التالي:

فتعد الدول جميعها بقطع النظر عن النظام الذي يحكمها قد دخلت بعقد أمان باستثناء التي اغتصبت أرضاً للمسلمين.

1- السرخسي :المبسوط :ج:10: 114 ، المرداوي :الإنصاف :ج4: 190.
2- الرملي ابن شهاب الدين،دار الفكر،ط،1984،بيروت ج: :8: 82.
3- أنظر الموسوعة الفقهية ج:20: 202 ونسبه لنهاية المحتاج 8: 82.
4- الماوردي :الحاوي :ج:14: 104، الشربيني :مغني المحتاج :2: 54 وسيأتي بيان موقف الشافعية من الهجرة فيما هو آت.
5- ماردين بلدة تقع اليوم في جنوب تركيا.
6- ابن تيمية: الفتاوى ج:28:ص:240 ،العلاقات الدولية في الأصول الإسلامية : نادية محمود مصطفى ج:4: :317 .

وأما الدول التي غالبية سكانها من المسلمين وكانت خاضعة لحكم الخلافة، ثم زال النظام الإسلامي، وبقي سكانها من المسلمين والذميين يتمتعون بالأمان الأول كتركيا، وبلغاريا، فتعد دار إسلام؛ تخريجاً على قول أبي حنيفة والمالكية والزيدية المشار إليه سابقاً.

الدول التي تحكم بالإسلام بشكل غالب فهي دار إسلام.

وهكذا صار تقسيم الدور إلى: دار إسلام، ودار أمان، وتقتصر دار الحرب على من يحارب أمة الإسلام فعلاً.[1]

وقد تبنى هذا الرأي عدد من العلماء، والحركات الإسلامية، الذين يرون أن ما كان يسمى دار حرب أو دار عهد نسميه اليوم دار دعوة [2]، في مقابل دار الاستجابة التي هي دار المسلمين. وظهر هذا التوجه في مؤتمر نظمه اتحاد الشبان المسلمين عام 1994، في فرنسا، واعتبرت تلك المنظمة أن فرنسا، لم تعد للمسلمين دار عهد بل أصبحت داراً للتبشير بالإسلام.[3]

ولهذا الرأي سنده من الفقه الشافعي حيث نصت متونها أن المسلم في دار الكفر إذا كان في منعة، فتعد مكان منعته دار إسلام، سواء أكان قادراً على الدعوة أم لا. فالعبرة بالقدرة على الامتناع والاعتزال[4] و في هذا المعنى يقول الماوردي: وإن قدر على الامتناع والاعتزال في دار الحرب، وقدر على الدعاء

والقتال فهذا يجب أن يقيم في دار الحرب؛ لأنها صارت بإسلامه واعتزاله دار إسلام، وإن قدر على الامتناع والاعتزال ولم يقدر على الدعاء والقتال فهذا يجب عليه أن يقيم ولا يهاجر؛ لأن داره قد صارت باعتزاله دار إسلام، وإن قدر على الامتناع، ولم يقدر على الاعتزال، ولا على الدعاء والقتال فلا تصير داره دار إسلام، ولا تجب عليه الهجرة، وله أحوال فإن رجا ظهور الإسلام بمقامه فالأولى أن يقيم ولا يهاجر.[5]

1- أبو زهرة :العلاقات الدولية ص:75، فيصل مولوي :الأسس الشرعية للعلاقات الدولية بين المسلمين وبين غير المسلمين ، بيروت، 1987، ص:104 ،مصطفى ، نادية :مشروع العلاقات الدولية فيا الإسلام: ج:4:ص:207

2- فيصل مولوي :الأسس الشرعية للعلاقات الدولية بين المسلمين وبين غير المسلمين ،ص:315 .

3 - محمد الميلي : سوء التفاهم بين أوروبا والإسلام ، مجلة الندوة ، عدد آب ، 1997، الأردن، ص:25

4- الماوردي :الحاوي :ج:14: 104 ، الشربيني :مغني المحتاج :2: 54

5 - الماوردي :الحاوي :ج:14: 105

وتلحظ مما سبق أن الماوردي وضع معياراً يعتمد على ثلاثة أمور:
القدرة على الامتناع.
والقدرة على الاعتزال.
والقدرة على الدعوة، وبتوفر الأول والثاني(الامتناع والاعتزال) تعد الدار دار إسلام، وبتوفر الأول دون الثاني الامتناع من غير قدرة على الاعتزال ولا الثالث) فيبقى اسم دار الحرب ولكن الأولى البقاء إن رجي انتشار الإسلام ببقائه.
ولما كان المسلمون في كثير من دول الغرب قادرين على الامتناع، وقادرين على الدعوة، بحكم القوانين التي تحمي حقوق الإنسان، وهم غير قادرين على الاعتزال، بحكم سيادة القانون فإن الأليق بتسمية البلاد الغربية غير المسلمة ،هو دار دعوة وتبشير بالإسلام، لأن تسميتها بدار حرب لا يصف الواقع، وكذا لا يصح تسميتها بدار إسلام لعدم توفر شروط التسمية من قدرة على الامتناع والاعتزال، والأمر لا يتوقف عند التسمية، بل يوجه آليات العمل لتكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

الرأي الثاني:
إن العالم اليوم كله دور كفر, هذا رأي تقي الدين النبهاني[1] وخلاصته. أن دار الإسلام هي التي يتوفر فيها عنصران:
أنها تحكم بشرع الله تعالى.
أن أمانها يستمد من المسلمين فإذا اختل أحد العنصرين فلا تعد دار إسلام، حتى لو كانت تحكم بالإسلام غير أن أمانها بأمان الكفار أي بسلطانهم فإنها تكون دار كفر. وعليه فإن دور العالم جميعها تعد دور كفر!
ومما يؤخذ على رأي الشيخ تقي الدين أنه توسع في دلالة الأمان ليصل إلى
معنى على خلاف ما قصد الفقهاء في نصوصهم، ولا يظهر لنا معنى لكلام الشيخ تقي الدين إلا أنه يرى أن الدول وإن كانت تحكم بشرع الله في كثيرمن جوانب الحياة، إنما تحكم بأمان غير المسلمين. !

1- د.هيكل محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، ط الثانية:1996،بيروت:ج:1:ص: 667.

وهذا فهم غريب لمعنى الأمان خلاف ما قصد الفقهاء، فلعل الشيخ تقي الدين قد فهم الأمان بمعنى التعاون العسكري، والمساعدات المالية والتحالفات التي تدخل بها الدول الصغرى، مما هو واقع اليوم في ظل وجود دولٍ كبرى وهي من الدول غير المسلمة، وتتحالف معها الدول المسلمة بتحالف واتفاقيات.

وهذا غير مقصودٍ للفقهاء، بل مقصود هم بالأمان هو الإذن للتمكن. من أداء العبادة، فلو كان المسلم يأمن أن يؤدي عبادته من غير أمان، ولا إذن من الكفار فتعد هذه الدار دار إسلام، واكتفى بعض فقهاء الزيدية بظهور الشهادتين، ولو كان الكافر يظهر الشعائر الكفرية من غير أمان من المسلمين فكذا لا تعد دار إسلام.

يدلك على هذا قول القاضي يحيى الصنعاني في تحقيقه لكتب الأزهار: "والمختار في المذهب أنه متى ظهر في البلد خصلة كفرية بدون جوار، أي إذن، صارت دار كفر، ولو ظهرت الشهادتان عند المسلمين، وما خالف فيه المؤيد بالله هو أن الحكم لظهور الشهادتين فإن ظهرتا بدون جوار فهي دار إسلام، ولو ظهرت فيه خصلة كفرية من غير جوار[1]."

وهذا غير حاصل في كثير من الدول المسلمة، حتى التي لا تحكم بشرع الله في كثير من أحكامها، لأن المسلم لا يحتاج إلى جوار من الكفار ليؤدي عبادته.

ونجد هذا المعنى واضحا في جواب الصنعاني وهو ممن يرى الأمان معياراً للحكم على الدار، حين سئل عن حكم عدن والهند بعد احتلالها من الإنجليز فأجاب: "عدن وما والاها إن ظهرت فيها الشهادتان والصلوات ولو ظهرت فيها الخصال الكفرية بغير جوارٍ فهي دار إسلام وإلا فدار حرب ثم يقول ومتى علمنا أن الكفار استولوا على بلد من بلاد الإسلام التي تليهم وغلبوا عليها وقهروا أهلها بحيث لا يتم لهم إبراز كلمة الإسلام إلا بجوار من الكفار صارت دار حرب وإن أقيمت فيها الصلاة[2]".

1- الأزهار في فقه الأئمة الأطهار: المرتضى اليماني : تحقيق يحيى الصنعاني: ص:323 .

2- صديق بن حسن خان القنوجي: العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة ص:234، نقلاً عن هيكل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية :ج1: 665

الرأي الثالث: رأي عبد الكريم زيدان:

خلاصته أن العبرة للسيادة القانونية فإذا كانت السيادة لأحكام الشريعة فهي دار إسلام، حتى لو كان السكان غير مسلمين، وإن كانت السيادة لأحكام الكفر فهي دار كفر. وفي هذا يقول "وتصير دار الإسلام دار حرب بإظهار أحكام الكفر فيها أي تطبيق غير أحكام الإسلام[1]"، وتلحظ أنه يستند إلى رأي جمهور الفقهاء إلا أن معيار الجمهور للحكم على الدار هو الغلبة، والغلبة لا تطابق مفهوم السيادة تماماً وخصوصاً في ظل أشكال السيادة الناقصة كما في الحكم الذاتي، والسيادة الرخوة في عصر العولمة.

فالغلبة في هذه الأنظمة متحققة إلى حد ما وإن كانت السيادة ناقصة!

رأي الباحث:

إن هذا التقسيم، والتسمية مرتبط بأحكام مثل: حكم الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وحكم جهاد الكفار وحكم اللقطة، والذي نراه أن هذه الأحكام يمكن أن تتجزأ اليوم فالبلاد التي لا يصدق عليها وصف دار الإسلام، يجدر أن نسميها اليوم دار دعوة في مقابل دار الاستجابة التي هي دار المسلمين، ذلك أن هذه التسمية أقرب إلى غاية الجهاد وأبعد عن اللبس من تسميتها دار حرب؛ بما يوهم إعلان الحرب على هذه الدول!

ثم إن التقسيم إلى دار استجابة ودار دعوة أقرب لحقيقة العلاقة بين المسلم وغير المسلمين يدلك على هذا ما رواه عبد الرزاق في مصنفه: بعث النبي ﷺ سرية إلى خيبر فأفضى القتل إلى الذرية، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال ما يحملكم على قتل الذرية؟ قالوا أليسوا أولاد المشركين؟ قال: أوليس خياركم أولاد المشركين[2]" وفي تعليق النبي صلى الله عليه وسلم: ما يدل على أن الكفار هم مادة الدعوة، ومن هنا قلت إن تسمية بلاد غير المسلمين بدار دعوة أقرب إلى حقيقة العلاقة بين دور المسلمين وغيرهم.

1 - زيدان: عبد الكريم: مجموعة بحوث فقهية، ص: 51

2- عبد الرازق: المصنف: المكتب الإسلامي، بيروت 1972، ج:5: 203.

وقد نبه إلى هذا عدد من العلماء، قديماً كابن تيمية، والشوكاني حيث يقول: "واعلم إن التعرض لدار الإسلام والكفر قليل الفائدة لأن الكافر مباح الدم ما لم يؤمن ومال المسلم ودمه معصومان بعصمة الإسلام في دار الحرب"[(1)].

وبناء عليه يمكن أن نبين الأحكام المترتبة على اختلاف الدور فنقول: فالعصمة للمسلم في كل مكان، أما عصمة المال والدم للكافر فتثبت بحكم الأمان وهكذا ومن قال بهذا الرأي ممن اطلعت عليهم الشيخ الآصفي وهو رأي وجيه[(2)]

)؛ فاللقيط في بلاد الكفر مثلاً ينسب بحسب الحي الذي ولد وفيه واللقطة تعرف من باب أداء الأمانات لأنه بدخوله إليهم عبر إذن السفارات (الفيزا) يعد مؤمناً لهم وهكذ. وبناء على ما بينته من اختلاف النظرة لدول العالم تتغير النظرة لحكم الهجرة والإقامة في تلك الدور مما أشرت له سابقاً، وتبقى دار الإسلام صيغة وحدوية نحقق بها القوة والغلبة.

1- الشوكاني: السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار 4: 575.

2 -مجلة الحياة الطيبة :عدد 10،سنة صيف 2002 بيروت ص:32

الفصل العاشر

مشكلات الإسلام مع الحضارة الغربية

الإرث الصراعي في الحضارة الغربية وتداعياته العالمية:

قضت البشرية منذ أن أُرخ لها ميلاديا حوالي العشرين قرناً لم يعرف الغرب خلالها تعاونا وتبادلا متكافئا مع شعوبها أو حوارا بين حضاراتها. بل كان ينظر إليها على أنها حضارات دونية يجب أن تخضع لحضاراته. فقد كان هَم الاسكندر ،كما يذهب حنفي، تحويل العالم كله إلى أرض يونانية لغة وثقافة ونظماً وأثراً باسم التنوير[1]. وكذلك كان لدى الإغريق إحساس غريب ومسيطر في أنهم أنبل الناس وأكرمهم،وأن ما عداهم من الشعوب المجاورة ما هم إلا برابرة لا يحسنون حتى تدبير شؤونهم الخاصة، وإنهم لذلك في حاجة إلى الإغريق للقيام بمهمة حكمهم. ومن نفس هذا التصور الفلسفي الأسطوري نشأت فكرة الاستعمار والاستعلاء،

وما تبع ذلك من التوسع على حساب الآخرين، والذي ورثته الحضارة الغربية المعاصرة إلى حد كبير. وليس أدل على عشوائية هذا التصور وعدم مصداقيته،كما يورد إمام، من أن الفرس كانوا اعرق حضارة وابعد شأناً في التمدن والعلوم والآداب من الإغريق. وكذلك كان للصين القديمة والهند القديمة حضارات عريقة. هذا إلى جانب حضارات الجزيرة العربية وحضارات حوض البحر المتوسط، خاصة الحضارة النوبية والحضارة المصرية القديمة والحضارة الفينيقية وغيرها من الحضارات القديمة[2].

ثم على اثر انتقال السلطة السياسية بعد هزيمتهم لمقدونيا جاء الرومان فأحالوا الحلم اليوناني في حكم العالم إلى واقع معاش ، فأقاموا عن طريق الغزو المسلح إمبراطورية مترامية الأطراف، شملت أجزاء كبيرة من العالم القديم .

1- حنفي، حسن: "الإسلام والغرب: صراع أم حوار". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، جمادى الأول 1423هـ ، أغسطس2002م، ص4.

2- إمام،زكريا بشير: "مدخل إلى النظرية السياسية في القرآن الكريم". دار هيزر للنشر،1999م،ص26-27.

وقد تميزت هذه الفترة من تاريخ العالم بالسيطرة والهيمنة الرومانية التي أخذت الطابع الاستعماري. حيث انتشر الرومان شرقاً وغرباً وتحول البحر الأبيض المتوسط بشواطئه الشمالية في أوروبا والجنوبية في أفريقيا والشرقية في آسيا الصغرى إلى بحيرة رومانية لغة وثقافة وحصونا وحاميات. ثم بعد أن وهنت قوة الإمبراطورية الرومانية بسبب ضعف قوة الأباطرة وازدياد نفوذ الكنيسة وقيام نظام الإقطاع، دخلت أوروبا فيما عرف في تاريخها الوسيط بالعصور المظلمة. وقد اتسمت تلك الفترة بنشوب الصراع بين البابا (السلطة الدينية) والإمبراطور (السلطة السياسية).

وقد كان البابا مدعوماً في هذا الصراع برجالات الإقطاع والذين تمردوا على الإمبراطور، وقوضوا من سلطة الدولة المركزية، وأسسوا الجيوش، وحاربوا بعضهم البعض من أجل تأكيد مراكزهم. وقد كان الشعب وحده هو وقود هذا الصراع الذي استمر لحوالي القرنين. ثم فتح الإسلام تلك البلدان وورث الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية غربا بل والفارسية والهندية شرقاً ....وانتشرت اللغة والثقافة العربية حول البحر الأبيض المتوسط شمالاً وجنوباً. وأقام المسلمون حوار للحضارات والذي ازدهر واكتمل في الأندلس وفي غرناطة وقرطبة واشبيلية وطليطلة وفي صقلية وجنوب إيطاليا وشمالها في جامعة بادو بالإضافة إلى مدارس القيروان والقاهرة وبغداد والبصرة والكوفة وبلخ ونيسابور وسمرقند[3]. ثم عاد الرومان لغزو العالم الإسلامي من جديد فيما عرف بالحروب الصليبية والتي استمرت زهاء القرنين هي الأخرى. وقد كان هدفها الاستيلاء علي قلب العالم الإسلامي في فلسطين والقدس وإقامة إمبراطورية رومانية مسيحية عالمية. وكما يورد حنفي[4]:

أتي الغرب غازياً لبلاد المسلمين وعاد متحضراً. هُزم عسكرياً وتعلم حضارياً علم المسلمين وثقافتهم. ولقد كان لحيوية الحضارة الإسلامية وقوتها الذاتية الدافعة لها إلى التطور والتقدم والإبداع،الأثر القوي في نقل روح المدنية إلى العالم الغربي وذلك بقوة دفع التفاعل الحضاري. وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرخين والمفكرين الأوربيين الذين برئوا من الهوى والغرض،

3- حنفي،حسن: مرجع سابق،ص2.

4- المرجع السابق،ص2.

وكتبوا بإنصاف عن خاصية التفاعل الحضاري في الحضارة الإسلامية. وهاهو "كرستوفر دوسن"، كما يروى التويجرى، يذهب في كتابه "تكوين أوربا" إلى أن الحضارة الإسلامية احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطي فصاعداً لا في الشرق فحسب بل كذلك في غرب أوربا، إذ نمت الحضارة الغربية في ظلال الحضارة الإسلامية التي هي أكثر منها رقيا وقتذاك. وكانت الحضارة الإسلامية العربية - لا البيزنطية - هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطي علي استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي[5].

ويواصل التويجري قائلاً: "ولعلنا لا نغالي إذا أكدنا هنا، علي أن الإسلام. وهو دعوة الله إلى الناس كافة ورسالته – سبحانه - إلى العالمين هو الدين الذي يدعو إلى التفاعل الحضاري دعوة صريحة وقوية، ويحث عليه حثاً علي اعتبار أن الحوار الذي نادي به الإسلام هو في طبيعته وجوهرة تفاعل حضاري. كما لا نحتاج إلى القول أن قاعدة التسامح التي يقوم عليها الإسلام فتحت أمام الأمة الإسلامية السبيل إلى الاحتكاك الواسع بالأمم والشعوب وشجعت الحضارة الإسلامية علي التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعاً"[6].

وفي نفس هذا المعني يقول روبرت بريفلوت (1876-1940) في كتابة "بناء الإنسانية"، كما يورد المهدي "أنه لولا العرب لما ظهرت الحضارة الأوربية الحديثة،ومن المؤكد أيضا أنه لولاهم لما اكتسبت الحضارة الأوربية الحديثة الصفات التي مكنتها من التسامي علي كافة مراحل تطور الإنسانية"[7]. كذلك يورد قطب قول بريفلوت "أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة"[8].

5- التويجري،عبدالعزيز بن عثمان: "صـراع الحضـارات في المفهوم الإسـلامي". ورققة علمية قدمت في مؤتمر مؤسـسـة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول1423هـ، أغسطس2002م،ص14.

6- التويجري، عبدالعزيز بن عثمان، المرجع السابق، ص14-15.

7- المهدي، الصـادق: "الحضـارات الإنسـانية تصـارع أم تحاور" ورقة مقدمة لمؤتمر حوار الحضـارات،جامعة النيلين،6-8مارس 2003م، ص5.

8- محمد قطب: "التطور والثبات في حياة البشرية" مكتبة وهبة 142 شارع الجمهورية، عابدين، القاهرة، ص269.

وبالرغم من هذه الأقوال الواضحة والصريحة إلا أن الكثير من مفكري الغرب يزعمون أن الحضارة الغربية الحديثة هي إنجاز غربي فريد. بل يعتبرون أن واجبهم المصيري أن ينقلوا حضاراتهم هذه للعالم كله، ويزعمون أن هذه هي رسالة الرجل الأبيض إلى بقية أجناس المعمورة. وتكمن خطورة هذه النظرة، كما يورد المهدي،في عدوانية الحضارة الغربية وفي المشاكل التي سوف تكرس العداء بينها وبين الحضارات الأخرى[9].

ثم ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي وعبر القرن التاسع عشر، وعلي أثر تفوقه الاقتصادي والتكنولوجي والعسكري، بسبب الثورة الصناعية، بدأ الغرب غزوه الاستعماري المسلح علي العالم غير الغربي في أفريقيا وأسيا وغيرها. وقد تمكن عن طريق هذا الغزو من الاستيلاء علي مناطق كثيرة في هاتين القارتين وغيرها من مناطق العالم. ولقد قضـي الأوربيون خلال هذا الغزو الاحتلالي علي هويات الشعوب المتمثلة في ثقافاتها ولغاتها وتقاليدها وذلك باسم الحداثة والثقافة العالمية الواحدة،

كما دمروا اقتصادياتها من أجل رواج الاقتصاد الأوربي. وكما يورد القنوص."فإن الدول الاستعمارية قد سعت إلى فرض جميع أساليب الاضطهاد بمختلف أنواعه وذلك بقصد نهب ثروات العالم الثالث وتحويلها إلى مصدر أساسي للمواد الأولية وللقوي العاملة ، تسخر لخدمة الاحتكارات الرأسمالية ذات النفوذ القوي في البلدان المِستعمرة وفتح الطريق أمام حركة تسويق اقتصاديات تلك البلدان[10].

9- المهدي، الصادق: المرجع السابق،ص7.

10- قنوص،صـــبحي محمد: "أزمة التنمية: دراســـة تحليلية للواقع الســـياســـي والاقتصـــادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث" 1990م،ص7.

ويقول القنوص في موقع آخر من المرجع نفسه: "إن ذهب وفضة أمريكا الوسطي وأمريكا الجنوبية - وكان يستخرجهما الأفارقة - قد لعبتا دوراً حاسماً ومهماً في توفير الاحتياجات من العملة في دعم اقتصاديات النقد الرأسمالي في أوروبا الغربية. كما ساعد الذهب الأفريقي والعاج دولة البرتقال في تمويل الرحلات البحرية البعيدة المدى حول رأس الرجاء الصالح إلى آسيا بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي فصاعداً. وكان الذهب الأفريقي أيضا المصدر الرئيس لصك العملة الهولندية مما ساعد امستردام علي أن تصبح المموئل المالي لأوروبا في تلك الحقبة التاريخية[11].

ويواصل القنوص الحديث عن استنزاف موارد الدول المستعَمرة فيقول في موقع آخر: "أنه ومن خلال استطرادنا في الحديث عن تجارة الرقيق الأوربية يتوجب علينا أن نخص بالذكر الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا لا يرجع إلى أن معظم سكانها كانوا من الأوربيين فحسب، وإنما أيضاً إلى أن أوربا عملت علي نقل مؤسساتها الرأسمالية بالكامل إلى أمريكا الشمالية علي نحو لم تشهده أي منطقة جغرافية من العالم، وبنت شكلاً قوياً للرأسمالية بعد أن تم إبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) واستغلال الملايين من الرقيق الذين تم تصديرهم من أفريقيا وجزر الهند وأمريكا اللاتينية، كوسيلة من وسائل رأس المال وإعادة تصديره إلى أوربا"[12].

وفى نفس هذا المسار التحليلي لأبراز الارث الصراعي في الحضارة الغربية وتداعياته العالمية، يأتي نافعة ليقول: "أن التمييز بين الخصائص المادية للنموذج الأمريكي، بحكم ما يملكه من مقومات غير مسبوقة لعناصر القوة المادية، وبين خصائصه المعنوية، بحكم ما يمثله من قيم تعكس الخصوصية الثقافية للتجربة، يعد مفتاحا أساسيا لفهم طبيعة وحقيقة السلوك الأمريكي على المسرح الدول. فالقوة المادية للدولة الأمريكية مسخرة بالأساس لخدمة مصالح ومنافع خاصة وأنانية ، وليست موجهه للاضطلاع برسالة إنسانية. وليس هذا بغريب على تجربة قامت في بعض جوانبها ومراحلها التاريخية على العنف والعنصرية واستئصال الآخر.

11- قنوص،صبحي محمد: المرجع السابق،ص62.
12- نفس المرجع، ص65.

وحتى إذا افترضنا أن التجربة الأمريكية قد تمكنت بالفعل من تجاوز كافة سلبياتها ومسالبها التاريخية وبلورت نظاما وصل إلى درجة من النضج تجعل من منظومة قيمه السائدة حالياً مثالاً يحتذي، فان القيمة الحقيقية لأي نموذج، كما يذهب نافعة، تنبع من قدرته على التحول إلى قدوه تلهم الآخرين وليس إلى صيغة تفرض بقوة السلاح. ثم يواصل نافعة نقده قائلاً أن لدينا تجربة الاستعمار الأوروبي التقليدي الذي يشير تاريخه الأسود إلى أنه اخضع شعوب القارات الثلاث بقوة السلاح وليس بقوة شعارات التنوير والتحديث والرسالة الحضارية التي حاول بها خداع الشعوب، وظل يحكم في بعض المستعمرات عشرات، بل ومئات السنين دون أن يخلف في النهاية سوى مجتمعات مشوهه ومختلة التوازن اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. بل وكثيراً ما تسبب الاستعمار الأوروبي في قطع الطريق على احتمالات التحول الديمقراطي النابع من الداخل ومن الذات."[13]

وما دام الحديث يدور عن دور الاستعمار في تخلف دول العالم الثالث نؤكد هنا انه لا يمكن لهذه الدول أن تخرج من واقع التخلف والتبعية إلا من خلال إعادة النظر في بناء هياكلها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وإن هذا في حد ذاته لا يمكن أن يتحقق إلا باعتماد ثورة ثقافية ذاتية أساسها العلم والتكنولوجيا واستخداماتهما بصورة واسعة في مجال الإنتاج والتنظيم والإدارة.

هذا ما حدث واقعاً، أما علي المستوي الفكري فقد كانت الأفكار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي برزت في أوربا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أفكاراً صراعيه هي الأخرى. فالفكر الشيوعي، وهو فكر أوربي الأصل، قد قام صراحة علي مبدأ الصراع الطبقي. وبنفس المنطق جاءت النظرية الدارونية بمقولات الصراع من أجل الحياة والبقاء للأصلح فأحلت الصراع محل نظريات التوافق مع الطبيعة. وفي عمرة هذا المسلسل الصراعي جاء بعض علماء الغرب ليطرحوا مقولة صراع الحضارات وحتمية حدوثه. ويأتي في مقدمة هؤلاء صامويل هنتنجتون في كتابه "صراع الحضارات -

13- نافعة، حســن: "المثقف العربي والأمير الأمريكي: فؤاد عجمي نموذجاً". المســتقبل العربي، العدد289 مارس 2003م، مركز دراسات الوحدة العربية، الحمراء، بيروت، لبنان،ص47.

إعادة صنع النظام العالمي" الصادر في سنة 1996م والذي طرح فيه نموذجه حول صراع الحضارات. وهو في حقيقته نموذج التغريب esternization، والذي اتبعه الغرب في تعامله مع الحضارات غير الغربية التي غلب عليها عن طريق الاحتلال المسلح. ويرتكز النموذج بصورة أساسية علي مبدأ الصـراع مع الحضارات المغلوبة بهدف القضاء عليها باسم الحداثة والثقافة العالمية الواحدة. ومنذ بدايات العهد الاحتلالي وحتى اليوم يعمل الغرب عن طريق هذا النموذج علي فرض حضارته وبسط سيطرتها علي بقية الحضارات.

هذا وفي مقابل نموذج صراع الحضارات الذي اتبعه الغرب. فقد أخذ الإسلام، ومنذ بدايات انتشاره،بنموذج حوار الحضارات وتفاعلها. ويقوم النموذج علي مبادئ الأخذ والعطاء والندية بين جميع الحضارات. وهو في الأصل، كما يورد حنفي[14] نموذج شرقي قديم بدأ في الصين الكونفوشيوسية وفي اليابان الشنتوية عندما انفتحتا علي البوذية القادمة من الهند. وفي مصـر القديمة وبلاد ما بين النهرين عندما انفتحتا علي حضارات الشام (العبرانية، الكنعانية والمسيحية). إلا أن النموذج قد بلغ ذروته على أثر ظهور الإسلام وانتشاره وتفاعله الكبير مع الحضارات الأخرى. وكان من نتيجة ذلك انبثاق الحضارة الإسلامية والتي تجمع بين طياتها إنجازات معظم هذه الحضارات دون تعال أو هيمنة،رغم غلبته. هذا وقد نتج عن نموذج حوار الحضارات، الذي اتبعه الإسلام، تواصلاً وتراكماً حضارياً فاض خيراً علي البشـرية جمعاً. بينما تمخض نموذج صراع الحضارات، والذي أخذ به الغرب، عن انقطاع ومركزية حضارية وعنجهية وعقدة عظمة غربية أدخلت العالم كله في مستنقع خطير من الصـراعات العرقية والاقتصادية والسياسية والدينية يشهد العالم حالياً أسوأ تطوراتها.

14- حنفي، حسن: مرجع سابق، ص7.

ملخص النموذج:

طرح هنتنجتون في نموذجه حول صراع الحضارات أن الثقافة والهويات الثقافية والتي هي على المستوى العام هويات حضارية هى التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في العالم ما بعد الحرب الباردة. وان الصـراعات المستقبلية سوف تشعلها عوامل ثقافية أكثر منها اقتصادية أو أيدلوجية. وأن الغرب حاليا هو أقوى الحضارات وسيظل كذلك لسنوات قادمة.[15] وبينما يحاول الغرب أن يؤكد ويحمى مصالحه تواجهه وتقف أمامه في تحقيق ذلك

المجتمعات غير الغربية والتي تحاول هى الأخرى توسيع قوتها الاقتصادية والعسكرية وأن تتوازن مع الغرب. وهكذا فان تقابل قوة وثقافة الغرب مع قوة وثقافة الحضارات الأخرى سوف يكون محوراً مركزياً للسياسة في العالم ما بعد الحرب الباردة. وهو يتكون من ثمان حضارات كبرى هى: الصينية، اليابانية، الهندية، الإسلامية، الأرثوذكسية، اللاتينية، الأفريقية ثم الغربية والتي تجمع أوروبا، أمريكا الشمالية، استراليا ونيوزيلندا. ثم أبرز الحضارة الصينية والإسلامية بوصفهما الحضارتان اللتان تشكلان خطراً على الحضارة الغربية لأنهما، كما يذهب، الحضارات الديناميكية في الربع الأخير من القرن العشـرين. الأولى، كما يزعم، بسبب نموها الاقتصادي والثانية، وهى الأعظم خطراً، بسبب التعبئة الاجتماعية والنمو السكاني. وكل من هذه التحديات لها آثارها على استقرار السياسة العالمية في القرن الواحد والعشـرين[16]. بل ذهب إلى القول انه إذا كان في الصين بارقة أمل مع ما يظهر فيها من مؤشرات للتكيف مع المتغيرات (تطويق الشيوعية) فإنه في حالة الإسلام فلا أمل مطلقاً بسبب العجز الديمقراطي المفرط، حسب زعمه. أما في بقية أنحاء آسيا فإن النمو الاقتصادى، عند هنتنجتون،سيؤدى إلى تعددية أكثر وديمقراطية أشمل. غير أن ذلك، في رأيه، لا يعنى أن يكون هناك توجها نحو الغرب، إذ أن هذه المجتمعات ما فتئت تؤكد قيمها الثقافية الخاصة وترفض تلك المفروضة عليها من الغرب. حيث أن الآسيويين يعتقدون بصورة ثابتة أن النجاح الاقتصادى الذي حققوه جاء نتيجة للثقافة الآسيوية التي هى في نظرهم أرقى من ثقافة الغرب المتفسخة اجتماعياً[17].

15- هنتنجتون، صـــامويل: "صـــدام الحضـــارات: لإعادة صـــنع النظام العالمي". ســـايمون وشـــيســـتر،مركز روكلفر، نيويورك،1999م،ترجمة طلعت الشايب،ص47.

16- نفس المرجع،ص170.

17- نفس المرجع،ص177.

أما الإسلام فهو في نظر هنتنجتون ليس مجرد دين بل أسلوب حياة. وما الصحوة الإسلامية، كما يقول، إلا جهد يبذله المسلمون لتحقيق هذا الهدف. وهى عنده، أي الصحوة الإسلامية، حركة فكرية ثقافية اجتماعية وسياسية عريضة تنتشر الآن في معظم أنحاء العالم الإسلامي[18]. وهذه الصحوة، كما يذهب،ليست رافضة للحداثة بل هي رافضة للغرب وللثقافة العلمانية، وهى إعلان كله كبرياء للاستقلال الثقافي عن الغرب. وهو يرى أنها جزء من الصحوة الدينية العالمية، والتي هى نتاج للتحديث، وهى تسعى للامساك به والإسهام فيه،مع رفضها في نفس الوقت للثقافة الغربية[19].
ومثل هذه النتائج تسقط، في نظر هنتنجتون،قيام نظام عالمي متعدد الحضارات ومتعايش سلميا. ولذلك فهو يرى أن بقاء الغرب،وهو يشمل، كما ذكرنا سابقا، أوروبا، الولايات المتحدة الأمريكية، استراليا ونيوزيلندا، يتوقف على الأمريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية، ثم على الأوروبيين باتحادهم من أجل تجديد الحضارة الغربية والحفاظ عليها ضد التحديات القادمة من الحضارات غير الغربية، وخاصة من الحضارتين الصينية والإسلامية.فهو يؤكد، في أكثر من موقع، تصادم الغرب مع هاتين الحضارتين على وجه التحديد،ويرى أن تجنب حرب حضارات كونية يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية، وتعاونهم في الحفاظ عليها[20].

على ضوء ما سبق فان هنتنجتون يرى أن الإسلام هو الأكثر خطراً على الحضارة الغربية. وقد أبرز أن هذا الخطر يقع في محورين هما: الانفجار السكاني والصحوة الإسلامية، وقد أورد إحصاءات سكانية دالة على هذا النمو. ثم أشار إلى ثلاثة أخطار على الغرب من جراء هذا النمو السكاني. أوضح في الأولى خطر الشباب ووصفهم بوقود الحركات الإسلامية وأعطى أمثلة من إيران والجزائر[21]. وأوضح في الثانية إن النمو السكاني سيكون عاملاً مساعداً في الصراعات على طول حدود العالم الإسلامي مع الشعوب الأخرى. ثم أوضح في الثالثة إن ركوداً اقتصادياً سيصاحب النمو السكاني في الدول الإسلامية مما يؤدى إلى هجرة الكثير من المسلمين إلى الغرب. ونتيجة لمشكلات عدم التكيف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فسوف تحدث ردة فعل متطرفة في المجتمعات الغربية المستقبلة لهذه الهجرات[22].

18- هنتنجتون، صامويل: المرجع السابق،ص181.
19- نفس المرجع،ص168.
20- نفس المرجع،ص32.
21- نفس المرجع،195.
22- نفس المرجع،ص197.

ومما يجعل الإسلام في نظرة خطرا عظيما على الغرب إن المجتمعات الإسلامية تظهر فشلاً كبيراً نحو قيام الديمقراطية،بينما المجتمعات ذات التراث المسيحي تتقدم في هذا الاتجاه. ويعزى ذلك إلى طبيعة الثقافة الإسلامية والمجتمع الإسلامي الرافضة لمفاهيم الغرب اللبرالية، مما يضعها في تصادم معه[23]. ولذلك نجده ينبه إلى خطورة الصحوة الإسلامية، ويضعها في مصاف الثورات العالمية الكبرى، مثل الثورة الفرنسية والروسية. إلا أنه يتنبأ بان هذه الثورة سوف تخمد في العقدين الثاني والثالث من القرن الواحد والعشرين، وذلك بسبب فشلها، كما يزعم، في حل قضايا الظلم الاجتماعي والضعف الاقتصادى والعسكري والقمع السياسي، مع نجاحها في إثبات إن الإسلام. هو الحل في مشكلات الهوية والعقيدة والأخلاق[24].

إذن، فإن نموذج صراع الحضارات الذي قدمه هنتنجتون يجعل الخطر على حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية، وهو آت من حضارتين فقط هما الصينية والإسلامية من أصل سبع حضارات أخرى صنفها النموذج. بل نجده يؤكد إن الحضارتين (الصينية والإسلامية) ستؤديان إلى عدم استقرار النظام العالمي. الأولي اقتصادياً والثانية سكانياً. وستفرز السنوات المبكرة من القرن الواحد والعشرين إحياء قوة غير الغربيين وثقافتهم ومن ثم تصادمها مع الغرب. ولا غرابة أن طريق مواجهة هذا التصادم،عنده، هو القوة، ذلك لأنه يقرر في وضوح إن سيطرة الغرب على العالم لم تأت من تفوق أفكاره ولا قيمه ولا دينه بل من تفوقه في استخدام العنف المنظم[25].

23- نفس المرجع،ص48.
24- هنتنجتون،صامويل: المرجع السابق،ص199.
25- موسى،عزالدين عمر: "بين حوار الحضارات وتصادمها: رؤية مغايرة". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، جمادى الأول1423هـ/أغسطس2002م، ص24.

وبالرغم من محاولات هنتنجتون تلطيف حدة نتائج نموذجه بالحديث عن إمكانية التعايش السلمي بين الحضارات، إلا أن آراءه تفضـي إلى نتيجة واحدة يمكن تلخيصها في إن الحضارة الغربية هى المثل الإنساني الأعلى الذي يجب أن يحتذي وأن يحمى. وأحسب أن السياسات التي تنتهجها الولايات المتحدة وبريطانيا وعدد من الدول الغربية الآن تسير وفق نموذج صراع الحضارات الذي رسمه علماء المستقبليات الغربيون وعلى رأسهم صامويل هنتنجتون. هذا وقد حذر بعض العلماء الغربيون الغرب من مغبة محاولة فرض حضارته علي بقية حضارات العالم، بزعم أنها الأكثر رُِقياً.

فهاهو "أرنولد تويبتي" في كتابه "الحضارة تحت الاختبار" وبعد أن درس إحدى وعشرين حضارة من الحضارات التي قامت في مختلف دول العالم ينتقد وبشدة ضيق أفق الغرب ووقاحته، حسب وصفه، والتي تتبدى في الأوهام المتمركزة حول الذات،بأن العالم يدور حوله، وأن هناك شرقاً ثابتاً وغرباً متقدماً. وكذلك قدم "أوزفالد سبنجلر" نظرية دائرية في التغيير الاجتماعي في كتابة "انهيار الغرب". وقد درس سبع حضارات محاولاً اكتشاف عوامل صعودها وهبوطها. فهو ،كما يقول لم يجد فائدة لافتراض وجود نهر واحد للحضارة (حضارة الغرب)، وأن الآخرين جميعاً أما روافد له أو يضيعون في رمال الصحراء. وكلاهما - تويبني وسبنجلر- يستحث الحاجة إلى منظور أوسع والى فهم أعمق للصراعات الثقافية الكبرى في العالم وتعدد حضاراته. إلا أن هنتجتون لا يريد أن يفصل بين الحضارة والثقافة بل دمجهما ليجعل الأخيرة (الثقافة) هي التغريب "Westernization".

فهو لا يريد للمجتمعات غير الغربية أن تأخذ بالتحديث "Modernization"، أي التكنولوجيا الغربية، دون التغريب، أي الثقافة الغربية. وهو ما تقوم به بالفعل المجتمعات غير الغربية خاصة الأسيوية والإسلامية. في تمسكها بثقافتها وقيمها مع أخذها بأسباب التكنولوجيا الغربية المتقدمة. وقد أشار قاسم إلى نفس هذا المعني عندما تحدث عن مقولة توحيد الثقافات لإحداث التقارب بين البشر،تلك المقولة التي روج لها الكثير من العلماء الغربيين. فهي في نظر قاسم، مقولة حق أريد بها باطل. حيث يريد الاستعمار الغربي التمكين لحضارته وثقافته لتحل، بدعوى العالمية،محل كل الحضارات والثقافات الوطنية لدى بقية شعوب العالم[26].

ثنائية المادي – القيمي ومشكلات الإسلام مع الحضارة الغربية:

كما أورد موسى[27]، فقد تلاحظ إن هنتنجتون قد استخدم مصطلحي الحضارة والثقافة في شئ من الترادف مع إن التمايز بينهما جد هام، خاصة وأننا نتحدث عن صراع وشيك بين الحضارات. والحضارات بالضرورة لا تتصارع بل هى تتكامل من أجل تحقيق أهدافها في إسعاد البشرية ومن شان هذا التكامل إلا يترك مجالاً للصراع. وهو وإن حدث فهو بين الثقافات واختلافها فيما تحمله من مكونات مادية أو قيميه. وأحسب إن هذه الاختلافات الثقافية هى في حد ذاتها نعمة وليس نغمة إذ أنها تثرى الحضارة الإنسانية وذلك بما تحمله من فرص للتنوع والتعدد الحضاري. مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [سورة الروم: الآية 22]

26- قاسم،عون الشريف: "الإسلام والثورة الحضارية". دار الجيل، بيروت/دار المأمون المحدودة،الخرطوم، 1991م، ص14.

27- موسى، عزالدين عمر: مرجع سابق،ص13.

ورغم ما يقال من إن الحضارة هى عربة الثقافة، وان هناك ترابطاً وتشابكاً قوياً بين الاثنين إلا أن لكل حضارة مكونان: مادي وقيمي. وأحسب أنهما يقعان على طرفي متصل متدرج يمثل أحد أطرافه الصفة المادية البحتة بينما يمثل الطرف الآخر الصفة القيميه أو الروحية البحتة - وكلى الصفتين هى حالات مثالية لا وجود لهما في الواقع المعاش، بل إن الحضارات تقترب أو تبتعد من إحدى الطرفين بناءً على ما تحمله بداخلها من مكونات مادية وقيمية بينما تمثل الحالة الوسط توازناً بين المكونين. ويمكن رسم المتصل المادي - القيمي على النحو التالي:

مجتمع متوازن

2+ .1+...1- .2- ....

.... مجتمع مادي... | مجتمع قيمي.

.... صفر..

حيث إن:-.

-2 مجتمع مادي بنسبة 100%

-1 مجتمع مادي بنسبة 75%

صفر مجتمع متوازن 50% مادي 50% قيمي (روحي) .

+1 مجتمع قيمي بنسبة 75%

+2 مجتمع قيمي بنسبة 100%

وتستند فكرة المتصل المادي – القيمي (الروحي) من الناحية النظرية كما ألمحنا لذلك سابقاً على افتراضين أساسيين:

إن الحضارات الإنسانية تقع بناءاً على مقدار ما تحمله من مكونات مادية وقيميه (روحية) في نقطة معينة داخل المتصل.

وأن هذا الوضع يصاحبه بالضرورة سلوك يتسق معه.

وبالرغم من صعوبة الوقوف علي الخصائص المادية والقيمية للحضارات الثمانية التي صنفها همنتنجتون لنتمكن من تحديد موقعها علي المتصل المادي – القيمي، إلا أننا نستطيع تحليل ذلك بصورة عامة، مع محاولة مقارنة موقع الحضارتين الغربية والإسلامية في هذا المتصل، بوصفهما الحضارتان المتنافستان الآن على الساحة الدولية.

فنقول: إن لكل حضارة من الحضارات جانبها الفكري الذي ترتكز عليه، والذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالمجتمع وبالكون وخالق الكون. ويأتي هذا الفكر، في معظمه من الأديان، سماوية كانت أو محلية، إذ يوجد في كل حضارة مكون ديني إلا انه (أي الفكر) قد يأتي أيضاً من فلسفة وضعية تقوم علي استخدام منهج البحث العلمي الامبريقي في إثبات حقائق الأشياء واستخلاص النتائج دون الأخذ بالأمور الغيبية. والحضارة الغربية ليست محايدة في ذلك، فهي تستند في جانبها

الفكري علي الديانة المسيحية، كما أن بها جانب وضعي علماني وصفه مؤسس علم الاجتماع الغربي " أوجست كونت" (1798م-1857م) "بدين الإنسانية" زاعماً إن لهذه الديانة رسلها وأنبيائها (دارون ، نيوتن، فرويد .. وغيرهم) والذين يجب أن يمجدوا لمساهمتهم في تقدم الإنسانية.

ويختلف هذا الجانب الفكري في احتوائه لمظاهر الحياة المختلفة من حضارة إلى أخري. وإذا كانت اليهودية قد انحصرت، كرسالة دينية، علي بني إسرائيل،إلا أن المسيحية،رغم عالميتها،قد جاءت ديناً روحياً لم يتضمن تشريعاً يتعلق بالدولة أو بتنظيم المجتمع. ولذلك اعترفت ومنذ أيامها الأولي، بأن تنظيم الحياة وترتيب أمور الحكم والسلطة، إنما هي من اختصاص الإمبراطور الروماني بينما تختص الكنيسة برعاية الأمور الروحية. ومن هنا جاءت أولى بذور الفكر العلماني في الحضارة الغربية، والداعي لفصل الدين عن الدولة، أي الفصل بين المادي والروحي في حياة الإنسان علي وجه الخصوص. هذا وقد حاول القديس "أوغسطين" (354م-435م)، أحد فلاسفة الفكر السياسي المسيحي، إعطاء تبرير فلسفي لهذه الفكرة، ذاكراً أن الإنسان مخلوق مزدوج التكوين، فهو من روح وجسد، ومن أجل ذلك فهو يعيش في مدينتين في ذات الوقت. فهو يعيش بأشواقه الروحية في"مدينة الله"، وهنا يرنو إلى الكنيسة ويتطلع إليها من أجل إنقاذ روحه وتخليصها من الشر والآثام، وهو، في نفس الوقت،مضطر إلى العيش داخل "المدينة الأرضة" لكي يلبي ويشفي حاجاته الجسدية. فكرس أوغسطين بذلك المبدأ العلماني الذي يفصل بين الدين والدولة. بل نجده قد دعا صراحة إلى ضرورة أن يكون القانون الذي يحكم الناس قانوناً وضعياً[28].

28- إمام، زكريا بشير: مرجع سابق،ص257.

ومن ذات الفكرتين (فصل الدين عن الدولة، والقانون الوضعي) جاءت المبادئ العامة للحضارة الغربية. ومن قبل ذلك جاءت الديانة اليهودية حاملة لواء العنصرية ورفض الغير ونبذهم. ولنفس هذا السبب جاءت المسيحية دين تسامح وإخاء للخروج باليهودية من مجالها العنصري الضيق إلى نطاق أرحب وأوسع من المحبة بين البشر. ولكن المسيحية، والتي جاءت انطلاقاً إنسانياً من إسار العنصر وشهوات الجسد، سرعان ما وجدت نفسها أسيرة للنظام الاجتماعي للدولة الرومانية، إذ أن غلبة الحياة المادية على هذا النظام قد أضعفت من تأثير الدين علي الحياة الاجتماعية، فبقي الدين علي وجه العموم في دائرته الشخصية. ولقد كان هذا النفي للدين مصدر تدهور الحضارة الغربية، وذلك

بسبب فشلها في إحداث التوازن المادي الروحي في حياة الناس الخاصة والعامة. وكان هذا التوازن قد أختل بصورة كبيرة في بدايات القرن العشرين وذلك حين انصرف الأوربيون إلى استثمار نتائج العلم والتكنولوجيا في تطوير الحياة الأوربية علي أسس مادية. وقد تبلور ذلك في الاتجاه العلماني الذي لم يقف عند حد إعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر، كما نادي بذلك رجالات الكنيسة عند بداية انتشار المسيحية، بل ترك كل شئ لقيصر وأهمل،أن لم يكن الغي، جميع ما لله، بحيث ابتعد الدين عن كل مجالات الحياة وأجهزتها التربوية والسياسية والاجتماعية والقانونية. وفي هذا الطور الأخير اتسم العلم بالإلحاد، وبرزت بوضوح الاتجاهات المادية التي عبرت عن نفسها في نظريات مختلفة.

والحقيقية أن المعركة في الغرب لم تكن بين العلم والدين علي عمومة، وإنما كانت بين العلم وتفسير خاص للدين، اتبعته الكنيسة، أبعده عن العلم، فكان لابد للمجتمع الأوربي من الثورة علي الدين، وكان أيضاً أن ارتبط المنهج العلمي بالعداء الديني. هذا وقد جاءت الثورة العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر لتؤكد المنهج الطبيعي في تفسير الكون. فكان اكتشاف قانون الجاذبية بواسطة اسحق نيوتن

وما ترتب عليه من نظريات ميكانيكية في حقل الفيزياء كانت سبيلاً لتفسير حركات الكواكب وكل الأجرام السماوية، ومن بينها الأرض، تفسيراً مادياً لا يحتاج إلى تدخل قوة أخري غير قوانين الطبيعة. ومن ثم فقد قالوا أن الكون ليس في حاجة إلى قوة ربانية لتدبير أموره. ثم كانت نظرية النشوء والارتقاء التي جاء بها دارون في مجال الأحياء سبيلاً، هي الأخرى، إلى إلغاء فكرة الخلق المستقل للإنسان. ومن ثم التخلص مرة أخرى من حقيقة خلق الله سبحانه وتعالى للكون[29]. ثم جاءت نظريات أخرى في مختلف مجالات العلم لتقيم من كل ذلك فلسفة مادية شاملة تفسر بها حياة الناس وتنفي بها الدين وأثره في الحياة. ومما زاد الناس ثقة في هذا الاتجاه المادي ازدياد انتصارات العلم وقدرته علي تحقيق التقدم المادي الكبير الذي حدث في حياة المجتمعات الغربية.

هذا وقد كانت نظرية دارون قد أعطت، كما يورد قطب، إيحاءين متصاحبين: الإيحاء بالتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات، والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته بإرجاعه إلى الأصل الحيواني، من ناحية أخرى، وحصر القوي التي
تؤثر فيه في القوى المادية المتمثلة في البيئة أو الطبيعة، وإغفال الجانب الروحي إغفالاً تاماً، وإغفال تدخل الله في عمليه الخلق أو في عملية التطور. ومن هذين الإيحاءين أخذ الكثير من العلماء الغربيين التوسع في الاتجاه المادي للحياة البشرية[30].

وإذا كان اليهود ليسوا هم الذين انشاؤا الفرقة بين أوروبا والدين، إذ أنها قد قامت بالفعل منذ عصر النهضة الأوربية، إلا أن الكثير من علمائهم قد تدخلوا في الأمر ليجعلوا من ذلك، كل في اختصاصه، نظريات يسندها العلم. ونأخذ علي سبيل المثال لا الحصر أعمال ثلاث من مشاهير علمائهم: "كارل ماركس"، "سيجموند فرويد" و"اميل دوركايم". لقد اتخذ اليهود الثلاثة نواحي مختلفة من الفكر؛ أما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد، ولكنه لم يقتصر بحثه علي النواحي الأكاديمية في هذا العلم،

29- محمد قطب: مرجع سابق، ص105.
30- نفس المرجع ص39.

وإنما وضع مذهباً كاملاً للحياة وطد فيه أركان التفسير المادي للتاريخ، وهو تفسير يجعل للقوي المادية السلطان الأكبر علي نشاط الإنسان. فتاريخ البشـرية، كله، ما هو إلا اختراع آلة جديدة أو تغير أسلوب للإنتاج. والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيماً أصيلة قائمة بذاتها في الكيان البشري،إنما هي انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية. وفي ظل هذا التفسير المادي للتاريخ لا يوجد الله ولا الوحي ولا الرسالات، فهي، عند ماركس، وهم من أكبر أوهام البشـرية. ولقد انتشر هذا الاتجاه المادي فدخل كل الحياة الغربية، علي الاتساع. فالغرب كله، الذي لم يصبح شيوعياً من حيث المذهب، قد أخذ بالتفسير المادي للتاريخ، وصارت الحياة الغربية القائمة في ظل النظام الرأسمالي لا تفترق في أساسها الفكري عن مثيلتها في العالم الشيوعي[31].

وإذا كان ماركس، وتحت مظلة البحث في علم الاقتصاد، قد توصل إلى أن الدين والأخلاق ليسا قيماً أصيلة في النفس البشـرية، فإن فرويد قد توصل إلى ذات النتيجة تحت مظلة البحث العلمي في علم النفس. فالنفس عند فرويد هي الميدان الأصيل للحياة، وعن تركيبها الذاتي تنبثق الأفكار والأفعال. والحياة النفسية عند فرويد ليست حيوانية فحسب، ولكن تنبع كلها من جانب واحد من جوانب الحيوان،هو جانب الجنس المسيطر علي كل نشاط الإنسان. أما الجانب الروحي فلا وجود له علي الإطلاق عند فرويد[32].

وعلي عكس ذلك تماماً يقف دوركايم،فهو لا يعترف بأن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية، بل العكس هو الصحيح، إذ أن الحياة الاجتماعية عند دوركايم هي التي تشكل مشاعر الفرد وتوجه أفعاله. وهو (أي دوركايم) في جولاته الواسعة في علم الاجتماع قد عني، بصورة خاصة، بأن يقول أن الدين ليس فطرة،وأن الزواج ليس فطرة،وأن الأخلاق ليست قيمة ذاتية، بل هي ليست ثابتة علي حال معين، وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه. فالمجتمع، أو ما سماه دوركايم، "بالعقل الجمعي" هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان[33].

31- أنظر: محمد، قطب: مرجع سابق، ص40-42.
32- انظر: نفس مرجع، ص45-46.
33- أنظر: نفس مرجع،ص51-55.

نخلص فنقول أن التفسير المادي هو الذي يحكم الحياة في الغرب، ويحكمها في ذات الأمرين اللذين أراد اليهود الثلاث تحطيمهما تحت ستار البحث العلمي: الدين والأخلاق. أنهم لم يقولوا أن المفهوم الكنسـي للدين هو المنحرف، وهو الذي يحتاج إلى تقويم، وإنما قالوا أن الدين ذاته هو المنحرف، وهو الذي يحتاج إلى تقويم. وكذلك لم يقولوا أن المفهوم السائد للأخلاق هو المنحرف، وهو المحتاج إلى تعديل،وإنما قالوا أن الأخلاق، في ذاتها،ليست قيمة حقيقية من قيم الإنسان. صحيح أن الدين في الغرب لم يصادر، وصحيح أن معظم الناس في الغرب يؤمنون بأن هناك رباً خلق الكون والحياة والإنسان، وصحيح أنهم يلبسون الصليب ويذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد، ولكن هذا الدين لم يكيف شيئاً من حياة الناس الواقعية في المجتمعات الغربية. بل أنه قد اصطدم، ومنذ عصـر النهضة بكل نواحي الحياة في المجتمعات الغربية، وقام صراعاً عنيفاً بين الدين والتطور، انتهي بتنحية الدين عن الحياة العملية في الاقتصاد والاجتماع والسياسة وفي العلم عموماً ، ولم يبق له إلا ركن ضئيل في حياة الإفراد.

وكان الجديد الذي أتى به الإسلام أن اكمل النقص في الرسالات السماوية، بأن ادخل الدين في حياة المجتمع، ومزج بين قيم الدين و مجرى الحياة اليومية في وحدة عضوية فاعلة, تصبح فيها قيم الدين وفضائله وأحكامه جزءاً من حياة الناس الخاصة والعامة. وأعمال الإنسان في الإسلام مترابطة, المادي منها والمعنوي, الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وغيرها, كلها, و إن بدت منفصلة أو متخصصة، إلا أنها ذات ترابط و وثيق. وهي متجهة في كلياتها لعبادة الله و إرضائه[34]. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية 162]

34- قاسم،عون الشريف: مرجع سابق، ص174.

وبالرغم من وجود أسباب التغير في الحياة البشرية بسبب نمو وتطور العقل البشري، إلا أن هذا العقل لا ينمو منفرداً، بل أن ذلك يتم داخل الإطار الكلي للإنسان. سواء في ذلك الإنسان الفرد، كما تناوله فرويد ورفع من شأنه وأحط من قدر المجتمع، أو الإنسان المجتمع والذي عني به دوركايم ورفع من شأنه وأحط من قدر الفرد.

ومن هذه العلاقة العضوية المزدوجة (الفرد والمجتمع) يقيم الإسلام نظامه للحياة البشرية، مركزاً في ذلك علي خلق الشخصية الإنسانية التي توازن بين متطلبات الجسد ورغبات الروح، وبين حاجات الفرد الخاصة والتطلعات العامة للمجتمع. هذا وقد وضع الإسلام بهذا المنهج المتوازن حداً فاصلاً بين غلبة العواطف والشهوات واستقرار الحياة الاجتماعية، فأكد بذلك سيادة العقل والعلم. والقرآن، دستور الإسلام،كله دعوة للعلم، ولقد جاءت أولى آياته تأكيداً لهذه الدعوة،حيث جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [سورة العلق: الآية 4] إلاأن العلم في القرآن مقرون بالإيمان وهو الآخر مرتبط بالعمل، بل إن الإيمان هو الذي يعطى العمل قدسيته وإنسانيته.

ولكن انحياز العلم في الغرب إلى جانب المادة،وإغفاله جانب الروح، قد اطفي علي الإنسانية قدراً كبيراً من الأنانية، وأدخلها في صراعات وأعمال عنف وحروب وكثيراً من مظاهر الظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي والمطامع الدنيوية الأخرى. فالإنسان، وبمثل احتياجه لتطوير حياته المادية عن طريق استخدام العلم،فهو أيضاً، في أمس الحوجه لتطوير حياته الروحية والارتقاء بها. وأحسب أن الجانب الروحي من هذا التطور هو الأصعب، ذلك أنه يتضمن مجاهدة للنفس وعدم الامتثال لرغباتها، والنفس كما يقال أمارة بالسوء. والأديان هي المسئولة عن هذا الارتقاء الروحي في شخصية الإنسان. يحدث ذلك في المجتمع المسلم عن طريق الممارسة المستمرة للعبادات، وعدم الإسراف في الملذات،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،فتتحقق بذلك الوسطية التي تحدث التوازن في نفس الإنسان وفي حياة المجتمع.

وتحقيق هذه الوسطية، كما يورد قاسم، ليس حلاً لمشكلة المسلمين وحدهم،وإنما هي حل لمشكلة الإنسانية جمعاً[35]. ذلك أن القانون وحده لا يستطيع كبح جماح شهوات النفس البشرية، بل أن الأمر يستلزم أن يكون هذا الكبح جزءاً من كيان الفرد وضميره. وهذا هو ما هدف إليه الإسلام من صياغة الفرد صياغة اجتماعيه تتوجه فيها طاقاته الروحية والجسدية لخلق المجتمع المستقر والمتوازن. فالخطوة الأولي في تعديل مسيرة الحضارة الإنسانية تبدأ، إذن، بالرجوع إلى الإيمان، والسعي لاكتشاف الدين في حياة الإنسان من جديد. وهذا الرجوع، كما يذهب قاسم، ليس ضرورة روحيه فحسب إنما هو، أيضاً، ضرورة اجتماعية واقتصادية وسياسية. فالعلاقة بين حياة الإنسان الروحية وحياته المادية أدق وأعمق مما ذهبت إليه النظريات المادية التي جعلت للمادة الغلبة علي الفكر. فأصبح الإنسان الذي منحه الله نعمة العقل كمثل غيره من أدوات الطبيعة التي تسيرها الحتمية وتدفعها قوة الطبيعة العمياء. ذلك في حين أن الإنسان وبابتعاده عن الطبيعة في بيئته الخارجية يصنع الحضارة، ثم بابتعاده عن الطبيعة في بيئته الفكرية يصنع إنسانيته[36].

والحضارة الإسلامية من أكثر الحضارات حظاً في المجالين العلمي والروحي علي السواء، والمجتمع المسلم مجتمع علم وثقافة وحضارة بالضرورة. ذلك أن الإسلام يفرض علي معتنقيه قدراً لازماً من العلم بكتاب الله لمعرفة فروضة وأحكامه. والمجالان يمتدان في الإسلام لينظما حياة الأفراد الخاصة والعامة، وعلاقاتهم بالوجود وبخالق الوجود. وبذلك يجد الفرد السلم نفسه في انسجام مع ذاته ومع مجتمعة ومع العالم ومع الكون وخالق الكون، ليتم له بذلك الطمأنينة والراحة الفكرية والنفسية التي تمكنه من تحقيق إنسانيته[37].

35- نفس المرجع، ص58.

36- قاسم، عون الشريف: مرجع سابق، ص59-60.

37- نفس المرجع، ص176.

وعلي العكس من ذلك تماماً جاء الابتعاد عن الدين في الحضارة الغربية وإهمالها له كعنصر فعال في إحداث التوازن في حياة الناس الخاصة والعامة، وتأكيدها علي قيم ومتطلبات الحياة المادية. وهي في هذا المجال تقدم للعالم، اليوم، أغلب السلع الاستهلاكية، وتتحكم بالتالي في التجارة الدولية، وتسيطر علي الأسواق العالمية الرئيسية، وهي أيضاً تمتلك وتدير النظام المصرفي العالمي وتتحكم في كل العملات الصعبة. وهي كذلك تقود معظم البحث العلمي والتقني وتسيطر بالتالي علي الصناعة وخاصة صناعة الأسلحة ذات التقنية العالية، والتي تفرض بها سيطرتها الحالية علي العالم. أما الصورة علي القطب القيمي فتختلف تماماً، فهي صورة حضارة تواجه تفككاً أسرياً وإجتماعياً وتفسخاً أخلاقياً وانتشاراً للجريمة وتفشياً لتعاطي المخدرات والكحول والجنس.
لقد قصمت الحضارة الغربية، ابتداءً ما بين السماء والأرض من روابط، فاهتمت بجانب الأرض (الجانب المادي) فنمي وتطور، وأهملت جانب السماء (الجانب الروحي) فكبت وتخلف. وجاءت الثورة الصناعية بعيدة عن الدين، وخيل للغربيين أن التطور الذي حدث هو حصيلة لهذا الابتعاد. وهذا وهم كاذب، ذلك أن الدين ليس عدواً للتطور وهو الذي أنزل أصلاً للإنسان ليعمر به الأرض ويحقق خلافة الله عليها، وذلك عن طريق نعمة العقل التي أودعها الله فيه دون سائر المخلوقات. والقرآن، كما أشرنا سابقاً، كله دعوة للعلم وأعمال للفكر وتسخيرهما من أجل التطور.

ونتيجة لغلبة الحضارة الغربية وتخلف الحضارة الإسلامية في النواحي المادية، وهي نواحي هامة في حياة الإنسان، نشهد اليوم محاولات التدخل المستمر للغرب في المجتمعات الإسلامية، بهدف تحطيم الدين فيها. فقد شكلت وزارة الخارجية الأمريكية، في الآونة الأخيرة، لجنة أطلق عليها "لجنة تطوير الخطاب الديني في الدول العربية والإسلامية" هدفها تقليل الاهتمام بالجانب الديني في حياة هذه المجتمعات. وقد رأت اللجنة أن إحدى الوسائل الفاعلة لتحقيق هذا الهدف هو إغراق الشعوب العربية والإسلامية في صور مختلفة.من أنماط الحياة الغربية المادية. وهذا هو عين نموذج التغريب (Westernization) الذي اتبعه الغرب في تعامله مع المجتمعات التي غلب عليها كما أشرنا لذلك في مطلع هذا المقال.

وهذه هي نفس النواحي (الدين والأخلاق) التي أراد اليهود الثلاث سابقي الذكر-ماركس، فرويد ودوركايم، تحطيمهما في الغرب، ثم عن طريقة في بقية العالم. فقد أفهمت أفكارهم، الخبيثة، الغرب بأنة حين يفلت من إطار الدين وقواعد الأخلاق فهو يتقدم. وأن هناك معركة مقدسة يجب أن يخوضها الغرب ضد الرجعية والجمود والتأخر في المجتمعات غير الغربية وخاصة الإسلامية،والعربية منها علي وجهة الخصوص. ولقد تبع ذلك بالفعل جهود مكثفة من الغرب لزعزعة الكيانات الحضارية لتلك الشعوب وتشويه تفاعلاتها الوطنية ومسخها، وذلك بإقامة مؤسسات بديلة مستمدة من قيم الغرب ومناهجه وأساليبه سواء كان ذلك في مجال التربية والتعليم والثقافة أو في مجال التشريع، أو حتى في مجال سلوك الناس الخاص والعام في البيت والمجتمع. وكانت النتيجة ازدواج في الشخصية علي احسن الفروض أو ذوبانها في النموذج الغربي وهو الأمر الأعم والمشاهد[38].

ويعني ذلك في نهاية التقييم أن كل منا قد انحرف؛ نحن المسلمون قد انحرفنا لأننا ابتعدنا عن قيم حضارتنا الإسلامية، حضارة العلم والفكر والتوازن المادي والروحي. وهم الغربيون قد انحرفوا لتمسكهم بحضارتهم ذات المذهب الفردي والغلبة المادية. ولكننا نحن المسلمون، رغم انحرافنا، إلا أننا نملك السبيل إلى التقويم، نملك الإسلام،تلك القوة الإصلاحية الكبرى، وهو طريقنا إلى التقدم حال رجوعنا إليه. ونحن محتاجون لمثل هذا الرجوع، بل محتاجون لثورة ثقافية حضارية تبعث فينا الإسلام من جديد، وتخرجنا عن التقليد والذوبان في الآخرين، وتفتح أمامنا الطريق للنمو الذاتي. أما الغربيون فلا طريق أمامهم، وهم علي ماديتهم وأنانيتهم وغرطستهم التي جسدت الصراع وجعلت منة نظرية تحدث عنها هنتنجتون وغيره من علماء الغرب، ليس أمامهم سوى الضياع. فأي الطريقين هو الذي يكتب مستقبل البشرية وينقذها من دمار وشيك؟!.

38- قاسم،عون الشريف: مرجع سابق،ص14.

الهوامـش:

التويجري ، عبدالعزيز بن عثمان: "صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول 1423 هـ / أغسطس 2002 م.

المهدي، الصادق: "الحضارات الإنسانية تصارع أم تحاور". ورقة قدمت لمؤتمر حوار الحضارات،جامعة النيلين، 6_8 مارس 2003 م.

إمام، زكريا بشير: "مدخل إلى النظرية السياسية في القرآن الكريم". دار هيزر للنشر، 1999 م.

حنفي، حسن: "الإسلام والغرب: صراع أم حوار". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي ،عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، جمادى الأول 1423 هـ / أغسطس 2002 م.

قاسم، عون الشريف: "الإسلام والثورة الحضارية". دار الجيل، بيروت / دار المأمون المحدودة، الخرطوم، 1999م.

قنوص، صبحي محمد: " أزمة التنمية: دراسة تحليلية للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث"1990 م.

محمد قطب: "التطور والثبات في حياة البشـرية". مكتبة وهبه 142 شارع الجمهورية، عابدين، القاهرة.

موسى، عزالدين عمر: "بين حوار الحضارات وتصادمها: رؤية مغايرة". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول 1423 هـ / أغسطس 2002م.

نافعة، حسن: "المثقف العربي والأمير الأمريكي: فؤاد عجمي نموذجاً". المستقبل العربي ، العدد 289، مركز دراسات الوحدة العربية، الحمراء ، بيروت،2090،1103 لبنان، مارس 2003 م.

هنتنجتون ، صامويل: "صدام الحضارات: لإعادة صنع النظام العالمي". سايمون وشيستر،مركز روكفلر، نيويورك ،1999 م ، ترجمة طلعت الشايب.

المراجع

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، مؤسسة جمال للمطبوعات، 1979).

ابن ابي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس (الرباط، دار المنصور للطباعة، 1972).

ابن عذاري، ابو العباس احمد بن محمد، البيان المغرب، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال (بيروت، دار الثقافة، 1980).

الغزالي، ابو حامد، احياء علوم القرأن (القاهرة، 1939).

المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978).

المقري، شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب، تحقيق: احسان عباس (بيروت، 1968).

احمد ،حسني، الحضارة العربية (د.م، د.ت).

اوليري، دي لاسي، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة : اسماعيل البيطار (بيروت، 1972).

بدر، احمد، تاريخ الاندلس (عصر الخلافة) (دمشق: 1974).

بدوي عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي (بيروت: 1979).

بيرنيت تشارلز، حركة الترجمةمن العربية في القرون الوسطى في اسبانيا، ترجمة: عمران ابو حجلة ، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999).

بيضون، ابراهيم، الدولة العربية في اسبانيا، (بيروت:1978).

التكريتي، سليم طه، اوربا ترسل بعثاتها الى الاندلس، مجلة الوعي الاسلامي، العدد 37، الكويت، 1968.

الجليلي، محمود، تأثير الطب العربي في الطب الاوربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد32، الجزء،3، 1981.
الحجي، عبد الرحمن، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، (بيروت، دار ا الرشاد، 1969).
الخطابي، محمد العربي، الطب والاطباء في الاندلس الاسلامية (بيروت، دار العرب الاسلامي، 1988).
السامرائي، خليل ابراهيم، دراسات في تاريخ الفكر العربي، (الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1986).
سالم، عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس (بيروت: 1972).
السامرائي، وأخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، (بنغازي، دار المدار الإسلامي، 2004).
سامو، خوليو، العلوم الدقيقة في الأندلس، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة عربية، 1999).
عاشور، سعيد عبد الفتاح، المدنية الإسلامية واثرها على أوربا، (القاهرة: 1963).
عبد البديع، لطفي، الاسلام في اسبانيا، (القاهرة: 1961),
عنان، محمد عبد الله، دولة الاسلام في الاندلس، (القاهرة: 1960).
غوميز، مارغريتا لوبيز، اسهامات حضارية للعالم الاسلامي في اوربا عبر الاندلس، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999).
فيرنيه، خوان، العلوم الفيزياوية والطبيعية والتقنية في الأندلس، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999).
قاسم، محمود الحاج، انتقال الطب العربي الى الغرب (دمشق، دار النفائس، 1999).
لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر (بيروت، 1979).

ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (القاهرة: 1978),
مرحبا، محمد عبد الرحمن، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1981).
مظهر، جلال، حضارة الاسلام واثرها في الترقي العالمي (القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974) .
نجيب، حكمت، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (الموصل، دار الكتب للطباعة، والنشر، 1977).
هيرنانديس، ميغيل كروز، الفكر الاسلامي في شبه الجزيرةالايبيرية، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999).
هونكه، زيغريد، شمس الاسلام تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي ،(بيروت، منشورات المكتب التجاري، د.ت).
واط، مونتيكمري، تأثير الاسلام على اوربا في العصور الوسطى، ترجمة عادل نجم عبو (الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1982).
وبزورث، شاختن تراث الاسلام، ترجمة: حسين مؤنس وأخرون (الكويت، 1978).

يقصد بالمنهج ، مجموعة القواعد أو(المعايير) الثابتة التي يعتمد الباحث عليها سعيا منه وراء تحقيق هدف اكاديمي محدد ، ومناهج دراسة العلاقات السياسية الدولية ـ متعددة ،ولكل منهج حسناتة وسيئاتة لمزيد من الاطلاع ـ انظر ـ مازن الرمضاني ،دراسة نظرية في السياسة الخارجية ،ج بغداد :محاضرات بالرونيو القيت على طلبة قسم العلوم السياسية للعام الدراسي (1983-1984)ـص 47- انظر ايضا عبد اللطيف علي حسين المياح ،الردع في السياسة الخارجية ـ رسالة ماجستير في العلاقات الدولية (غير منشورة) الجامعة المستنصرية : معهد الدراسات القومية والاشتراكية ، 1986- ص6-20.

هيثم الكيلاني ،الامن القومي وجامعة الدول العربية ، الوحدة (الرباط) العدد (28)، 1987،ص 77.

محمد الصوافي ،البناء الحقوقي للنظام العربي ،عناصر من أجل بلورة الامن القومي العربي ، مجلة الوحدة (الرباط)العدد(28) 1987،ص 146.

المرجع السابق ، ص 145.

المرجع السابق ، ص 146.

عبد المنعم المشاط ، نحو صاغة عربية لنظرية الامن القومي ، المستقبل العربي ، العدد(54) ،1983، ص 5-6.

ياسين سويد ، كيف يتحقق الامن القومي العربي ،مجلة الوحدة ، العدد(88)1992 ـ ص 11.

محمد عوض الهزايمة ، الجديد في القضايا الدولية المعاصرة :عمان :المؤلف ،200 ـص67.

نبيل خليفة ، فيان الشرق الاوسط وحروب العقد القادم ، مجلة الوحدة (الرباط)، العدد 1991،76- ص41.

المرجع السابق ـص12.

فريق أول محمد فوزي ، واقع الامن القومي العربي ،مجلة الوحدة (الرباط)،العدد (88)،1992ـص7.

قاسم العتمة ،الامن القومي العربي والوحدة القومية ، مجلة الوحدة (الرباط)،العدد (28)،1967ـص35

ياسين سويد ،الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ،الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني ،المجلد السادس ،ص 372- 380.

قاسم العتمة ،مرجع سابق ،ص45.

لأفت غنيمي الشيخ ،في تاريخ العرب الحديث ،ط1ـالقاهرة: دار الطباعة ،1975ـص15-16.

محمد فؤاد الكوبرلي ،قيام الدولة العثمانية ،ترجمة أحمد السيد سليمان ـ القاهرة :دار الكتاب العربي ،1997 ـص127-135.

رواه احمد في مسنده (4/ 335) ،والحاكم في مستدركة عن ابي عبيدة بشر الغنوي الخشعي .

ألين تايلور ، تاريخ الحركة الصهيونية ، ترجمة بسام ابو غزالة ـ بيروت : دار الطليعة ،1966 ـص14.

السير هنري كامبل بزمان سياسي بريطاني ، ينتمي الى حزب الاحرار وتزعمه ،كما ترأسالحكومة البريطانية بين الاعوام (1905- 1908) مات بعد استقالة حكومتة بـ(17)يوم ،وكان ذلك في 22نيسان من العام نفسه 1908م. انظر ـ دائرة المعارف البريطانية ،عام 1965،حرفB .

محمد عوض الهزايمة ،الايديولوجيا والسياسة الخارجية ، (رسالة دكتوراة غير منشورة)۔ تونس :كلية الحقوق والعلوم السياسة ،1994- ص86.

عبدالله عبد الدايم ،موقف الصهيونية والحركة القومية العربية ،مجلة شؤون عربية، العدد 255،ايلول 1988ص11.

Howard .MorleY Sachar ,The Emergence Of the Middle East :(1914_1942) 2ed-ed-London:Allen Lance Penguin<1970,P 158.

Leonard g.stein ,The Baifour Declaration-London ,Valeline-New York,Slaman,1961,P ,(548- 549).

محمد عوض الهزايمة ،الايديولوجيا والسياسة الخارجية ، مرجع سابق ، ص89.

مبدر الويس ، الوحدة والاتحاد في المشروع القومي العربي ،مجلة الوحدة (الرباط) ، العدد (65) ،1990 ص35.

احمد الجباعي ، العرب في مواجهة السياسات الدولية ،مجلة الوحدة (الرباط) ،العدد (69)،1990ص24.

رواه احمد و الترمذي ،كما روى ايضا : ((ما اطيبك من بلد وما أحبك الى ..)).

محمد قطب ،مذاهب فكريةمعاصرة ـ بيروت :دار الشروق ،1977ص 585.

سورة التوبة ،الآية (24)

سورة المجادلة ،الآية (22).

رواه ابو داود في السنن.

رواه الطبري والحاكم في المستدرك .

قال هذا القول (عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري) خلال استقبالة مع عبدالله الاحمر لأعضاء جبهة العمل الاسلامي الاردني ـانظر ـمجلة العمل الاسلامي ، زيارة سوريا :الهدف ،المجريات ، النتائج ، العدد (11)ايلول 1996 ـص11-12.

محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، مرجع سابق ،ص 554 .

رواه الترمذي بسند صحيح .

رواه البخاري في صحيحة ،(152/1).

اخبار تلفزيون المنار (اللبنانية)، يوم 10 شباط 2003 الساعة (8,30)مساء.
رشاد الدسوفي ، استراتيجية النمر الامريكي في الخليج ، مجلة المجتمع ، العدد (1295)، 1998، ص 41- 42.
محمد طاهر حكيم ، المسلمون على مشارف القرن الواحد والعشروين ، مجلة السبيل ،العدد (403) ، 1997- ص83.
يحيى ابو زكريا ، اللجوء السياسي(مصيدة) التجسس المجاني على العالم الاسلامي ،مجلة المجتمع (الكويت) ، العدد (1453) ، 2001،ص30-31.
المرجع السابق ص 30.
رفعت سيد احمد ،غزو العقل العربي :الدور الامريكي ـ الاسرائيلي.. في المنطقة ، مجلة الوحدة (الرباط) ، العدد (69)، 1990 ـ ص44.
الملف الاقتصادي ، الديون وفوائد الديون العربية مجلة فلسطين المحتلة ، عدد(شباط) ، 1993ـص 50
صالح احمد القرعان، الموقف الاردني من ازمة الخليج ،(رسالة ماجستير غير منشورة)ـالجامعة الاردنية:كلية الدرسات العليا ،1993- ص 12.
محمد صالح مسفر ،ماذا يجري في خليج الغاز والبترول ،صحيفة الرأيالاردنية ،الصادرة بتاريخ (18) ايار 2001.
محمد صالح مسفر ،حوار لم ينتة بعد بين العراق وفلسطين وابن لادن،صحيفة الرأي الاردنية ،الصادرة بتاريخ (17)نيسان 2001.
محمد عوض الهزايمة ،حاضر العالم الاسلامي ـ عمان : دار عمار،1997، ص 104.
سورة المؤمنين، الآية (52).
سورة الحجرات ، الآية (10).
رواه البخاري.
رواه البخاري .
رابطة العالم الإسلامي،إنجازات وتطلعات في (25) عاماً،1382–14.7هـ/ 1962–1987م، ص 14 ،مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة

رابطة العالم الإسلامي،إنجازات وتطلعات في (25) عاماً،1382–14.7هـ/ 1962–1987م م، س .ص15.

رابطة العالم الإسلامي،إنجازات وتطلعات في (25) عاماً،1382–14.7هـ/ 1962–1987م م، س، ص 17 .

رابطة العالم الإسلامي،إنجازات وتطلعات في (25) عاماً،1382–14.7هـ/ 1962–1987م م، س، ص 13 .

رابطة العالم الإسلامي،إنجازات وتطلعات في (25) عاماً،1382–14.7هـ/ 1962–1987م م، س، ص 21 وما بعدها .

رابطة العالم الإسلامي،إنجازات وتطلعات في (25) عاماً،1382–14.7هـ/ 1962–1987م م، س، 34 .تقرير الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي،المقدم للمجلس التأسيسي في الدورة السابعة والثلاثين 27–1/28/ 1423هـ،ص189 وما بعدها .

رابطة العالم الإسلامي، المجمع الفقهي الإسلامي, كتاب موجز للتعريف بأهداف المجمع، ووسائله، وأنشطته، والعاملين فيه، والقضايا التي عالجها. مطابع رابطة العالم الإسلامي،مكة المكرمة ، ص1-130 .

رابطة العالم الإسلامي، المجمع الفقهي الإسلامي, كتاب موجز للتعريف بأهداف المجمع، ووسائله، م، س، 131 .

التقارير السنوية لرابطة العالم الإسلامي .والهيئات التابعة لها .لفترة الدراسة .

رابطة العالم الإسلامي، جريدة العالم الإسلامي. مطابع رابطة العالم الإسلامي،مكة المكرمة .

رابطة العالم الإسلامي، المجمع الفقهي الإسلامي، قرارات المجمع الفقهي، ص1،ط 2، مطابع رابطة العالم الإسلامي.

د. خلف النمري، بحث المعاملات المالية والاقتصادية التي درسها المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي.

محمد عبدالمنعم عفر، التكامل الاقتصادي، ص 21 .

سورة المؤمنون، آية 52 .

سورة الحجرات،آية 19 .

رواه البخاري .

رواه البخاري.

رواه البخاري.

محمد عبدالمنعم عفر، مشكلة التخلف وإطار التنمية والتكامل الاقتصادي، ص 21 الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية1407هـ.

محمد عبدالمنعم عفر، م، س .، ص20،

أحمد محمد على :محاضرة بعنوان (مستقبل التعاون الاقتصادي فيما بين الأقطار الإسلامية)،ص 2وما بعدها .

.عبد الرحمن يسري أحمد، قضايا اقتصادية معاصرة، ص 266–267

عبد الرحمن يسري أحمد، قضايا اقتصادية معاصرة م، س ، ص265

سورة الرعد : آية 11.

د. عبد الحميد إبراهيم : العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصادي الإسلامي ص 26، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان .

د. عبد الحميد إبراهيم : العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصادي الإسلامي ص 26 0م،س 04 .

المؤتمر الإسلامي العام الرابع لرابطة العالم الإسلامي الذي عقد في مكة المكرمة في الفترة من 23–27 /1423/1هـ الموافق 6–2002/4/10م.

سورة الحجرات : آية 10.

الدورة العشرون للمجلس التأسيسي المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة من 15–27 ذي القعدة 1398هـ الموافق 17–29 اكتوبر 1978م.

الدورة الحادية والعشرون للمجلس التأسيسي المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة من 15–29 ذي القعدة 1399هـ الموافق 6–20 اكتوبر 1979م رقم القرار (ثالثاً) فقرة رقم (7) نص القرار :

(1) الدورة الثالثة والعشرون للمجلس التأسيسي المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة من 15–26 ذي القعدة 1401هـالموافق 13–24 سبتمبر 1981م رقم

القرار (خامساً) فقرة رقم(4).

سورة المائدة : آية 2.

الدورة السادسة والعشرون للمجلس التأسيسي المنعقدة بمكة المكرمة في الفترة من 7–14 ربيع الآخر 1405هـ الموافق 29 ديسمبر 1984م– 5 يناير 1985م رقم التوصية(20) فقرة رقم (ب).

المنعقد في مكة المكرمة، في الفترة من 16–19 ذي الحجة 1399هـ الموافق 6–9نوفمبر 1979م نص التوصية (ج) الفقرة (رابعاً).

مؤتمر وزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية الدورة الثانية المنعقدة بمكة المكرمة في ربيع الثاني 1400.هـ

اجتماع المنظمات والمؤسسات الإسلامية الثاني المنعقد بمكة المكرمة في الفترة من 7–16 شعبان 1389هـ الموافق 18–27 أكتوبر 1969م

المؤتمر الإسلامي العام الرابع لرابطة العالم الإسلامي الذي عقد.في مكة المكرمة في الفترة من 23–27 /1423/1هـ الموافق 6–2/4/.1..2م التوصيات .

مؤتمر وزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية الدورة الثانية المنعقدة بمكة المكرمة في ربيع الثاني 1405هـ.

بيانات إدارة الإعانات /رابطة العالم الإسلامي .

رابطة العالم الإسلامي حقائق وأرقام 1381-1422هـ ص58، 60، مطابع رابطة العالم الإسلامي،مكة المكرمة .